رسالة
في أمراض القلوب

تأليف

الإمام الحافظ ناصر السنة وقامع البدعة

أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الشهير بابن قيم الجوزية

(٦٩١ - ٧٥١ هـ)

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلّى الله عليه وعلى آله وسلم تسليماً أما بعد :

فلمّا كان القلب سيد أعضاء الجسد وأن مدار صلاح البدن وسعادته مرتبط بصلاح وسعادة القلب كما قال النبي ﷺ (ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب).

وحرصاً من دار طيبة على نشر ما ينفع المسلمين في دينهم ودنياهم فقد رأت أن تقدم للقارىء الكريم هذه الرسالة القيمة والتي تبين أنواع القلوب والأمراض التي تصيبها وأسباب تلك الأمراض وعلاجها .

هذا والرسالة مقتبسة من كتاب﴿إغاثة اللهفان﴾للعلاّمة الإمام الحافظ ناصر السنة وقامع البدعة محمد بن أبي بكر الشهير بابن قيم الجوزية المتوفي سنة ٧٥١ هـ رحمه الله .

ودار طيبة للنشر إذ تقدم هذه الرسالة لترجو من الله تعالى أن ينفع بها ، وأن يحسن مثوبة مؤلفها، وألا يحرمها من أجره وثوابه وأن يجعلها خالصة لوجهه الكريم وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

الناشر في ١٤٠٣/٨/١٦

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذى ظهر لأوليائه بنعوت جلاله ، وأنار قلوبهم بمشاهدة صفات كماله ، وتعرّف إليهم بما أسداه إليهم من إنعامه وإفضاله ، فعلموا أنه الواحد الأحد ، الفرد الصمد . الذى لاشريك له فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله ، بل هو كما وصف به نفسه وفوق مايصفه به أحد من خلقه فى إكثاره وإقلاله ، لايحصى أحد ثناء عليه ، بل هو كما أثنى على نفسه على لسان من أكرمهم بإرساله ، الأول الذى ليس قبله شىء ، والآخر الذى ليس بعده شىء ، والباطن الذى ليس دونه شىء ، ولا يحجب المخلوق عنه تستره بسرباله . الحى القيوم ، الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، المنفرد بالبقاء ، وكل مخلوق منتهى إلى زواله ، السميع الذى يسمع ضجيج الأصوات باختلاف اللغات على تفنن الحاجات ، فلا يشغله سمع عن سمع ، ولا تغلطه المسائل ، ولا يتبرم بإلحاح الملحين فى سؤاله ، البصير الذى يرى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء فى الليلة الظلماء حيث كانت من سهله أو جباله . وألطف من ذلك رؤيته لتقلب قلب عبده ، ومشاهدته لاختلاف أحواله . فإن أقبل إليه تلقاه . وإنما إقبال العبد عليه من إقباله . وإن أعرض عنه لم يكله إلى عدوه[1] ولم يدعه فى إهماله ، بل يكون أرحم به من الوالدة بولدها الرفيقة به فى حمله ورضاعه وفصاله ، فإن تاب فهو أفرح بتوبته من الفاقد لراحلته التى عليها طعامه وشرابه فى الأرض الدوّية المهلكة إذا وجدها وقد تهيأ لموته وانقطاع أوصاله[2] ، وإن أصر على الإعراض ولم يتعرض لأسباب الرحمة بل أصر على العصيان فى إدباره وإقباله ،

---

(١) فى نسخة « إلى غيره » .

(٢) عن الحرث بن سويد عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لله أفرح بتوبة عبده المؤمن من رجل نزل فى أرض دوية مهلكة معه راحلته عليها طعامه وشرابه ، فوضع رأسه فنام نومة فاستيقظ وقد ذهبت راحلته ، فطلبها حتى إذا اشتد عليه الحرّ والعطش أو ماشاء الله قال : أرجع إلى مكانى الذى كنت فيه فأنام حتى أموت ، فوضع رأسه على ساعده ليموت فاستيقظ فإذا راحلته عنده عليها زاده وشرابه . فالله أشد فرحا بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته » رواه البخارى ومسلم . « الدوية » بفتح الدال المهملة وتشديد الواو والياء جميعاً : هى الفلاة القفر والمفازة .

وصالح عدو الله وقاطع سيده ، فقد استحق الهلاك ، ولا يهلك على الله إلا الشقى الهالك لعظيم رحمته وسعة إفضاله ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له إلٰهاً واحداً أحداً فرداً صمداً جلّ عن الأشباه والأمثال ، وتقدس عن الأضداد والأنداد والشركاء والأشكال ، لا مانع لما أعطى ولا معطى لما منع ، ولا رادّ لحكمه ولا معقب لأمره : (« ١٣ : ١١ » وَإِذَا أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ ؟) الرعد

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله القائم له بحقه ، وأمينه على وحيه وخيرته من خلقه ، أرسله رحمة للعالمين ، وإماما للمتقين ، وحسرة على الكافرين ، وحجة على العباد أجمعين ، بعثه على حين فترة من الرسل ، فهدى به إلى أقوم الطرق وأوضح السبل . وافترض على العباد طاعته ومحبته ، وتعظيمه وتوقيره والقيام بحقوقه ، وسدّ إلى جنته جميع الطرق فلم يفتح لأحد إلا من طريقه . فشرح له صدره ، ووضع عنه وزره ، ورفع له ذكره ، وجعل الذل والصغار على من خالف أمره ، وأقسم بحياته فى كتابه المبين[1] وقرن اسمه باسمه ، فلا يذكر إلا ذكر معه ، كما فى التشهد والخطب والتأذين . فلم يزل صلى الله عليه وسلم قائما بأمر الله لايرده عنه رادّ ، مشمراً فى مرضاة الله لا يصده عن ذلك صاد ، إلى أن أشرقت الدنيا برسالته ضياء وابتهاجاً ، ودخل الناس فى دين الله أفواجاً أفواجاً ، وسارت دعوته مسير الشمس فى الأقطار ، وبلغ دينه القيّم مابلغ الليل والنهار ، ثم استأثر الله به لينجز له ما وعده به فى كتابه المبين ، بعد أن بلغ الرسالة ، وأدّى الأمانة ، ونصح الأمة ، وجاهد فى الله حق الجهاد ، وأقام الدين ، وترك أمته على البيضاء الواضحة البينة للسالكين . وقال : (« ١٢ : ١٠٨ » هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ) يوسف = ١٠٨

---

(١) يشير إلى قوله تعالى فى سورة الحجر فى قصة لوط مع قومه حين جاءه رسل ربه من الملائكة . (وجاء أهل المدينة يستبشرون . قال إن هؤلاء ضيفى فلا تفضحون . واتقوا الله ولا تخزون . قالوا أو لم ننهك عن العالمين . قال هؤلاء بناتى إن كنتم فاعلين . لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون . فأخذتهم الصيحة مشرقين) والظاهر أن الضمير فى « لعمرك » يعود للوط لأن السياق معه . كما ذكر ذلك الزمخشرى وأبو حيان . وقيل : الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم . واللام لام الابتداء ولقد أقسم الله تعالى فى القرآن الكريم أقساماً صريحة بالشمس والقمر والليل والنهار والتين والزيتون والبلد الأمين . وغيرها . إشعاراً وإلفاتا لما فى ذلك من آيات ومن نعم له على عباده . ومن الخطأ البين أن يستدل بذلك على جواز أن يقسم الخلق بغير الله . مما أقسم الله تعالى به ولم يقل ذلك أحد إلا العوام من المتأخرين .

أما بعد : فإن الله سبحانه لم يخلق خلقه سدًى هملا ، بل جعلهم مورداً للتكليف ، ومحلا للأمر والنهى ، وألزمهم فهم ماأرشدهم إليه مجملا ومفصلا ، وقسمهم إلى شقى وسعيد ، وجعل لكل واحد من الفريقين منزلا ، وأعطاهم مواد العلم والعمل : من القلب ، والسمع ، والبصر ، والجوارح ، نعمة منه وتفضيلا ، فمن استعمل ذلك فى طاعته ، وسلك به طريق معرفته على ما أرشد إليه ولم يبغ عنه عدولا ، فقد قام بشكر ما أوتيه من ذلك ، وسلك به إلى مرضاة الله سبيلا ، ومن استعمله فى إرادته وشهواته ولم يرع حق خالقه فيه يخسر إذا سئل عن ذلك ، ويحزن حزناً طويلا. فإنه لا بد من الحساب على حق هذه الأعضاء لقوله تعالى : (« ١٧ : ٣٦ » إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً) . الإسراء : آية : ٣٦

ولما كان القلب لهذه الأعضاء كالملك المتصرف فى الجنود ، الذى تصدر كلها عن أمره ، ويستعملها فيما شاء ، فكلها تحت عبوديته وقهره ، وتكتسب منه الاستقامة والزيغ ، وتتبعه فيما يعقده من العزم أو يحله ، قال النبى صلى الله عليه وسلم : « أَلاَ وَإِنَّ فِى الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ[1] » ، فهو ملكها ، وهى المنفذة لما يأمرها به ، القابلة لما يأتيها من هديته ، ولا يستقيم لها شىء من أعمالها حتى تصدر عن قصده ونيته . وهو المسئول عنها كلها ، لأن كل راع مسئول عن رعيته : كان الاهتمام بتصحيحه وتسديده أولى ما اعتمد عليه السالكون . والنظر فى أمراضه وعلاجها أهم ما تنسك به الناسكون .

ولما علم عدو الله إبليس أن المدار على القلب والاعتماد عليه ، أجلب عليه بالوساوس ، وأقبل بوجوه الشهوات إليه ، وزين له من الأحوال والأعمال مايصده به عن الطريق ، وأمده من أسباب الغىّ بما يقطعه عن أسباب التوفيق ، ونصب له من المصايد والحبائل ما إن سلم من الوقوع فيها لم يسلم من أن يحصل له بها التعويق ، فلا نجاة من مصايده ومكايده إلا بدوام الاستعانة بالله تعالى ، والتعرض لأسباب مرضاته ، والتجاء القلب إليه وإقباله عليه فى حركاته وسكناته ، والتحقق بذل العبودية الذى هو أولى ما تلبس به الإنسان ليحصل له الدخول فى ضمان (« ١٥ : ٤٢ » إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ) . فهذه الإضافة هى القاطعة بين العبد وبين الشياطين ، وحصولها سبب تحقيق مقام العبودية لرب العالمين ، وإشعار القلب

---

(١) رواه البخارى ومسلم عن النعمان بن بشير رضى الله عنه فى حديث « الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهات ــ الحديث » .

إخلاص العمل ودوام اليقين ، فإذا أشرب القلب العبودية والإخلاص صار عند الله من المقربين ، وشمله استثناء (« ٣٨ : ٨٣ » إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ) .

ولما منّ الله الكريم بلطفه بالاطلاع على ما اطلع عليه من أمراض القلوب وأدوائها ، وما يعرض لها من وساوس الشياطين أعدائها ، وما تثمر تلك الوساوس من الأعمال ، وما يكتسب القلب بعدها من الأحوال . فإن العمل السيئ مصدره عن فساد قصد القلب ، ثم يعرض للقلب من فساد العمل قسوة ، فيزداد مرضاً على مرضه حتى يموت ، ويبقى لا حياة فيه ولا نور له . وكل ذلك من انفعاله بوسوسة الشيطان ، وركونه إلى عدوه الذى لا يفلح إلا من جاهره بالعصيان : أردت أن أقيد ذلك فى هذا الكتاب ، لأستذكره معترفاً فيه لله بالفضل والاحسان ؛ ولينتفع به من نظر فيه داعياً لمؤلفه بالمغفرة والرحمة والرضوان .

أبواب الكتاب

الباب الأول : فى انقسام القلوب إلى صحيح وسقيم وميت .

الباب الثانى : فى ذكر حقيقة مرض القلب .

الباب الثالث : فى انقسام أدوية أمراض القلب إلى طبيعية وشرعية .

الباب الرابع : فى أن حياة القلب وإشراقه مادة كل خير فيه ، وموته وظلمته مادة كل شر وفتنة فيه .

الباب الخامس : فى أن حياة القلب وصحته لا تحصل إلا بأن يكون مدركا للحق مريداً له مؤثراً له على غيره .

الباب السادس : فى أنه لا سعادة للقلب ولا لذة ولا نعيم ولا صلاح إلا بأن يكون إلٰهه وفاطره وحده هو معبوده وغاية مطلوبه ، وأحب إليه من كل ماسواه .

الباب السابع : فى أن القرآن الكريم متضمن لأدوية القلب وعلاجه من جميع أمراضه .

الباب الثامن : فى زكاة القلب .

الباب التاسع : فى طهارة القلب من أدرانه وأنجاسه .

الباب العاشر : فى علامات مرض القلب وصحته .

الباب الحادى عشر : فى علاج مرض القلب من استيلاء النفس عليه .
الباب الثانى عشر : فى علاج مرض القلب بالشيطان .
الباب الثالث عشر : فى مكايد الشيطان التى يكيد بها ابن آدم .

الباب الأول

فى انقسام القلوب إلى صحيح وسقيم وميت

لما كان القلب يوصف بالحياة وضدها . انقسم بحسب ذلك إلى هذه الأحوال الثلاثة .

فالقلب الصحيح : هو القلب السليم الذى لا ينجو يوم القيامة إلا من أتى الله به ، كما قال تعالى : (« ٢٦ : ٨٨ » يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ « ٨٩ » إِلاَّ مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ) والسليم هو السالم ، وجاء على هذا المثال لأنه للصفات ، كالطويل والقصير والظريف ، فالسليم القلب الذى قد صارت السلامة صفة ثابتة له ، كالعليم والقدير ، وأيضاً فإنه ضد المريض ، والسقيم ، والعليل .

وقد اختلفت عبارات الناس فى معنى القلب السليم ، والأمر الجامع لذلك : أنه الذى قد سلم من كل شهوة تخالف أمر الله ونهيه ، ومن كل شبهة تعارض خبره . فسلم من عبودية ماسواه ، وسلم من تحكيم غير رسوله . فسلم فى محبة الله مع تحكيمه لرسوله ، فى خوفه ورجائه[1] والتوكل عليه ، والإنابة إليه ، والذل له ، وإيثار مرضاته فى كل حال ، والتباعد من سخطه بكل طريق . وهذا هو حقيقة العبودية التى لا تصلح إلا لله وحده .

فالقلب السليم : هو الذى سلم من أن يكون لغير الله فيه شرك بوجه ما ، بل قد خلصت عبوديته لله تعالى : إرادة ومحبة ، وتوكلا ، وإنابة ، وإخباتاً ، وخشية ، ورجاء ، وخلص عمله لله ،

---

(١) فى نسخة : فسلم من محبة غير الله معه ، ومن خوفه ورجائه .

فإن أحب أحب فى الله ، وإن أبغض أبغض فى الله ، وإن أعطى أعطى لله ، وإن منع منع لله ، ولا يكفيه هذا حتى يسلم من الانقياد والتحكيم لكل من عدا رسوله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ، فيعقد قلبه معه عقداً محكما على الائتمام والاقتداء به وحده ، دون كل أحد فى الأقوال والأعمال ، من أقوال القلب ، وهى العقائد ، وأقوال اللسان . وهى الخبر عما فى القلب. وأعمال القلب . وهى الإرادة والمحبة والكراهة وتوابعها ، وأعمال الجوارح ، فيكون الحاكم عليه فى ذلك كله دِقّه وجِلّه ، هو ماجاء به الرسول صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ، فلا يتقدم بين يديه بعقيدة ولا قول ولا عمل ، كما قال تعالى : (« ٤٩ : ١ » يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ) ، أى لا تقولوا حتى يقول ، ولا تفعلوا حتى يأمر . قال بعض السلف : مامن فِعلة ـ وإن صغرت ـ إلا ينشر لها ديوانان : لم ؟ وكيف ؟ أى لم فعلت ؟ وكيف فعلت ؟ فالأول سؤال عن علة الفعل وباعثه وداعيه : هل هو حظ عاجل من حظوظ العامل ، وغرض من أغراض الدنيا فى محبة المدح من الناس أو خوف ذمهم ، أو استجلاب محبوب عاجل ، أو دفع مكروه عاجل ، أم الباعث على الفعل القيام بحق العبودية ، وطلب التودد والتقرب إلى الرب سبحانه وتعالى . وابتغاء الوسيلة إليه .

ومحل هذا السؤال : أنه ، هل كان عليك أن تفعل هذا الفعل لمولاك ، أم فعلته لحظك وهواك ؟ .

والثانى : سؤال عن متابعة الرسول عليه الصلاة والسلام فى ذلك التعبد ، أى هل كان ذلك العمل مما شرعته لك على لسان رسولى ، أم كان عملا لم أشرعه ولم أرضه ؟ .

فالأول سؤال عن الإخلاص ، والثانى عن المتابعة ، فإن الله سبحانه لا يقبل عملا إلا بهما .

فطريق التخلص من السؤال الأول : بتجريد الإخلاص ، وطريق التخلص من السؤال الثانى : بتحقيق المتابعة ، وسلامة القلب من إرادة تعارض الاخلاص ، وهوًى يعارض الاتباع.

فهذا حقيقة سلامة القلب الذى ضمنت له النجاة والسعادة .

فصل فى القلب الميت

والقلب الثانى : ضد هذا ، وهو القلب الميت الذى لا حياة به ، فهو لا يعرف ربه ، ولا يعبده بأمره وما يحبه و يرضاه ، بل هو واقف مع شهواته ولذاذاته ، ولو كان فيها سخط ر به وغضبه ، فهو لا يبالى إذا فاز بشهوته وحظه ، رضى ر به أم سخط ، فهو متعبد لغير الله : حبا ، وخوفاً ، ورجاء ، ورضا وسخطا ، وتعظيما ، وذلا . إن أحب أحب لهواه ، و إن أبغض أبغض لهواه ، و إن أعطى أعطى لهواه ، و إن منع منع لهواه . فهواه آثر عنده وأحب إليه من رضا مولاه . فالهوى إمامه ، والشهوة قائده ، والجهل سائقه ، والغفلة مركبه . فهو بالفكر فى تحصيل أغراضه الدنيوية مغمور ، و بسكرة الهوى وحب العاجلة مخمور . ينادَى إلى الله و إلى الدار الآخرة من مكان بعيد ، ولا يستجيب للناصح ، ويتبع كل شيطان مريد . الدنيا تسخطه وترضيه . والهوى يُصِمُّه عما سوى الباطل و يُعميه . فهو فى الدنيا كما قيل فى ليلى :

عدو لمن عادت ، وسِلْم لأهلها ومن قرَّبت ليلى أحبّ وأقربا

فمخالطة صاحب هذا القلب سَقَم . ومعاشرته سُمّ . ومجالسته هلاك .

فصل فى القلب المريض

والقلب الثالث : قلب له حياة و به علة . فله مادتان ، تمده هذه مرة ، وهذه أخرى . وهو لما غلب عليه منهما ، ففيه من محبة الله تعالى والإيمان به والإخلاص له ، والتوكل عليه : ما هو مادة حياته ، وفيه من محبة الشهوات و إيثارها والحرص على تحصيلها ، والحسد والكبر والعجب ، وحب العلو والفساد فى الأرض بالرياسة : ماهو مادة هلاكه وعطبه ، وهو ممتحَن بين داعيين : داع يدعوه إلى الله ورسوله والدار الآخرة ، وداع يدعوه إلى العاجلة . وهو إنما يجيب أقربهما منه باباً ، وأدناهما إليه جواراً .

فالقلب الأول ، حى مخبت لين واع ، والثانى يابس ميت ، والثالث مريض ، فإما إلى السلامة أدنى ، و إما إلى العطب أدنى .

وقد جمع الله سبحانه بين هذه القلوب الثلاثة فى قوله : (« ٢٢ : ٥٢ » وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ

ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آيَاتِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ «٥٣» لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ «٥٤» وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ).

فجعل الله سبحانه وتعالى القلوب فى هذه الآيات ثلاثة: قلبين مفتونين ، وقلباً ناجياً .

فالمفتونان: القلب الذى فيه مرض ، والقلب القاسى . والناجى : القلب المؤمن المخبت إلى ربه . وهو المطمئن إليه الخاضع له ، المستسلم المنقاد .

وذلك : أن القلب وغيره من الأعضاء يراد منه أن يكون صحيحاً سليما لا آفة به ، يتأتى منه ما هُيىء له وخلق لأجله . وخروجه عن الاستقامة إما ليبسه وقساوته . وعدم التأتى لما يراد منه ، كاليد الشلاء ، واللسان الأخرس ، والأنف الأخشم ، وذكر العِنِّين ، والعين التى لاتبصر شيئاً . وإما بمرض وآفة فيه تمنعه من كمال هذه الأفعال ووقوعها على السداد . فلذلك انقسمت القلوب إلى هذه الأقسام الثلاثة .

فالقلب الصحيح السليم: ليس بينه وبين قبول الحق ومحبته وإيثاره سوى إدراكه ، فهو صحيح الإدراك للحق ، تام الانقياد والقبول له .

والقلب الميت القاسى : لايقبله ولا ينقاد له .

والقلب المريض : إن غلب عليه مرضه التحق بالميت القاسى . وإن غلبت عليه صحته التحق بالسليم .

فما يلقيه الشيطان فى الأسماع من الألفاظ ، وفى القلوب من الشبه والشكوك: فتنة لهذين القلبين ، وقوة للقلب الحى السليم . لأنه يردُّ ذلك ويكرهه ويبغضه ، ويعلم أن الحق فى خلافه ، فيُخبت للحق ويطمئن وينقاد ، ويعلم بطلان ما ألقاه الشيطان ، فيزداد إيماناً بالحق ومحبة له وكفرا بالباطل وكراهة له . فلا يزال القلب المفتون فى مِرْية من إلقاء الشيطان . وأما القلب الصحيح السليم فلا يضره ما يلقيه الشيطان أبداً .

قال حُذيفة بن اليمان رضى الله عنه : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم «تُعْرَضُ الفِتَنُ عَلَى القُلُوبِ كَعَرْضِ الحَصِيرِ عُودًا عُودًا . فأىُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَتْ فيه نُكْتَةٌ سَوْدَاء ، وَأىُّ قَلْبٍ أنْكَرَهَا نُكِتَتْ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاء ، حَتَّى تَعُودَ القُلُوبُ عَلَى قَلْبين : قَلْبٍ

أسود مُرْبَادًّا كالكوزِ مُجَخِّياً . لايعرِفُ معرُوفاً ولا يُنكِرُ مُنكَراً ، إلّا ما أُشْرِب من هَواهُ وَقلبٍ أبيضَ ، فلا تضرُّهُ فِتنةٌ ما دامتِ السَّمٰواتُ وَالأرضُ(١) » فشبه عرض الفتن على

---

(١) قال الإمام النووى فى شرح مسلم « عوداً عوداً » هذان الحرفان مما اختلف فى ضبطه على ثلاثة أوجه : أظهرها وأشهرها بضم العين والدال المهملة ، والثانى بفتح العين وبالدال المهملة أيضاً ، والثالث بفتح العين وبالذال المعجمة ، ولم يذكر صاحب التحرير غير الأول ، وأما القاضى عياض فذكر هذه الأوجه الثلاثة عن أئمتهم واختار الأول ، قال : واختار شيخنا أبو حسين بن سراج فتح العين والدال قال : ومعنى « تعرض » أنها تلصق بعرض القلوب أى جانبها كما يلصق الحصير بجنب النائم ويؤثر فيه شدة التصاقها به ، قال : ومعنى « عوداً عودا » أى تعاد وتكرر شيئاً بعد شىء ، قال ابن سراج : ومن رواه بالذال المعجمة فمعناه سؤال الاستعاذة منها ، كما يقال « غفرا غفراً » و « غفرانك » ، أى نسألك أن تعيذنا من ذلك وأن تغفر لنا ، وقال الأستاذ أبو عبد الله بن سليمان : معناه تظهر على القلوب . أى تظهر لها فتنة بعد أخرى . وقوله « كالحصير » أى كما ينسج الحصير عوداً عودا وشظية بعد أخرى . قال القاضى : وعلى هذا يترجح رواية ضم العين ، وذلك أن ناسج الحصير عند العرب كلما صنع عوداً أخذ آخر ونسجه ، فشبه عرض الفتن على القلوب واحدة بعد أخرى بعرض قضبان الحصير على صانعها واحداً بعد واحد .

وقوله « أشربها » أى دخلت فيه دخولا تاماً وألزمها وحلت منه محل الشراب .

وقوله : « نكتت نكتة » نقطت نقطة ؛ وكل نقط فى شىء بخلاف لونه فهو نكت .

وقوله : « مثل الصفا » قال عياض : ليس تشبيهه بالصفا بيانا لبياضه لكن صفة أخرى لشدته على عقد الإيمان وسلامته من الخلل ، وأن الفتن لم تلصق به ولم تؤثر فيه كالصفا ، وهو الحجر الأملس الذى لا يعلق به شىء ، وقوله « مربادا » قال النووى : كذا هو فى روايتنا وأصول بلادنا ، وهو منصوب على الحال ، وذكر القاضى عياض رحمه الله خلافا فى ضبطه وأن منهم من ضبطه كما ذكرناه ، ومنهم من رواه « مربئد » بهمزة مكسورة بعد الباء ؛ قال القاضى : وهذه رواية أكثر شيوخنا ، وأصله أن لايهمز ، ويكون « مربد » مثل مسود ومحمر ، وكذا ذكره أبو عبيد والهروى وصححه بعض شيوخنا عن أبى مروان بن سراج ؛ لأنه من « أربد » إلاّ على لغة من قال باضمار الهمزة بعد الميم لالتقاء الساكنين ، فيقال : اربأد ومربئد . والدال مشددة على القولين اهـ والربدة : شىء من بياض يسير يخالط السواد

وقوله « كالكوز مجخيا » هو بميم مضمومة ثم جيم مفتوحة ثم خاء معجمة مكسورة ، معناه مائلا ؛ كذا قال الهروى وغيره . وفسره الراوى فى الكتاب بقوله « منكوساً » وهو قريب من معنى المائل ، قال القاضى عياض : قال لى ابن سراج : ليس قوله « كالكوز مجخيا » تشبيها لما تقدم من سواده ، بل هو وصف آخر من أوصافه بأنه قلب نكس حتى لا يعلق به خير ولا حكمة ، ومثله بالكوز المجخى وبينه بقوله « لا يعرف معروفا ولا ينكر منكراً » قال القاضى : شبه القلب الذى لايعى الخير بالكوز المنحرف الذى لايثبت الماء فيه ، وقال صاحب التحرير : معنى الحديث : أن الرجل إذا اتبع هواه وارتكب المعاصى دخل قلبه بكل معصية يتعاطاها ظلمة ، وإذا صار كذلك افتتن وزال عنه نور الإسلام . والقلب مثل الكوز ، فإذا انكب انصب مافيه ولم يدخله شىء بعد ذلك .

القلوب شيئاً فشيئاً كعرض عيدان الحصير ، وهى طاقاتها شيئاً فشيئاً ، وقسم القلوب عند عرضها عليها إلى قسمين : قلب إذا عرضت عليه فتنة أشربها ، كما يشرب السفنج الماء فتنكت فيه نكتة سوداء ، فلا يزال يشرب كل فتنة تعرض عليه حتى يسودّ وينتكس ، وهو معنى قوله « كالكوز مجخيا » أى مكبوبا منكوساً ، فإذا اسود وانتكس عرض له من هاتين الآفتين مرضان خطران متراميان به إلى الهلاك : أحدهما : اشتباه المعروف عليه بالمنكر ، فلا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً ، وربما استحكم عليه هذا المرض حتى يعتقد المعروف منكراً والمنكر معروفاً ، والسنة بدعة والبدعة سنة ، والحق باطلا والباطل حقا ، الثانى : تحكيمه هواه على ما جاء به الرسول صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ، وانقياده للهوى واتباعه له .

وقلب أبيض قد أشرق فيه نور الإيمان ، وأزهر فيه مصباحه ، فإذا عرضت عليه الفتنة أنكرها وردها ، فازداد نوره وإشراقه وقوته .

والفتن التى تعرض على القلوب هى أسباب مرضها ، وهى فتن الشهوات وفتن الشبهات ، فتن الغى والضلال ، فتن المعاصى والبدع ، فتن الظلم والجهل . فالأولى توجب فساد القصد والإرادة ، والثانية توجب فساد العلم والاعتقاد .

وقد قسم الصحابة رضى الله تعالى عنهم القلوب إلى أربعة ، كما صح عن حذيفة بن اليمان « القلوب أربعة : قلب أجرد ، فيه سراج يزهر ، فذلك قلب المؤمن ، وقلب أغلف ، فذلك قلب الكافر ، وقلب منكوس ، فذلك قلب المنافق ، عرف ثم أنكر ، وأبصر ثم عمى ، وقلب تمده مادتان : مادة إيمان ، ومادة نفاق ، وهو لما غلب عليه منهما[١] » .

فقوله « قلب أجرد » أى متجرد مما سوى الله ورسوله ، فقد تجرد وسلم مما سوى الحق . و « فيه سراج يزهر » وهو مصباح الإيمان : فأشار بتجرده إلى سلامته من شبهات

---

(١) روى الإمام أحمد فى المسند (ج ٣ ص ١٧) عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « القلوب أربعة : قلب أجرد فيه مثل السراج يزهر . وقلب أغلف مربوط على غلافه وقلب منكوس . وقلب مصفح . فأما القلب الأجرد فقلب المؤمن فيه نوره . وأما القلب الأغلف فقلب الكافرين . وأما القلب المنكوس فقلب المنافق عرف ثم أنكر . وأما القلب المصفح فقلب فيه إيمان ونفاق فمثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدها الماء الطيب ، ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدها القيح والدم ، فأى المادتين غلب على الأخرى غلب عليه » .

الباطل وشهوات الغي ، وبحصول السراج فيه إلى إشراقه واستنارته بنور العلم والإيمان ، وأشار بالقلب الأغلف إلى قلب الكافر ، لأنه داخل فى غلافه وغشائه ، فلا يصل إليه نور العلم والإيمان ، كما قال تعالى ، حاكياً عن اليهود («٢ : ٨٨» وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ) وهو جمع أغلف ، وهو الداخل فى غلافه ، كقُلْف وأقلف ، وهذه الغشاوة هي الأكِنَّة التى ضربها الله على قلوبهم ، عقوبة لهم على رد الحق والتكبر عن قبوله . فهى أكِنَّة على القلوب وَوَقْرٌ فى الاسماع ، وعمًى فى الأبصار ، وهى الحجاب المستور عن العيون فى قوله تعالى (« ١٧ : ٤٥ » وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُوراً « ٤٦ » وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً) . فإذا ذكر لهذه القلوب تجريد التوحيد وتجريد المتابعة ، ولَّى أصحابها على أدبارهم نفوراً .

وأشار بالقلب المنكوس ـ وهو المكبوب ـ إلى قلب المنافق ، كما قال تعالى (« ٤ : ٨٨» فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا) . أى نكسهم وردهم فى الباطل الذى كانوا فيه ، بسبب كسبهم وأعمالهم الباطلة . وهذا شر القلوب وأخبثها ، فإنه يعتقد الباطل حقا ويوالى أصحابه ، والحق باطلا ويعادى أهله ، فالله المستعان .

وأشار بالقلب الذى له مادتان إلى القلب الذى لم يتمكن فيه الإيمان ولم يزهر فيه سراجه ، حيث لم يتجرد للحق المحض الذى بعث الله به رسوله ، بل فيه مادة منه ومادة من خلافه ، فتارة يكون للكفر أقرب منه للايمان ، وتارة يكون للايمان أقرب منه للكفر . والحكم للغالب وإليه يرجع .

الباب الثاني

في ذكر حقيقة مرض القلب

قال الله تعالى عن المنافقين (« ٢ : ١٠ » فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً)، وقال تعالى (« ٢٢ : ٥٣ » لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ)، وقال تعالى («٣٣ : ٣٢» يَانِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلاَ تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ)، أمرهن أن لا يلنّ في كلامهن، كما تلين المرأة المعطية اللّيان في منطقها، فيطمع الذى فى قلبه مرض الشهوة، ومع ذلك فلا يخشنّ في القول بحيث يلتحق بالفحش، بل يقلن قولا معروفا، وقال تعالى: (« ٣٣ : ٦٠ » لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ـ الآية)، وقال تعالى («٧٤ : ٣١» وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلاَئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً وَلاَ يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً)، أخبر الله سبحانه عن الحكمة التى جعل لأجلها عدة الملائكة الموكلين بالنار تسعة عشر، فذكر سبحانه خمس حكم: فتنة الكافرين. فيكون ذلك زيادة في كفرهم وضلالهم، وقوة يقين أهل الكتاب، فيقوى يقينهم بموافقة الخبر بذلك لما عندهم عن أنبيائهم من غير تلق من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عنهم، فتقوم الحجة على معاندهم، وينقاد للإيمان من يرد الله أن يهديه. وزيادة إيمان الذين آمنوا بكمال تصديقهم بذلك والإقرار به، وانتفاء الريب عن أهل الكتاب لجزمهم بذلك، وعن المؤمنين لكمال تصديقهم به.

فهذه أربعة حكم: فتنة الكفار، ويقين أهل الكتاب، وزيادة إيمان المؤمنين، وانتفاء الريب عن المؤمنين، وأهل الكتاب.

والخامسة : حيرة الكافر ومن فى قلبه مرض ، وعمى قلبه عن المراد بذلك ، فيقول (مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلاً) .

وهذا حال القلوب عند ورود الحق المنزل عليها : قلب يفتتن به كفراً وجحوداً ، وقلب يزداد به إيمانًا وتصديقاً ، وقلب يتيقنه ، فتقوم عليه به الحجة ، وقلب يوجب له حيرة وعمًى ، فلا يدرى ما يراد به .

واليقين وعدم الريب فى هذا الموضع ، إن رجعا إلى شىء واحد ، كان ذكر عدم الريب مقرراً لليقين ومؤكداً له ، ونافياً عنه مايضاده بوجه من الوجوه ، وإن رجعا إلى شيئين ، بأن يكون اليقين راجعاً إلى الخبر المذكور عن عدة الملائكة ، وعدم الريب عائداً إلى عموم ما أخبر الرسول به . لدلالة هذا الخبر الذى لايعلم إلا من جهة الرسل على صدقه ، فلا يرتاب من قد عرف صحة هذا الخبر بعد صدق الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، ظهرت فائدة ذكره .

والمقصود : ذكر مرض القلب وحقيقته .

وقال تعالى : (« ١٠ : ٥٧ » يَٰأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ) فهو شفاء لما فى الصدور من مرض الجهل والغىّ ، فإن الجهل مرض شفاؤه العلم والهدى . والغى مرض شفاؤه الرشد ، وقد نزه الله سبحانه نبيه عن هذين الداءين . فقال : (« ٥٣ : ١ » وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ « ٢ » مَاضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ) ووصف رسوله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم خلفاءه بضدهما فقال « عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى[1] » ، وجعل كلامه سبحانه موعظة للناس عامة ، وهدى ورحمة لمن آمن به خاصة ، وشفاء تاما لما فى الصدور ، فمن استشفى به صح وبرئ من مرضه ، ومن لم يستشف به فهو كما قيل :

(١) رواه أبو داود والترمذى — وقال حسن صحيح — وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه عن العرباض ابن سارية قال : « وعظنا رسول الله صلى الله عليه وسلم موعظة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون فقلنا : يارسول الله . كأنها موعظة مودع فأوصنا . قال : أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة ، وإن تأمر عليكم عبد . وإن من يعش منكم فسيرى اختلافا كثيراً . فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين . عضوا عليها بالنواجذ . وإياكم ومحدثات الأمور . فان كل بدعة ضلالة » .

انظر الترغيب والترهيب (طبع الحلبى ج ١ ص : ٤١) .

إذا بَلَّ من داء به ظَنَّ أنه نجا وبه الداء الذى هو قاتله[١]

وقال تعالى : (« ١٧ : ٨٢ » وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَاهُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا) ، والأظهر أن « من » ههنا لبيان الجنس ، فالقرآن جميعه شفاء ورحمة للمؤمنين .

فصل فى أسباب ومشخصات مرض البدن والقلب

ولما كان مرض البدن خلاف صحته وصلاحه ، وهو خروجه عن اعتداله الطبيعى ، لفساد يعرض له ، يفسد به إدراكه وحركته الطبيعية ، فإما أن يذهب إدراكه بالكلية ، كالعمى والصمم والشلل ، وإما أن ينقص إدراكه لضعف فى آلات الإدراك مع استقامة إدراكه ، وإما أن يدرك الأشياء على خلاف ماهى عليه ، كما يدرك الحلوَ مُرًّا ، والخبيث طيباً ، والطيب خبيثاً .

وأما فساد حركته الطبيعية فمثل أن تضعف قوته الهاضمة ، أو الماسكة ، أو الدافعة ، أو الجاذبة ، فيحصل له من الألم بحسب خروجه عن الاعتدال ، ولكن مع ذلك لم يصل إلى حد الموت والهلاك ، بل فيه نوع قوة على الإدراك والحركة .

وسبب هذا الخروج عن الاعتدال : إما فساد فى الكمية أو فى الكيفية .

فالأول : إما لنقص فى المادة ، فيحتاج إلى زيادتها ، وإما لزيادة فيها ، فيحتاج إلى نقصانها .

والثانى : إما بزيادة الحرارة ، أو البرودة ، أو الرطوبة ، أو اليبوسة ، أو نقصانها عن القدر الطبيعى ، فيداوى بمقتضى ذلك ، ومدار الصحة على حفظ القوة ، والحمية عن المؤذى ، واستفراغ المواد الفاسدة . ونظر الطبيب دائر على هذه الأصول الثلاثة ، وقد تضمنها الكتاب العزيز ، وأرشد إليها مَنْ أنزله شفاء ورحمة .

---

(١) بل وأبل من مرضه : إذا تعافى وبرأ منه . والبيت فى الهرم والشيخوخة ، فإن الهرم إذا برىء من مرض عارض فإنه لن يبرأ من ضعف الكبر والشيخوخة ،

فأما حفظ القوة : فإنه سبحانه أمر المسافر والمريض أن يفطرا فى رمضان[١] ، ويقضى المسافر إذا قدم ، والمريض إذا برئ ، حفظاً لقوتهما عليهما ، فإن الصوم يزيد المريض ضعفاً ، والمسافر يحتاج إلى توفير قوته عليه لمشقة السفر ، والصوم يضعفها .

وأما الحمية عن المؤذى : فإنه سبحانه حمى المريض عن استعمال الماء البارد فى الوضوء والغسل ، إذا كان يضره ، وأمره بالعدول إلى التيمم ، حِمْية له عن ورود المؤذى عليه من ظاهر بدنه[٢] ، فكيف بالمؤذى له فى باطنه .

وأما استفراغ المادة الفاسدة : فإنه سبحانه أباح للمحرم الذى به أذى من رأسه أن يحلقه[٣] ، فيستفرغ بالحلق الأبخرة المؤذية له ، وهذا من أسهل أنواع الاستفراغ وأخفها ، فنبه به على ماهو أحوج إليه منه .

وذاكرت مرة بعض رؤساء الطب بمصر بهذا ، فقال : والله لو سافرتُ إلى الغرب فى معرفة هذه الفائدة لكان سفراً قليلاً ، أو كما قال .

وإذا عرف هذا ، فالقلب محتاج إلى مايحفظ عليه قوته ، وهو الإيمان وأوراد الطاعات ، وإلى حمية عن المؤذى الضار ، وذلك باجتناب الآثام والمعاصى ، وأنواع المخالفات ؛ وإلى استفراغه من كل مادة فاسدة تعرض له ، وذلك بالتوبة النصوح ، واستغفار غافر الخطيئات . ومرضه هو نوع فساد يحصل له ، يفسد به تصوره للحق وإرادته له ، فلا يرى الحق حقا ، أو يراه على خلاف ماهو عليه ، أو ينقص إدراكه له ، وتفسد به إرادته له ، فيبغض الحق النافع ، أو يحب الباطل الضار ، أو يجتمعان له ، وهو الغالب ، ولهذا يفسر المرض الذى يعرض له ، تارة بالشك والريب ، كما قال مجاهد وقتادة فى قوله تعالى (« ٢ : ١٠ » فى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ) أى شك . وتارة بشهوة الزنا ، كما فسر به قوله تعالى : (« ٣٣ : ٣٢ » فَيَطْمَعَ الَّذِى فى قَلْبِهِ

---

(١) قال تعالى فى سورة البقرة (« ١٨٥ » فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) .

(٢) قال تعالى فى سورة المائدة (« ٦ » وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه مايريد الله ليجعل عليكم من حرج) .

(٣) قال تعالى فى سورة البقرة (« ١٩٦ » فمن كان منكم مريضاً أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك) .

مَرَضٌ) ، فالأول مرض الشبهة ، والثانى مرض الشهوة .

والصحة تُحفظ بالمثل والشبه ، والمرض يدفع بالضد والخلاف ، وهو يقوى بمثل سببه ، ويزول بضده ، والصحة تحفظ بمثل سببها وتضعف أو تزول بضده .

ولما كان البدن المريض يؤذيه ما لايؤذى الصحيح : من يسير الحر ، والبرد ، والحركة ، ونحو ذلك ، فكذلك القلب إذا كان فيه مرض آذاه أدنى شىء : من الشبهة أو الشهوة ، حيث لا يقوى على دفعهما إذا وردا عليه ، والقلب الصحيح القوى يطرقه أضعاف ذلك وهو يدفعه بقوته وصحته .

وبالجملة فإذا حصل للمريض مثل سبب مرضه زاد مرضه وضعفت قوته وترامى إلى التلف، مالم ، يتدارك ذلك بأن يحصل له مايقوى قوته ويزيل مرضه .

الباب الثالث

فى انقسام أدوية أمراض القلب إلى قسمين : طبيعية ، وشرعية

مرض القلب نوعان : نوع لا يتألم به صاحبه فى الحال ؛ وهو النوع المتقدم ، كمرض الجهل ، ومرض الشبهات والشكوك ، ومرض الشهوات . وهذا النوع هو أعظم النوعين ألمًا، ولكن لفساد القلب لا يُحس بالألم ، ولأن سَكْرة الجهل والهوى تحول بينه وبين إدراك الألم ، وإلا فألمه حاضر فيه حاصل له ،وهو متوارٍ عنه باشتغاله بضده ، وهذا أخطر المرضين وأصعبهما . وعلاجه إلى الرسل وأتباعهم ، فهم أطباء هذا المرض .

والنوع الثانى : مرض مؤلم له فى الحال ، كالهمّ والغمّ والحَزَنِ والغيظ ، وهذا المرض قد يزول بأدوية طبيعية ، كإزالة أسبابه ، أو بالمداواة بما يضاد تلك الأسباب ؛ وما يدفع موجبها مع قيامها ، وهذا كما أن القلب قد يتألم بما يتألم به البدن ويشقى بما يشقى به البدن ، فكذلك البدن يتألم كثيراً بما يتألم به القلب ، ويشقيه ما يشقيه .

فأمراض القلب التى تزول بالأدوية الطبيعية من جنس أمراض البدن ، وهذه قد لا توجب وحدها شقاءه وعذابه بعد الموت ، وأما أمراضه التى لا تزول إلا بالأدوية الإيمانية النبوية فهى التى توجب له الشقاء والعذاب الدائم ، إن لم يتداركها بأدويتها المضادة لها ، فإذا استعمل تلك الأدوية حصل له الشفاء ، ولهذا يقال « شفى غيظه » فإذا استولى عليه عدوه آلمه ذلك ، فإذا انتصف منه اشتفى قلبه ، قال تعالى : (« ٩ : ١٤ » قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ « ١٥ » وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ) فأمر بقتال عدوهم ، وأعلمهم أن فيه ستَّ فوائد .

فالغيظ يؤلم القلب ، ودواؤه فى شفاء غيظه ، فإن شفاه بحق اشتفى ، وإن شفاه بظلم وباطل زاده مرضاً من حيث ظن أنه يشفيه ، وهو كمن شفى مرض العشق بالفجور بالمعشوق ، فإن ذلك يزيد مرضه ، ويوجب له أمراضاً أخر أصعب من مرض العشق ، كما سيأتى إن شاء الله تعالى ، وكذلك الغَمُّ والهم والحزن أمراض للقلب ، وشفاؤها بأضدادها : من الفرح والسرور ، فإن كان ذلك بحق اشتفى القلب وصح وبرئ من مرضه ، وإن كان بباطل توارى ذلك واستتر ولم يزل ، وأعقب أمراضاً هى أصعب وأخطر .

وكذلك الجهل مرض يؤلم القلب . فمن الناس من يداويه بعلوم لا تنفع ، ويعتقد أنه قد صح من مرضه بتلك العلوم ، وهى فى الحقيقة إنما تزيده مرضاً إلى مرضه ؛ لكن اشتغل القلب بها عن إدراك الألم الكامن فيه ، بسبب جهله بالعلوم النافعة ، التى هى شرط فى صحته وبُرْئه ، قال النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فى الذين أفتوا بالجهل ، فهلك المستفتى بفتواهم « قتلوه ، قتلهم الله ، ألا سألوا إذْ لم يعلموا ؟ فإنما شِفاء العِيِّ السؤال[1] » فجعل الجهل مرضاً وشفاءه سؤال أهل العلم .

وكذلك الشاك فى الشىء المرتاب فيه ، يتألم قلبه حتى يحصل له العلم واليقين ، ولما كان

---

(١) روى أبو داود والدارقطنى عن جابر قال « خرجنا فى سفر ، فأصاب رجلا منا حجر ، فشجه ، ثم احتلم ، فسأل أصحابه : هل تجدون لى رخصة فى التيمم ؟ فقالوا : ما نجد لك رخصة ، وأنت تقدر على الماء ، فاغتسل ، فمات . فلما قدمنا على النبىّ صلى الله عليه وسلم أخبر بذلك . فقال : قتلوه قتلهم الله . ألا سألوا ، إذ لم يعلموا — الحديث » انظر منتقى الأخبار (١ : ١٦١ رقم ٤٥٢) .

ذلك يوجب له حرارة قيل لمن حصل له اليقين : ثلج صدره ؛ وحصل له بَرْد اليقين ، وهو كذلك يضيق بالجهل والضلال عن طريق رُشده ، وينشرح بالهدَى والعلم ، قال تعالى : (« ٦ : ١٢٥ » فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ) .

وسيأتى ذكر مرض ضيق الصدر وسببه وعلاجه ، إن شاء الله تعالى .

والمقصود : أن من أمراض القلوب مايزول بالأدوية الطبيعية ، ومنها مالا يزول إلا بالأدوية الشرعية الإيمانية ، والقلب له حياة وموت ، ومرض وشفاء ، وذلك أعظم مما للبدن .

الباب الرابع

فى أن حياة القلب وإشراقه مادة كل خير فيه

وموته وظلمته مادة كل شر فيه

أصل كل خير وسعادة للعبد ، بل لكل حى ناطق : كمال حياته ونوره . فالحياة والنور مادة الخير كله ،قال الله تعالى : (« ٦ : ١٢٢ » أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِى النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِى الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ؟) فجمع بين الأصلين : الحياة ، والنور، فبالحياة تكون قوته ، وسمعه وبصره ، وحياؤه وعفته ،وشجاعته وصبره ،وسائر أخلاقه الفاضلة، ومحبته للحسن ، وبغضه للقبيح . فكلما قويت حياته قويت فيه هذه الصفات ، وإذا ضعفت حياته ضعفت فيه هذه الصفات ؛ وحياؤه من القبائح هو بحسب حياته فى نفسه ، فالقلب الصحيح الحىُّ إذا عرضت عليه القبائح نفر منها بطبعه وأبغضها ، ولم يلتفت إليها ؛ بخلاف القلب الميت ، فإنه لا يفرق بين الحسن والقبيح ، كما قال عبد الله بن مسعود رضى الله تعالى عنه « هلك من لم يكن له قلب يعرف به المعروف وينكر به المنكر » .

وكذلك القلب المريض بالشهوة ، فإنه لضعفه يميل إلى مايعرض له من ذلك بحسب قوة المرض وضعفه .

وكذلك إذا قوى نوره ، وإشراقه انكشفت له صور المعلومات وحقائقها على ماهى عليه ، فاستبان حسنَ الحسن بنوره ، وآثره بحياته ، وكذلك قبح القبيح ، وقد ذكر سبحانه وتعالى هذين الأصلين فى مواضع من كتابه . فقال تعالى (« ٤٢ : ٥٢ » وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا ، مَا كُنْتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ ، وَلَٰكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِى بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) فجمع بين الروح الذى يحصل به الحياة ، والنور الذى يحصل به الإضاءة والإشراق ، وأخبر أن كتابه الذى أنزله على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم متضمن للأمرين ، فهو روح تحيا به القلوب ، ونور تستضىء وتشرق به ، كما قال تعالى : (« ٦ : ١٢٢ » أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِى بِهِ فِى النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِى الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ؟) أى أومن كان كافراً ميت القلب ، مغموراً فى ظلمة الجهل : فهديناه لرشده ، ووفقناه للإيمان ، وجعلنا قلبه حيا بعد موته ، مشرقا مستنيراً بعد ظلمته ؟ فجعل الكافر ـ لانصرافه عن طاعته ، وجهله بمعرفته ، وتوحيده وشرائع دينه ، وترك الأخذ بنصيبه من رضاه ، والعمل بما يؤديه إلى نجاته وسعادته ـ : بمنزلة الميت الذى لاينفع نفسه بنافعة ، ولا يدفع عنها من مكروه ، فهديناه للإسلام وأنعشناه به ؛ فصار يعرف مضار نفسه ومنافعها ، ويعمل فى خلاصها من سخط الله تعالى وعقابه ، فأبصر الحق بعد عماه عنه ، وعرفه بعد جهله به ، واتبعه بعد إعراضه عنه ، وحصل له نور وضياء يستضىء به ، فيمشى بنوره بين الناس ، وهم فى سُدُف الظلام ، كما قيل :

ليلِى بوجهك مُشرقٌ وظلامُه فى الناس سارِى
الناس فى سُدُف الظلا م ، ونحن فى ضوء النهار

ولهذا يضرب الله سبحانه وتعالى المثلين المائىّ والنارىّ لوحيه ولعباده .

أما الأول فكما قال فى سورة الرعد : (١٣ : ١٧ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ ، كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ، فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً. وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ) .

فضرب لوحيه المثل بالماء ، لما يحصل به من الحياة ، وبالنار لما يحصل بها من الاضاءة والإشراق ، وأخبر سبحانه أن الأودية تسيل بقدرها ، فوادٍ كبير يسع ماء كثيراً ، ووادٍ صغير يسع ماء قليلا . كذلك القلوب مُشبَّهة بالأودية ، فقلب كبير يسع علما كثيراً ، وقلب صغير إنما يسع بقدره . وشبه ما تحمله القلوب من الشبهات والشهوات ، بسبب مخالطة الوحى لها ، وإمارته لما فيها من ذلك ، بما يحتمله السيل من الزبد . وشبه بطلان تلك الشبهات باستقرار العلم النافع فيها ، بذهاب ذلك الزبد ، وإلقاء الوادى له ، وإنما يستقر فيـــه الماء الذى به النفع . وكذلك فى المثل الذى بعده : يذهب الخبث الذى فى ذلك الجوهر ، ويستقر صَفْوه .

وأما ضرب هذين المثلين للعباد ، فكما قال فى سورة البقرة : (« ٢ : ١٧ » مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ نَاراً ، فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَاتٍ لاَ يُبْصِرُونَ « ١٨ » صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ) فهذا المثل النارى . ثم قال (« ١٩ » أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ ، يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِى آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ) فهذا المثل المائى

وقد ذكرنا الكلام على أسرار هذين المثلين وبعض ما تضمناه من الحكم فى كتاب المعالم وغيره(١)

والمقصود : أن صلاح القلب وسعادته وفلاحه موقوف على هذين الأصلين . قال تعالى : (« ٣٦ : ٦٩ » إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ « ٧٠ » لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا) فأخبر أن الانتفاع بالقرآن والإنذار به إنما يحصل لمن هو حى القلب ، كما قال فى موضع آخر : (« ٥٠ : ٣٧ » إِنَّ فِى ذٰلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ) وقال تعالى : (« ٨ : ٢٤ » يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ) فأخبر سبحانه وتعالى أن حياتنا إنما هى باستجابتنا لما يدعونا إليه الله والرسول من العلم والإيمان . فعلم أن موت القلب وهلاكه بفقد ذلك .

وشبه سبحانه من لا يستجيب لرسوله بأصحاب القبور . وهذا من أحسن التشبيه ، فإن أبدانهم قبور لقلوبهم . فقد ماتت قلوبهم وقُبرت فى أبدانهم . فقال الله تعالى : (« ٣٥ : ٢٢ » إِنَّ اللهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِى الْقُبُورِ) ولقد أحسن القائل :

(١) فى كتاب اجتماع الجيوش الإسلامية كلام قيم عن هذين المثلين .

وفى الجهل ، قبل الموت ، موت لأهله وأجسامهم ، قبل القبور ، قبورُ
وأرواحهم فى وَحْشَة من جسومهم وليس لهم حتى النشورِ نشورُ

ولهذا جعل سبحانه وحيه الذى يُلقيه إلى الأنبياء روحاً ، كما قال تعالى: («٤٠ : ١٥» يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ) فى موضعين من كتابه[1] ، وقال: («٤٢ : ٥٢» وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا) لأن حياة الأرواح والقلوب به ، وهذه الحياة الطيبة هى التى خص بها سبحانه مَن قَبِلَ وحيه ، وعمل به ، فقال: («١٦ : ٩٧» مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) فخصهم سبحانه وتعالى بالحياة الطيبة فى الدارين. ومثله قوله تعالى: («١١ : ٣» وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ) ومثله قوله تعالى: («١٦ : ٣٠» لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ) ومثله قوله تعالى: («٣٩ : ١٠» لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ) فبين سبحانه أنه يُسعد المحسن بإحسانه فى الدنيا وفى الآخرة ، كما أخبر أنه يُشقى المسىء بإساءته فى الدنيا والآخرة . قال تعالى: («٢٠ : ١٢٤» وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ) وقال تعالى ، وقد جمع بين النوعين: («٦ : ١٢٥» فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ۖ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ) .

فأهل الهدى والإيمان لهم شرح الصدر واتساعه وانفساحه ، وأهل الضلال لهم ضيق الصدر والحرج .

وقال تعالى: («٣٩ : ٢٢» أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِنْ رَبِّهِ) .

فأهل الإيمان فى النور وانشراح الصدر ، وأهل الضلال فى الظلمة وضيق الصدر .

وسيأتى فى باب طهارة القلب مزيد تقرير لهذا إن شاء تعالى

والمقصود: أن حياة القلب و إضاءته مادة كل خير فيه ، وموته وظلمته مادة كل شرّ فيه .

---

(١) والموضع الثانى فى سورة النحل (١٦ : ٢ ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده ــ الآية).

الباب الخامس

فى أن حياة القلب وصحته لا تحصل إلا بأن يكون مدركا للحق مريداً له ، مؤثراً له على غيره

لما كان فى القلب قوتان : قوة العلم والتميز ، وقوة الإرادة والحب ، كان كماله وصلاحه باستعمال هاتين القوتين فيما ينفعه ، و يعود عليه بصلاحه وسعادته . فكماله باستعمال قوة العلم فى إدراك الحق ، ومعرفته ، والتميز بينه و بين الباطل ، و باستعمال قوة الإرادة والمحبة فى طلب الحق ومحبته و إيثاره على الباطل . فمن لم يعرف الحق فهو ضال ، ومن عرفه وآثر غيره عليه فهو مغضوب عليه . ومن عرفه واتبعه فهو مُنعَم عليه .

وقد أمرنا الله سبحانه وتعالى أن نسأله فى صلاتنا أن يهدينا صراط الذين أنعم الله عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ، ولهذا كان النصارى أخصّ بالضلال ، لأنهم أمة جهل . واليهود أخص بالغضب ، لأنهم أمة عناد ، وهذه الأمة هم المنعم عليهم . ولهذا قال سفيان ابن عُيينة « من فسد من عُبّادنا ففيه شبه من النصارى ، ومن فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود » لأن النصارى عبدوا بغير علم ، واليهود عرفوا الحق وعدلوا عنه .

وفى المسند والترمذى من حديث عَدِىّ بن حاتم عن النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال « اليهود مغضوب عليهم ، والنصارى ضالون » .

وقد جمع الله سبحانه بين هذين الأصلين فى غير موضع من كتابه ، فمنها قوله تعالى : (« ٢ : ١٨٦ » وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ، أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ، فَلْيَسْتَجِيبُوا لِى وَلْيُؤْمِنُوا بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ) فجمع سبحانه بين الاستجابة له والإيمان به . ومنها قوله عن رسوله صلى الله عليه وآله وسلم : (« ٧ : ١٥٧ » فَٱلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِى أُنْزِلَ مَعَهُ أُولٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) ، وقال تعالى : (« ٢ : ١ » الٓمٓ « ٢ » ذٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ « ٣ » الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ « ٤ » وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ « ٥ » أُولٰئِكَ عَلَى

هُدًى مِن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) وقال تعالى فى وسط السورة : (« ٢ : ١٧٧ » وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ — إِلَى آخِرِ الآيَة) وقال تعالى : (« ١٠٣ : ١ » وَالْعَصْرِ « ٢ » إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ « ٣ » إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ) .

فأقسم سبحانه وتعالى بالدهر الذى هو زمن الأعمال الرابحة والخاسرة ، على أن كل واحد فى خسر ، إلا من كمّل قوّته العلمية بالإيمان بالله ، وقوته العملية بالعمل بطاعته . فهذا كماله فى نفسه ، ثم كمّل غيره بوصيته له بذلك ، وأمره إياه به ، وبملاك ذلك ، وهو الصبر . فكمّل نفسه بالعلم النافع والعمل الصالح ، وكمل غيره بتعليمه إياه ذلك ، ووصيته له بالصبر عليه ، ولهذا قال الشافعى رحمه الله « لو فكر الناس فى سورة : والعصر ، لكفتهم » .

وهذا المعنى فى القرآن فى مواضع كثيرة : يخبر سبحانه أن أهل السعادة هم الذين عرفوا الحق واتبعوه ، وأن أهل الشقاوة هم الذين جهلوا الحق وضلوا عنه ، أو علموه وخالفوه واتبعوا غيره .

وينبغى أن تعرف أن هاتين القوتين لا تتعطلان فى القلب ، بل إن استعمل قوته العلمية فى معرفة الحق وإدراكه ، وإلا استعملها فى معرفة ما يليق به ويناسبه من الباطل ، وإن استعمل قوته الإرادية العملية فى العمل به ، وإلا استعملها فى ضده ، فالإنسان حارث همّام بالطبع ، كما قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، « أصدق الأسماء : حارث وهمام[1] » .

فالحارث الكاسب العامل ، والهمّام المريد ، فإن النفس متحركة بالإرادة . وحركتها الإرادية لها من لوازم ذاتها ، والإرادة تستلزم مراداً يكون مُتصَوَّراً لها ، متميزاً عندها ، فإن لم تتصور الحق وتطلبه وتريده تصورت الباطل وطلبته ، وأرادته ولا بد . وهذا يتبين بالباب الذى بعده . فنقول :

(١) روى النسائى وأبو داود — واللفظ له — عن أبى وهب الجشمى ، وكانت له صحبة — قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تسموا بأسماء الأنبياء ، وأحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن ، وأصدقها حارث وهمام ، وأقبحها حرب ومرة » .

الباب السادس

فى أنه لا سعادة للقلب، ولا لذة، ولا نعيم، ولا صلاح إلا بأن يكون الله هو إلهه وفاطره وحده، وهو معبوده وغاية مطلوبه، وأحب إليه من كل ما سواه

معلوم أن كل حى ـ سوى الله سبحانه ـ : من ملك أو إنس أو جن أو حيوان ، فهو فقير إلى جلب ما ينفعه ودفع ما يضره ، ولا يتم ذلك له إلا بتصوره للنافع والضار ، والمنفعةُ من جنس النعيم واللذة ، والمضرةُ من جنس الألم والعذاب .

فلا بد له من أمرين : أحدهما معرفة ما هو المحبوب المطلوب الذى ينتفع به ويلتذ بإدراكه ، والثانى : معرفة المعين الموصل المحصل لذلك المقصود . وبإزاء ذلك أمران آخران ؛ أحدهما : مكروه بغيض ضار ، والثانى : معين دافع له عنه ، فهذه أربعة أشياء :

أحدها : أمر هو محبوب مطلوب الوجود . الثانى : أمر مكروه مطلوب العدم . الثالث : الوسيلة إلى حصول المطلوب المحبوب الرابع : الوسيلة إلى دفع المكروه .

فهذه الأمور الأربعة ضرورية للعبد ، بل ولكل حيوان ، لا يقوم وجوده وصلاحه إلا بها .

فإذا تقرر ذلك ، فالله تعالى هو الذى يجب أن يكون هو المقصودَ المدعوَّ المطلوب ، الذى يراد وجهه ، ويُبتغَى قُرْبه ، ويُطلب رضاه ، وهو المعين على حصول ذلك . وعبودية ماسواه والالتفات إليه ، والتعلق به : هو المكروه الضار ، والله هو المعين على دفعه ، فهو سبحانه الجامع لهذه الأمور الأربعة دون ما سواه . فهو المعبود المحبوب المراد . وهو المعين لعبده على وصوله إليه وعبادته له . والمكروه البغيض إنما يكون بمشيئته وقدرته ، وهو المعين لعبده على دفعه عنه ، كما قال أعرف الخلق به : « أعوذ برضاك من سخطك ، وأعوذ بمعافاتك من

عقوبتك ، وأعوذبك منك[١] » وقال : « اللهم إنى أسلمتُ نفسى إليك ، ووَجَّهت وَجْهى إليك ، وفوّضت أمرى إليك ، وألجأتُ ظَهْرى إليك، رَغبةً ورهبةً إليك ، لا مَلْجأ ولا مُنْجَى منك إلا إليك[٢] » فمنه المنجَى ، و إليه الملجأ ، و به الاستعاذة من شر ماهو كائن بمشيئته وقدرته ، فالإعاذة فعله ، والمستعاذ منه فعله ، أو مفعوله الذى خلقه بمشيئته .

فالأمر كله له ، والحمد كله له ، والملك كله له ، والخير كله فى يديه ، لا يحصى أحد من خلقه ثناء عليه ، بل هو كما أثنى على نفسه ، وفوق ما يثنى عليه كل أحد من خلقه ، ولهذا كان صلاح العبد وسعادته فى تحقيق معنى قوله : (« ١ : ٥ » إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) فإن العبودية تتضمن المقصود المطلوب ، لكن على أكمل الوجوه ،والمستعان هوالذى يستعان به على المطلوب فالأول: من معنى ألوهيته ، والثانى: من معنى ربوبيته ، فإن الإله هوالذى تألهه القلوب : محبة ، و إنابة ، و إجلالا ، و إكراماً ، وتعظيما، وذُلاًّ ، وخضوعاً ، وخوفاً ، ورجاء ، وتوكلا ، والرب هو الذى يُرَبِّى عبده ، فيعطيه خلقه ، ثم يهديه إلى مصالحه . فلا إله إلا هو ، ولا رب إلا هو ، فكما أن ربوبية ما سواه أبطل الباطل ، فكذلك إلٰهية ما سواه .

وقد جمع الله سبحانه بين هذين الأصلين فى مواضع من كتابه كقوله : (« ١١ : ١٢٣ » فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ) وقوله عن نبيه شُعيب : (« ١١ : ٨٨ » وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللهِ عليهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ) وقوله :(« ٢٥ : ٥٨ » وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِى لاَ يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ) وقوله : (« ٧٣ ٨ » وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً « ٩ » رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً) وقوله:(« ١٣ : ٣٠ » قُلْ هُوَ رَبِّى لاَإِلٰهَ إِلاَّ هُوَعَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ) وقوله عن الحنفاء أتباع إبراهيم عليه السلام:(« ٦٠ : ٤ » رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ)

---

(١) رواه مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه عن عائشة رضى الله عنها ، بلفظ « فقدت النبىّ صلى الله عليه وسلم ذات ليلة من فراشى فالتمسته ، فوقعت يدى على بطن قدميه وهو فى المسجد ، وهما منصوبتان وهو يقول : اللهم إنى أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك » .

(٢) رواه البخارى ومسلم وأصحاب السنن عن البراء بن عازب قال قال : النبىّ صلى الله عليه وسلم « إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة ،ثم اضطجع على شقك الأيمن، ثم قل: اللهم أسلمت نفسى إليك . ووجهت وجهى إليك . وفوضت أمرى إليك ، وألجأت ظهرى إليك ، رغبة ورهبة إليك ، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك . آمنت بكتابك الذى أنزلت ونبيك الذى أرسلت » .

فهذه سبعة مواضع تنتظم هذين الأصلين الجامعين لمعنى التوحيد اللذين لا سعادة للعبد بدونهما البتة .

الوجه الثانى : أن الله سبحانه وتعالى خلق الخلق لعبادته ، الجامعة لمعرفته والانابة إليه ومحبته ، والاخلاص له ، فبذكره تطمئن قلوبهم ، وتسكن نفوسهم ، وبرؤيته فى الآخرة تَقَرُّ عيونهم ، ويتم نعيمهم ، فلا يعطيهم فى الآخرة شيئاً هوأحب إليهم ، ولا أقرلعيونهم ، ولا أنعم لقلوبهم : من النظر إليه ، وسماع كلامه منه بلا واسطة . ولم يعطهم فى الدنيا شيئاً خيراً لهم ولا أحب إليهم ، ولا أقر لعيونهم من الإيمان به ، ومحبته والشوق إلى لقائه ، والأنس بقربه ، والتنعم بذكره .

وقد جمع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بين هذين الأمرين فى الدعاء الذى رواه النسائى والإمام أحمد ، وابن حِبّان فى صحيحه وغيرهم ، من حديث عَمَّار بن ياسِر : أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كان يدعو به « اللهم بعلمك الغيب ، وقدرتك على الخلق ، أحينى ماعلمتَ الحياة خيراً لى ، وتوفَّنى إذا كانت الوفاةُ خيراً لى ، وأسألك خشيتك فى الغيب والشهادة ، وأسألك كلمة الحق فى الغضب والرضى ، وأسألك القصد فى الفقر والغنى ، وأسألك نعيما لاينْفَدُ ، وأسألك قُرَّةَ عينٍ لاتنقطع ، وأسألك الرضى بعد القضاء ، وأسألك بَرْد العيش بعد الموت ، وأسألك لذة النظر إلى وجهك ، وأسألك الشوق إلى لقائك ، فى غير ضَرّاء مُضِرَّة ، ولا فتنة مُضِلَّة اللهم زَيِّنا بزينة الإيمان ، واجعلنا هُداة مهتدين » .

فجمع فى هذا الدعاء العظيم القدر بين أطيب شىء فى الدنيا ، وهو الشوق إلى لقائه سبحانه ، وأطيب شىء فى الآخرة ، وهو النظر إلى وجهه سبحانه . ولما كان كمال ذلك وتمامه موقوفا على عدم مايضر فى الدنيا ويفتن فى الدين قال : « فى غير ضَرّاء مُضِرَّة ولا فتنة مُضِلَّة » .

ولما كان كمال العبد فى أن يكون عالما بالحق متبعا له معلما لغيره ، مرشداً له قال : « وَاجْعَلْنَا هُدَاةً مُهْتَدِينَ » .

ولما كان الرضى النافع المحصل للمقصود هو الرضى بعد وقوع القضاء لاقبله ، فإن ذلك عزم على الرضى ، فإذا وقع القضاء انفسخ ذلك العزم ، سأل الرضى بعده ، فإن المقدور يكتنفه أمران : الاستخارة قبل وقوعه ، والرضى بعد وقوعه . فمن سعادة العبد أن يجمع بينهما ، كما فى المسند وغيره عنه صلى الله تعالى عليه وآله وسلم « إن من سعادة ابن آدم استخارة الله و رضاه

بما قضى الله ، و إن من شقاوة ابن آدم ترك استخارة الله ، وسخطه بما قضى الله تعالى[١] » .

ولما كانت خشية الله عزّ وجل رأس كل خير فى المشهد والمغيب ، سأله خشيته فى الغيب والشهادة .

ولما كان أكثر الناس إنما يتكلم بالحق فى رضاه ، فإذا غضب أخرجه غضبه إلى الباطل ، وقد يدخله أيضاً رضاه فى الباطل ، سأل الله عزّ وجل أن يوفقه لكلمة الحق فى الغضب والرضى ، ولهذا قال بعض السلف « لا تكن ممن إذا رضى أدخله رضاه فى الباطل ، و إذا غضب أخرجه غضبه من الحق » .

ولما كان الفقر والغنى بليتين ومحنتين ، يبتلى الله بهما عبده . فنى الغنى يبسط يده ، وفى الفقر يقبضها ، سأل الله عز وجل القصد فى الحالين ، وهو التوسط الذى ليس معه إسراف ولا تقتير .

ولما كان النعيم نوعين : نوعا للبدن ، ونوعا للقلب ، وهو قرة العين ، وكماله بدوامه واستمراره ، جمع بينهما فى قوله « أسألك نعيما لا ينفد ، وقرة عين لا تنقطع » .

ولما كانت الزينة زينتين : زينة البدن ، وزينة القلب ، وكانت زينة القلب أعظمهما قدراً وأجلهما خطراً ، و إذا حصلت حصلت زينة البدن على أكمل الوجوه فى العُقْبَى ، سأل ربه الزينة الباطنة فقال « زينا بزينة الإيمان » .

ولما كان العيش فى هذه الدار لا يبرد لأحد كائناً من كان ، بل هو محشو بالغصص والنكد ، ومحفوف بالآلام الباطنة والظاهرة ، سأل برد العيش بعد الموت .

والمقصود : أنه جمع فى هذا الدعاء بين أطيب ما فى الدنيا ، وأطيب ما فى الآخرة .

فإن حاجة العباد إلى ربهم فى عبادتهم إياه وتأليههم له ، كحاجتهم إليه فى خلقه لهم ، ورزقه إيام ،

---

(١) قال الحافظ المنذرى فى الترغيب والترهيب : عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه قال قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من سعادة ابن آدم استخارة الله عزّ وجلّ » رواه أحمد وأبو يعلى والحاكم وزاد « ومن شقوة ابن آدم تركه استخارة الله » وقال : صحيح الإسناد ؛ كذا قال ورواه الترمذى بلفظ « من سعادة ابن آدم كثرة استخارة الله تعالى ورضاه بما قضى الله له . ومن شقاوة ابن آدم تركه استخارة الله تعالى وسخطه بما قضى الله له » وقال : حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث محمد بن أبى حميد وليس بالقوى عند أهل الحديث . ورواه البزار ولفظه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من سعادة المرء استخارته ربه ورضاه بما قضى ، ومن شقاء المرء تركه الاستخارة وسخطه بعد القضاء » .

ومعافاة أبدانهم ، وستر عوراتهم ، وتأمين روعاتهم ، بل حاجتهم إلى تأليهه ومحبته وعبوديته أعظم ، فإن ذلك هو الغاية المقصودة لهم ، ولا صلاح لهم ولا نعيم ولا فلاح ولا لذة ولا سعادة بدون ذلك بحال ، ولهذا كانت « لا إله إلا الله » أحسن الحسنات ، وكان توحيد الإلهية رأس الأمر ، وأما توحيد الربوبية الذى أقر به المسلم والكافر، وقرره أهل الكلام فى كتبهم ، فلا يكفى وحده ، بل هو الحجة عليهم ، كما بين ذلك سبحانه فى كتابه الكريم فى عدة مواضع ، ولهذا كان حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، كما فى الحديث الصحيح الذى رواه معاذ بن جبل رضى الله عنه عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال « أتدرى ماحق الله على عباده ؟ قلت :الله ورسوله أعلم ، قال : حقه على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، أتدرى ماحق العباد على الله إذا فعلوا ذلك ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : حقهم عليه أن لايعذبهم بالنار[1] » ولذلك يحب سبحانه عباده المؤمنين الموحدين ويفرح بتوبتهم ، كما أن فى ذلك أعظم لذة العبد وسعادته ونعيمه ، فليس فى الكائنات شىء غير الله عز وجل يسكن القلب إليه ، ويطمئن به ويأنس به ، ويتنعم بالتوجه إليه ، ومن عبد غيره سبحانه وحصل له به نوع منفعة ولذة ، فضرته بذلك أضعاف أضعاف منفعته ، وهو بمنزلة أكل الطعام المسموم اللذيذ ، وكما أن السموات والأرض لو كان فيهما آلهة غيره سبحانه لفسدتا ، كما قال تعالى : (« ٢١ : ٢٢ »لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللّٰهُ لَفَسَدَتَا) فكذلك القلب إذا كان فيه معبود غير الله تعالى فسد فساداً لايرجى صلاحه إلا بأن يخرج ذلك المعبود منه ، ويكون الله تعالى وحده إلهه ومعبوده الذى يحبه ويرجوه ، ويخافه ويتوكل عليه وينيب إليه .

الوجه الثالث : أن فقر العبد إلى أن يعبد الله سبحانه وحده لا يشرك به شيئاً ليس له نظير فيقاس به ، لكن يشبه من بعض الوجوه حاجة الجسد إلى الغذاء والشراب والنفَس ، فيقاس بها ، لكن بينهما فروق كثيرة ، فإن حقيقة العبد قلبه وروحه ، ولا صلاح له إلا بإلهه الحق الذى لا إله إلا هو ، فلا يطمئن إلا بذكره ، ولا يسكن إلا بمعرفته وحبه ، وهو كادح إليه كَدْحا فملاقيه ، ولا بدله من لقائه ، ولا صلاح له إلا بتوحيد محبته وعبادته وخوفه ورجائه ، ولو حصل له من اللذات والسرور بغيره ما حصل فلا يدوم له ذلك ، بل ينتقل من نوع إلى نوع ، ومن شخص إلى شخص ويتنعم بهذا فى حال وبهذا فى حال ، وكثيراً مايكون ذلك

(١) رواه البخارى ومسلم .

الذى يتنعم به هو أعظم أسباب ألمه ومضرته . وأما إلهه الحق فلا بد له منه فى كل وقت وفى كل حال ، وأينما كان فنفس الإيمان به ومحبته وعبادته و إجلاله وذكره هو غذاء الإنسان وقوته ، وصلاحه وقوامه ، كما عليه أهل الإيمان ، ودلت عليه السنة والقرآن ، وشهدت به الفطرة والجنان ، لا كما يقوله من قل نصيبه من التحقيق والعرفان ، و بُخس حظه من الإحسان ـ : إن عبادته وذكره وشكره تكليف ومشقة ، لمجرد الابتلاء والامتحان ، أو لأجل مجرد التعويض بالثواب المنفصل كالمعاوضة بالأثمان ، أو لمجرد رياضة النفس وتهذيبها ليرتفع عن درجة البهيم من الحيوان ، كما هى مقالات من بُخس حظه من معرفة الرحمن ، وقلّ نصيبه من ذوق حقائق الإيمان ، وفرح بما عنده من زَبَد الأفكار وزُبالة الأذهان ، بل عبادته ومعرفته وتوحيده وشكره قرة عين الإنسان ، وأفضل لذة للروح والقلب والجنان ، وأطيب نعيم ناله من كان أهلا لهذا الشان ، والله المستعان ، وعليه التكلان .

وليس المقصود بالعبادات والأوامر المشقة والكلفة بالقصد الأول ، و إن وقع ذلك ضمنا وتبعا فى بعضها ، لأسباب اقتضته لابد منها ، هى من لوازم هذه النشأة .

فأوامره سبحانه ، وحقه الذى أوجبه على عباده ، وشرائعه التى شرعها لهم ، هى قرة العيون ولذة القلوب ، ونعيم الأرواح وسرورها ، و بها شفاؤها وسعادتها وفلاحها ، وكمالها فى معاشها ومعادها ، بل لا سرور لها ولا فرح ولا لذة ولا نعيم فى الحقيقة إلا بذلك ، كما قال تعالى: (« ١٠ : ٥٧» يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ « ٥٨ » قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ) قال أبو سعيد الخُدرى «فضل الله : القرآنُ ، ورحمته : أن جعلكم من أهله » وقال هلال بن يِسَاف « بالاسلام الذى هداكم إليه . و بالقرآن الذى علمكم إياه ، هو خير مما تجمعون : من الذهب والفضة » وكذلك قال : ابن عباس والحسن وقتادة « فضله : الإسلام ، ورحمته : القرآن » وقالت طائفة من السلف « فضله القرآن ، ورحمته الإسلام » .

والتحقيق : أن كلا منهما فيه الوصفان ، الفضل والرحمة ، وهما الأمران اللذان امتن الله بهما على رسوله عليه الصلاة والسلام فقال : (« ٤٢ : ٥٢ » وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ) والله سبحانه إنما رفع من رفع بالكتاب والإيمان . ووضع من وضع بعدمهما .

فان قيل : فقد وقع تسمية ذلك تكليفا فى القرآن كقوله : (« ٢ : ٢٨٦ » لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا) وقوله : (« ٦ : ١٥٢ » لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا) .

قيل: نعم ، إنما جاء ذلك فى جانب النفى ، ولم يسم سبحانه أوامره و وصاياه وشرائعه تكليفا قط ، بل سماها روحا ونورا ، وشفاء وهدى و رحمة ، وحياة ، وعهدا ، ووصية ، ونحو ذلك .

الوجه الرابع : أن أفضل نعيم الآخرة وأجلّه وأعلاه على الاطلاق هو النظر إلى وجه الرب عز وجل ، وسماع خطابه ، كما فى صحيح مسلم عن صُهيب رضى الله عنه عن النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم «إذا دخل أهل الجنة الجنة نادى مناد : يا أهل الجنة ، إن لكم عند الله مَوعداً يريد أن يُنْجِزَكُموه ، فيقولون : ماهو ؟ ألم يبيض وجوهنا ، و يثقل موازيننا؟و يدخلنا الجنة ، ويُجِرْنا من النار ؟ قال : فيكشف الحجاب ، فينظرون إليه ، فما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه » وفى حديث آخر « فلا يلتفتون إلى شىء من النعيم ماداموا ينظرون إليه » فبين عليه الصلاة والسلام أنهم مع كمال تنعمهم[1] بما أعطاهم ربهم فى الجنة ، لم يعطهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه ، و إنما كان ذلك أحب إليهم لأن مايحصل لهم به من اللذة والنعيم والفرح والسرور وقرة العين ، فوق ما يحصل لهم من التمتع بالأكل والشرب والحور العين ، ولا نسبة بين اللذتين والنعيمين ألبتة . ولهذا قال سبحانه وتعالى فى حق الكفار : (« ٨٣ : ١٥ » كَلاَّ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ « ١٦ » ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ) ، فجمع عليهم نوعى العذاب : عذاب النار ، وعذاب الحجاب عن سبحانه ، كما جمع لأوليائه نوعى النعيم : نعيم التمتع بما فى الجنة ، ونعيم التمتع برؤيته ، وذكر سبحانه هذه الأنواع الأربعة فى هذه السورة ، فقال فى حق الأبرار («٢٢» إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ «٢٣» عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ) ، ولقد هضم معنى الآية من قال : ينظرون إلى أعدائهم يعذبون ، أو ينظرون إلى قصورهم و بساتينهم ، أو ينظر بعضهم إلى بعض ، وكل هذا عدول عن المقصود إلى غيره ، و إنما المعنى ينظرون إلى وجه ربهم ، ضد حال الكفار الذين هم عن ربهم لمحجوبون (« ١٦ » ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ) وتأمل كيف قابل سبحانه ما قاله الكفار فى أعدائهم فى الدنيا وسخروا به منهم ، بضده فى القيامة ، فإن الكفار كانوا إذا مر بهم المؤمنون يتغامزون و يضحكون منهم (« ٣٢ » وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلاَءِ لَضَالُّونَ) فقال تعالى :

(١) فى نسخة « نعمتهم » .

(« ٣٤ » فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ) مقابلة لتغامزهم وضحكهم منهم ، ثم قال : (« ٣٥ » عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ) فأطلق النظر، ولم يقيده بمنظور دون منظور، وأعلى ما نظروا إليه وأجلُّه وأعظمه هو الله سبحانه ، والنظر إليه أجل أنواع النظر وأفضلها ، وهو أعلى مراتب الهداية ، فقابل بذلك قولهم (إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ) فالنظر إلى الرب سبحانه مراد من هذين الموضعين ولا بد ، إما بخصوصه وإما بالعموم والإطلاق ، ومن تأمل السياق لم يجد الآيتين تحتملان غير إرادة ذلك ، خصوصاً أو عموماً .

فصل : فى أن لذة النظر إلى وجه الله يوم القيامة
تابعة للتلذذ بمعرفته ومحبته فى الدنيا

وكما أنه لا نسبة لنعيم مافى الجنة إلى نعيم النظر إلى وجهه الأعلى سبحانه ، فلا نسبة لنعيم الدنيا إلى نعيم محبته ومعرفته والشوق إليه والأنس به ، بل لذة النظر إليه سبحانه تابعة لمعرفتهم به ومحبتهم له ، فإن اللذة تتبع الشعور والمحبة . فكلما كان المحب أعرف بالمحبوب ، وأشد محبة له ، كان التذاذه بقربه ورؤيته ووصوله إليه أعظم .

الوجه الخامس : أن المخلوق ليس عنده للعبد نفع ولا ضر ، ولا عطاء ولا منع ، ولا هدى ولا ضلال ، ولا نصر ولا خذلان ، ولا خفض ولا رفع ، ولا عز ولا ذل ، بل الله وحده هو الذى يملك له ذلك كله ، قال الله تعالى: (« ٣٥ : ٢ » مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) وقال تعالى: (« ١٠ : ١٠٧ » وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ. وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ ، يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) وقال تعالى : (« ٣ : ١٦٠ » إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ ـ الآية) وقال تعالى : عن صاحب يس (« ٣٦ : ٢٣ » أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ) وقال تعالى : (« ٣٥ : ٣ » يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ؟ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ؟) وقال تعالى: (« ٦٧ : ٢٠ » أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ؟ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا

فِي غُرُورٍ «٢١» أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ ؟ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ) فجمع سبحانه بين النصر والرزق ، فإن العبد مضطر إلى من يدفع عنه عدوه بنصره ، ويجلب له منافعه برزقه ، فلا بد له من ناصر ورازق . والله وحده هو الذى ينصر ويرزق ، فهو الرزاق ذو القوة المتين . ومن كمال فطنة العبد ومعرفته : أن يعلم أنه إذا مسه الله بسوء لم يرفعه عنه غيره . وإذا ناله بنعمة لم يرزقه إياها سواه . ويذكر أن الله تعالى أوحى إلى بعض أنبيائه « أدرك لى لطيف الفطنة ، وخفىّ اللطف ، فإنى أحب ذلك . قال : يارب وما لطيف الفطنة ؟ قال: إن وقعت عليك ذبابة فاعلم أنى أنا أوقعتها فاسألنى أرفعها. قال: وماخفى اللطف ؟ قال : إذا أتتك حَبّة فاعلم أنى أنا ذكرتك بها » وقد قال تعالى عن السحرة : (« ٢ : ١٠٢ » وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ) فهو سبحانه وحده الذى يكفى عبده وينصره ويرزقه ويكلؤه .

قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق أخبرنا معْمَر قال : سمعت وَهْباً يقول : قال الله تعالى فى بعض كتبه « بعزتى ، إنه من اعتصم بى ، فإن كادته السموات بمن فيهن ، والأرضون بمن فيهن ، فإنى أجعل له من ذلك مخرجاً ، ومن لم يعتصم بى ، فإنى أقطع يديه من أسباب السماء وأخسف به من تحت قدميه الأرض ، فأجعله فى الهواء ، ثم أكِلُه إلى نفسه ، كَفَى لعبدى مَلاَذى ، إذا كان عبدى فى طاعتى أعطيه قبل أن يسألنى ، وأستجيب له قبل أن يدعونى ، فأنا أعلم بحاجته التى ترفُق به منه » قال أحمد : وحدثنا هاشم بن القاسم حدثنا أبو سعيد المؤدب حدثنا من سمع عطاء الخراسانى قال : « لقيت وهب بن مُنَبّه ؛ وهو يطوف بالبيت ؛ فقلت له : حدثنى حديثاً أحفظه عنك فى مقامى هذا ، وأوجزْ ، قال: نعم ، أوحى الله تبارك وتعالى إلى داود : ياداود ، أما وعزتى وعظمتى لا يعتصم بى عبد من عبيدى دون خلقى ـ أعرف ذلك من نيته ـ فتكيده السموات السبع ومن فيهن ، والأرضون السبع ومن فيهن إلا جعلت له من بينهن مخرجا ، أما وعزتى وعظمتى لا يعتصم عبد من عبادى بمخلوق دونى ـ أعرف ذلك من نيته ـ إلا قطعت أسباب السماء من يده ، وأسَخْت الأرض من تحت قدميه ، ثم لا أبالى بأى وادٍ هلك » .

وهذا الوجه أظهر للعامة من الذى قبله . ولهذا خوطبوا به فى القرآن أكثر من الأول . ومنه دعت الرسل إلى الوجه الأول . وإذا تدبر اللبيب القرآن وجد الله سبحانه يدعو عباده

بهذا الوجه إلى الوجه الأول ، وهذا الوجه يقتضي التوكل على الله تعالى والاستعانة به ، ودعاءه ومسألته دون ما سواه ، ويقتضي أيضاً : محبته وعبادته ، لإحسانه إلى عبده ، وإسباغ نعمه عليه ، فإذا أحبوه وعبدوه وتوكلوا عليه من هذا الوجه دخلوا منه إلى الوجه الأول .

ونظير ذلك : من ينزل به بلاء عظيم ، أو فاقة شديدة ، أو خوف مقلق ، فجعل يدعو الله سبحانه ويتضرع إليه ، حتى فتح له من لذيذ مناجاته وعظيم الإيمان به ، والإنابة إليه ماهو أحب إليه من تلك الحاجة التي قصدها أوّلا ، ولكنه لم يكن يعرف ذلك أوّلا حتى يطلبه ، ويشتاق إليه ، وفي نحو ذلك قال القائل :

جزى الله يوم الرّوع خيراً ، فإنه أرانا على علاّته أمّ ثابت
أرانا مصونات الحجال ، ولم نكن نراهن إلا عند نعت النواعت

الوجه السادس : أن تعلق العبد بما سوى الله تعالى مَضَرة عليه ، إذا أخذ منه فوق القدر الزائد على حاجته ، غير مستعين به على طاعته ، فإذا نال من الطعام والشراب والنكاح واللباس فوق حاجته ضره ذلك ، ولو أحب سوى الله ما أحب ، فلا بد أن يسلبه ويفارقه ، فإن أحبه لغير الله فلا بد أن تضره محبته ويعذب بمحبوبه ، إما في الدنيا وإما في الآخرة ، والغالب أنه يعذب به في الدارين ، قال تعالى : (« ٩ : ٣٤ » وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ «٣٥» يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ) ، وقال تعالى : (« ٩ : ٥٥ » فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ ، إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ) ، ولم يصب من قال : إن الآية على التقديم والتأخير ، كالجرجاني ، حيث قال : ينتظم قوله « في الحياة الدنيا » بعد فصل آخر ليس بموضعه ، على تأويل « فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا إنما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة » وهذا القول يروى عن ابن عباس رضي الله عنهما . وهو منقطع ، واختاره قتادة وجماعة ، وكأنهم لما أشكل عليهم وجه تعذيبهم بالأموال والأولاد في الدنيا ، وأن سرورهم ولذتهم ونعيمهم بذلك ، فروا إلى التقديم والتأخير .

وأما الذين رأوا أن الآية على وجهها ونظمها فاختلفوا في هذا التعذيب ، فقال الحسن البصري : يعذبهم بأخذ الزكاة منها والإنفاق في الجهاد ، واختاره ابن جرير ، وأوضحه . فقال : العذاب بها إلزامهم بما أوجب الله عليهم فيها من حقوقه وفرائضه ، إذ كان يؤخذ منه ذلك ،

وهو غير طيب النفس ، ولا راج من الله جزاء ، ولا من الآخذ منه حمداً ولا شكراً ، بل على صغار منه وكره[١] .

وهذا أيضاً عدول عن المراد بتعذيبهم فى الدنيا بها ، وذهاب عن مقصود الآية .

وقالت طائفة : تعذيبهم بها أنهم يتعرضون بكفرهم لغنيمة أموالهم ، وسَبْى أولادهم ، فإن هذا حكم الكافر ، وهم فى الباطن كذلك . وهذا أيضاً من جنس ما قبله ، فإن الله سبحانه أقر المنافقين ، وعصم أموالهم وأولادهم بالإسلام الظاهر وتولّى سرائرهم ، فلو كان المراد ماذكره هؤلاء لوقع مراده سبحانه : من غنيمة أموالهم وسبى أولادهم ، فإن الإرادة هٰهنا كونيةٌ بمعنى المشيئة ، وما شاء الله كان ولا بد ، وما لم يشأ لم يكن .

والصواب ، والله أعلم ، أن يقال : تعذيبهم بها هو الأمر المشاهد من تعذيب طلّاب الدنيا ومحبيها ومؤثريها على الآخرة : بالحرص على تحصيلها ، والتعب العظيم فى جمعها ، ومقاساة أنواع المشاق فى ذلك ، فلاتجد أتعب ممن الدنيا أكبرُ همِّه ، وهوحريص بجهده على تحصيلها . والعذاب هنا هو الألم والمشقة والنصَب ، كقوله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم « السفر قطعة من العذاب[٢] » وقوله « إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه[٣] » أى يتألم ويتوجع ، لا أنه يعاقب بأعمالهم ، وهكذا مَنِ الدنيا كلُّ همه أو أكبرهمه ، كما قال صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فى الحديث الذى رواه الترمذى وغيره من حديث أنس رضى الله عنه « من كانت الآخرة همه جعل الله غِناه فى قلبه ، وجمع له شَمْله ، وأتته الدنيا وهى راغمة ، ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه ، وفرّق عليه شمله ، ولم يأته من الدنيا إلا ماقدر له »[٤] .

ومن أبلغ العذاب فى الدنيا : تشتيت الشمل وتفريق القلب ، وكون الفقر نُصب عينى العبد لا يفارقه ، ولولا سكرة عشاق الدنيا بحبها لاستغاثوا من هذا العذاب ، على أن أكثرهم

---

(١) نص عبارة ابن جرير « لا تعجبك يامحمد أموال هؤلاء المنافقين وأولادهم ، فتصلى على أحدهم إذا مات وتقوم على قبره من أجل كثرة ماله وولده فإنى إنما أعطيته ما أعطيته من ذلك لأعذبه فى الدنيا بالغموم والهموم بما ألزمه فيها من المؤن والنفقات والزكوات وبما ينوبه فيها من الرزايا والمصيبات » .

(٢) رواه البخارى ومسلم والإمام أحمد وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه عن أبى هريرة .

(٣) رواه البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن عمر .

(٤) رواه الترمذى من طريق يزيد الرقاشى عن أنس . ويزيد وثق ولا بأس به فى المتابعات . وقد روى مثل هذا الحديث بمعناه قريبا منه عن أبى الدرداء . رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط والبيهقى فى الزهد . وعن زيد بن ثابت رواه ابن ماجه ورواته ثقات ، والطبرانى باسناد لا بأس به وابن حبان فى صحيحه . انظر الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى فى باب التفرغ للعبادة .

لا يزال يشكو ويصرخ منه ، وفى الترمذى أيضاً عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال : « يقول الله تبارك وتعالى : ابنَ آدم ، تَفَرَّغْ لعبادتى أملأْ صدرك غِنًى ، وأسُد فقرك ، وإن لا تفعلْ ملأت يديك شغلا ، ولم أسد فقرك[1] » وهذا أيضاً من أنواع العذاب ، وهو اشتغال القلب والبدن بتحمل أنكاد الدنيا ومحاربة أهلها إياه ، ومقاساة معاداتهم ، كما قال بعض السلف « من أحب الدنيا فليوطن نفسه على تحمل المصائب» ومحب الدنيا لا ينفك من ثلاث : هَمٌّ لازم ، وتعب دائم ، وحسرة لا تنقضى ، وذلك أن محبها لا ينال منها شيئاً إلا طمحت نفسه إلى ما فوقه ، كما فى الحديث الصحيح عن النبى عليه الصلاة والسلام « لو كان لابن آدم واديان من مال لا بتغى لهما ثالثاً[2] » وقد مثل عيسى ابن مريم عليه السلام محب الدنيا بشارب الخمر ، كلما ازداد شربا ازداد عطشاً .

وذكر ابن أبى الدنيا أن الحسن البصرى كتب إلى عمر بن عبدالعزيز «أما بعد: فإن الدنيا دار ظعن ، ليست بدار إقامة ، إنما أُنزل إليها آدم عليه السلام عقوبة ، فاحذرها يا أمير المؤمنين ، فإن الزاد منها تركها ، والغنى فيها فقرها . لها فى كل حين قتيل ، تذل من أعزها ، وتفقر من جمعها . هى كالسم يأكله من لا يعرفه ، وهو حَتْفُه ، فكن فيها كالمداوى جراحه ، يحتمى قليلا ، مخافة مايكره طويلا ، ويصبر على شدة الدواء مخافة طول البلاء ، فاحذر هذه الدار الغرّارة ، الخداعة الخيالة ، التى قد تزينت بخدعها ، وفتنت بغرورها ، وختلت بآمالها ؛ وتشوفت لخطّابها ، فأصبحت كالعروس المجلوة ؛ فالعيون إليها ناظرة ، والقلوب عليها والهة ، والنفوس لها عاشقة ، وهى لأزواجها كلهم قاتلة ؛ فعاشق لها قد ظفر منها بحاجته ، فاغتر وطغى ، ونسى المعاد ، فشَغل بها لُبَّه ، حتى زَلّت عنها قدمه ، فعظمت عليها ندامته ، وكثرت حسرته ، واجتمعت عليه سكرات الموت وألمه ، وحسرات الفوت ، وعاشق لم ينل منها بغيته ، فعاش بغُصّته ، وذهب بكمده ، ولم يدرك منها ما طلب ، ولم تسترح نفسه من التعب ، فخرج بغير

---

(١) نسخة « أملأ صدرك » وقال الترمذى : حديث حسن . ورواه ابن ماجه وابن حبان فى صحيحه باختصار والحاكم وقال : صحيح الاسناد . والبيهقى فى كتاب الزهد .

(٢) روى أحمد والبخار ومسلم والترمذى عن أنس ، وأحمد والبخارى ومسلم عن ابن عباس ، والبخارى عن ابن الزبير . وابن ماجه عن أبى هريرة . وأحمد عن أبى واقد الليثى : أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال « لو كان لابن آدم واد من مال لابتغى إليه ثانيا ، ولو كان له واديان لابتغى لهما ثالثا . ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب » .

زاد، وقدم على غير مِهاد . فكن أسرّ ماتكون فيها أحذر ماتكون لها ، فإن صاحب الدنيا كلما اطمأن منها إلى سرور أشخصته إلى مكروه ، وُصِل الرخاء منها بالبلاء ، وجُعل البقاء فيها إلى فناء . سرورها مشوب بالحزن،أمانيها كاذبة ، وآمالها باطلة ، وصفوها كدر ، وعيشها نكد . فلو كان ربنا لم يخبر عنها خبرا ، ولم يضرب لها مثلا ، لكانت قد أيقظت النائم ، ونبهت الغافل . فكيف وقد جاء من الله فيها واعظ ، وعنها زاجر ؟ فما لها عند الله قدر ولا وزن ، ولا نظر إليها منذ خلقها . ولقد عرضت على نبينا بمفاتيحها وخزائنها [1] لاينقصها عند الله جَناح بَعوضة ، فأبى أن يقبلها ، كره أن يحب ما أبغض خالقه ، أو يرفع ماوضع مليكه . فزواها عن الصالحين اختيارا ، و بسطها لاعدائه اغترارا . فيظن المغرور بها المقتدر عليها أنه أُكرم بها ، ونسى ماصنع الله عز وجل برسوله حين شد الحجر على بطنه » .

وقال الحسن أيضاً « إن قوما أكرموا الدنيا فصلبتهم على الخُشُب . فأهينوها فأهنأ ماتكون إذا أهنتموها » وهذا باب واسع .

وأهل الدنيا وعشاقها أعلم بما يقاسونه من العذاب وأنواع الألم فى طلبها .

ولما كانت هى أكبر هَمّ من لايؤمن بالآخرة ، ولايرجو لقاء ربه .كان عذابه بها بحسب حرصه عليها ، وشدة اجتهاده فى طلبها .

و إذا أردت أن تعرف عذاب أهلها بها فتأمل حال عاشق ، فانٍ فى حب معشوقه ، وكلما رامَ قربا من معشوقه نأىعنه ، ولا يفى له و يهجره ، و يصل عدوه . فهو مع معشوقه فى أنكد عيش . يختار الموتدونه ، فمعشوقه قليل الوفاء ، كثير الجفاء ، كثير الشركاء ، سريع الاستحالة ، عظيم الخيانة ، كثير التلوّن ، لايأمن عاشقه معه على نفسه ولا على ماله ، مع أنه لاصبر له عنه ولا يجد عنه سبيلا إلى سَلْوة تُريحه ، ولا وصال يدوم له ، فلو لم يكن لهذا العاشق عذاب إلا هذا العاجل لكفى به ، فكيف إذا حيل بينه و بين لذاته كلها ، وصار معذبا بنفس ما كان ملتذا به على قدر لذته به ، التى شغلته عن سعيه فى طلب زاده ، ومصالح معاده ؟

وسنعود إلى تمام الكلام فى هذا الباب فى باب ذكر علاج مرض القلب بحب الدنيا إن شاء الله تعالى ، إذ المقصود بيان أن من أحب شيئاً سوى الله تعالى ، ولم تكن محبته له

(١) يشير الى حديث « أعطيت مالم يعط أحد من الأنبياء قبلى نصرت بالرعب، وأعطيت مفاتيح الأرض ـ الحديث» رواه أحمد عن على رضى الله عنه .

لله تعالى ، ولا لكونه معيناً له على طاعة الله تعالى : عذب به فى الدنيا قبل يوم القيامة . كما قيل :

أنت القتيـــــل بكل من حببته فاختر لنفسك فى الهوى من تصطفى

فإذا كان يومُ المعاد ولّى الحكَمُ العدل سبحانه كلّ محب ما كان يحبه فى الدنيا. فكان معه : إما منعما أو معذبا . ولهذا « يمثل لصاحب المال ماله شجاعا أقرع يأخذ بلِهزِمَتيه ـ يعنى شدقيه ـ يقول : أنا مالُك ، أنا كنزك ، و يُصَفّح له صفائح من نارٍ يُكْوَى بها جبينه وجنبه وظهره[1] » وكذلك عاشق الصور إذا اجتمع هو ومعشوقه على غير طاعة الله تعالى جمع الله بينهما فى النار ، وعذب كل منهما بصاحبه . قال تعالى : (« ٤٣ : ٦٧ » الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ) وأخبر سبحانه أن الذين توادُّوا فى الدنيا على الشرك يكفر بعضهم ببعض يوم القيامة وَيَلْعَنُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ[2] . فالمحب مع محبوبه دنيا وأخرى . ولهذا يقول الله تعالى يوم القيامة للخلق « أليس عدلاً منى أن أولّى كل رجل منكم ما كان يتولى فى دار الدنيا؟ » وقال صلى الله تعالى عليه وسلم « المرء مع من أحب[3] » وقال الله تعالى : (« ٢٥ : ٢٧ » وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً « ٢٨ » يَاوَيْلَتَا لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلاً « ٢٩ » لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ، وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولاً) ، وقال تعالى : (« ٣٧ : ٢٢ » احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ « ٢٢ » مِنْ دُونِ اللَّهِ . فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ « ٢٣ » وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ « ٢٤ » مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ؟) ، قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه « أزواجهم : أشباههم ونظراؤهم » وقال تعالى : (« ٨١ : ٧ » وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ) ، فقُرن كل شكل إلى شكله ، وجعل معه قريناً وزوجا : البرُّ مع البر ، والفاجر مع الفاجر .

والمقصود : أن من أحب شيئاً سوى الله عزّ وجل فالضرر حاصل له بمحبوبه : إن وجد وإن فقد ، فإنه إن فقده عذب بفواته وتألم على قدر تعلق قلبه به ، و إن وجده كان ما يحصل

---

(١) رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة .

(٢) انظر سورة العنكبوت آية ٢٥ (ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً ومأواكم النار وما لكم من ناصرين) .

(٣) رواه أحمد والبخارى ومسلم عن أنس ، عن ابن مسعود .

له من الألم قبل حصوله ، ومن النكد فى حال حصوله ، ومن الحسرة عليه بعد فوته : أضعاف أضعاف ما فى حصوله له من اللذة :

فما فى الأرض أشقى من محب ... وإن وجد الهوى حلو المذاق
تراه باكياً فى كل حال ... مخافة فرقة ، أو لاشتياق
فيبكى إن نأوا ، شوقاً إليهم ... ويبكى إن دنوا ، حذَر الفراق
فتسخن عينه عند الفراق ... وتسخن عينه عند التلاقى

وهذا أمر معلوم بالاستقراء والاعتبار والتجارب ، ولهذا قال النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فى الحديث الذى رواه الترمذى وغيره «الدنيا ملعونة ملعون مافيها إلا ذكر الله وماوالاه» فذِكْرُه : جميع أنواع طاعته ، فكل من كان فى طاعته فهو ذاكر له ، وإن لم يتحرك لسانه بالذكر، وكل من والاهُ الله فقد أحبه وقربه، فاللعنة لا تنال ذلك بوجه ، وهى نائلة كل ماعداه .

الوجه السابع : أن اعتماد العبد على المخلوق وتوكله عليه يوجب له الضرر من جهته هو ولا بد ، عكس ما أمّله منه ، فلا بد أن يخذل من الجهة التى قدّر أن ينصر منها ، ويذم من حيث قدر أن يحمد ، وهذا أيضاً كما أنه ثابت بالقرآن والسنة فهو معلوم بالاستقراء والتجارب، قال تعالى : (« ١٩ : ٨١ »وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا «٨٢» كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا) وقال تعالى : (« ٣٦ : ٧٤ » وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ « ٧٥ » لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ) أى يغضبون لهم ويحاربون ، كما يغضب الجند ويحارب عن أصحابه ، وهم لا يستطيعون نصرهم ، بل هم كَلٌّ عليهم وقال تعالى : (« ١١ : ١٠١ » وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ، وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ) أى غير تخسير ، وقال تعالى : (« ٢٦ : ٢١٣ » فَلَا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ) وقال تعالى (« ١٧ : ٢٢ » لَا تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا فإن المشرك يرجو بشركه النصر تارة ، والحمد والثناء تارة ؛ فأخبر سبحانه أن مقصوده ينعكس عليه ، ويحصل له الخذلان والذم .

والمقصود : أن هذين الوجهين فى المخلوق ضدهما فى الخالق سبحانه . فصلاح القلب

وسعادته وفلاحه فى عبادة الله تعالى والاستعانة به ، وهلاكه وشقاؤه وضرره العاجل والآجل فى عبادة المخلوق والاستعانة به .

الوجه الثامن : أن الله سبحانه غنى كريم ، عزيز رحيم . فهو محسن إلى عبده مع غناه عنه ، يريد به الخير ، ويكشف عنه الضر ، لا لجلب منفعة إليه من العبد ، ولا لدفع مضرة ، بل رحمة منه وإحسانا . فهوسبحانه لم يخلق خلقه ليتكثّر بهم من قِلّة ، ولا ليعتزّ بهم من ذِلّة ، ولا ليرزقوه ولا لينفعوه ، ولا ليدفعوا عنه ، كما قال تعالى : (« ٥١ : ٥٦ » وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ « ٥٧ » مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ « ٥٨ » إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ) وقال تعالى : (« ١٧ : ١١١ » وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِى الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً) فهو سبحانه لايوالى من يواليه من الذل ، كما يوالى المخلوق المخلوق ، وإنما يوالى أولياءه إحسانا ورحمة ومحبة لهم . وأما العباد فإنهم كما قال تعالى (« ٤٧ : ٣٨ » وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ) فهم لفقرهم وحاجتهم إنما يُحسن بعضهم إلى بعض لحاجته إلى ذلك وانتفاعه به عاجلا أو آجلا . ولولا تصور ذلك النفع لما أحسن إليه . فهو فى الحقيقة إنما أراد الإحسان إلى نفسه ، وجعل إحسانه إلى غيره وسيلة وطريقا إلى وصول نفع ذلك الإحسان إليه . فإنه إما أن يحسن إليه لتوقع جزائه فى العاجل ، فهو محتاج إلى ذلك الجزاء ، أو معاوضة بإحسانه ، أو لتوقع حمده وشكره ، وهو أيضاً إنما يحسن إليه ليحصل منه ما هو محتاج إليه من الثناء والمدح ، فهو محسن إلى نفسه بإحسانه إلى الغير ، وإما أن يريد الجزاء من الله تعالى فى الآخرة ، فهو أيضاً محسن إلى نفسه بذلك ، وإنما أخر جزاءه إلى يوم فقره وفاقته ، فهوغير ملوم فى هذا القصد ، فإنه فقير محتاج ، وفقره وحاجته أمر لازم له من لوازم ذاته ، فكماله أن يحرص على ما ينفعه ولا يعجز عنه ، وقال تعالى : (« ١٧ : ٧ » إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ) ، وقال : (« ٢ : ٢٧٢ » وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ) ، وقال تعالى ، فيما رواه عنه رسوله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم : « يا عبادى إنكم لن تبلغوا نفعى فتنفعونى ، ولن تبلغوا ضرى فتضرونى ؛ ياعبادى ، إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ، ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غيرذلك فلا يلومنّ إلا نفسه[1] » .

---

(١) رواه مسلم والترمذى وابن ماجه عن أبى ذر رضى الله عنه فى حديثه الطويل .

فالمخلوق لا يقصد منفعتك بالقصد الأول ، بل إنما يقصد انتفاعه بك ، والرب تعالى إنما يريد نفعك لا انتفاعه به ، وذلك منفعة محضة لك خالصة من المضرة ، بخلاف إرادة المخلوق نفعك ، فإنه قد يكون فيه مضرة عليك ، ولو بتحمل مِنّته .

فتدبر هذا فإن ملاحظته تمنعك أن ترجو المخلوق أو تعامله دون الله عز وجل ، أو تطلب منه نفعاً ، أو دفعاً أو تعلق قلبك به ، فإنه إنما يريد انتفاعه بك لا محض نفعك ، وهذا حال الخلق كلهم بعضهم مع بعض ، وهو حال الولد مع والده ، والزوج مع زوجه . والمملوك مع سيده ، والشريك مع شريكه ، فالسعيد من عاملهم لله تعالى لا لهم ، وأحسن إليهم لله تعالى ، وخاف الله تعالى فيهم ، ولم يخفهم مع الله تعالى ، ورجا الله تعالى بالإحسان إليهم ، ولم يرجهم مع الله ، وأحبهم لحب الله ، ولم يحبهم مع الله تعالى ، كما قال أولياء الله عزّ وجل : (« ٧٦ : ٩ » إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا) .

الوجه التاسع : أن العبد المخلوق لا يعلم مصلحتك حتى يُعرّفه الله تعالى إياها ، ولا يقدر على تحصيلها لك ، حتى يقدره الله تعالى عليها ، ولا يريد ذلك حتى يخلق الله فيه إرادة ومشيئة . فعاد الأمر كله لمن ابتدأ منه ؛ وهو الذى بيده الخير كله ، وإليه يرجع الأمر كله ، فتعلق القلب بغيره رجاء وخوفاً وتوكلا وعبودية : ضرر محض ، لا منفعة فيه ، وما يحصل بذلك من المنفعة فهو سبحانه وحده الذى قدرها ويسرها وأوصلها إليك .

الوجه العاشر : أن غالب الخلق إنما يريدون قضاء حاجاتهم منك ، وإن أضر ذلك بدينك ودنياك ، فهم إنما غرضهم قضاء حوائجهم ولو بمضرتك ، والرب تبارك وتعالى إنما يريدك لك ، ويريد الإحسان إليك لك لا لمنفعته ، ويريد دفع الضرر عنك ، فكيف تعلق أملك ورجاءك ، وخوفك بغيره ؟ وجماع هذا أن تعلم « أن الخلق كلهم لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا كلهم على أن يضروك بشىء لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله تعالى عليك[1] » قال الله تعالى : (« ٩ : ٥١ » قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ) .

---

(١) رواه الترمذى من حديث ابن عباس فى الحديث الذى أوله « ياغلام احفظ الله يحفظك » .

خاتمة لهذا الباب

لما كان الإنسان ، بل وكل حى متحرك بالإرادة ، لا ينفك عن علم وإرادة وعمل بتلك الإرادة ، وله مراد مطلوب ، وطريق وسبب يوصل إليه ، معين عليه ، وتارة يكون السبب منه ، وتارة يكون من خارج منفصل عنه ، وتارة منه ومن الخارج ، فصار الحى مجبولا على أن يقصد شيئاً ويريده ، ويستعين بشىء ويعتمد عليه فى حصول مراده .

والمراد قسمان : أحدهما : ماهو مراد لنفسه . والثانى : ما هو مراد لغيره .

والمستعان قسمان ، أحدهما : ماهو مستعان بنفسه ، والثانى : ما هو تبع له وآلة .

فهذه أربعة أمور : مراد لنفسه ، ومراد لغيره ، ومستعان بنفسه ، ومستعان بكونه آلة ، وتبعاً للمستعان بنفسه .

فلا بد للقلب من مطلوب يطمئن إليه ، وتنتهى إليه محبته . ولابدّ له من شىء يتوصل به ، ويستعين به فى حصول مطلوبه ، والمستعان مدعو ومسئول ، والعبادة والاستعانة كثيراً ما يتلازمان ، فمن اعتمد القلب عليه فى رزقه ونصره ونفعه خضع له ، وذل له ، وانقاد له وأحبه من هذه الجهة ، وإن لم يحبه لذاته ، لكن قد يغلب عليه حكم الحال حتى يحبه لذاته ، وينسى مقصوده منه ، وأما من أحبه القلب وأراده وقصده فقد لا يستعين به ، ويستعين بغيره عليه ، كمن أحب مالاً أو منصباً أو امرأة ، فإن علم أن محبوبه قادر على تحصيل غرضه استعان به ، فاجتمع له محبته والاستعانة به .

فالأقسام أربعة : محبوب لنفسه وذاته ، مستعان بنفسه . فهذا أعلى الأقسام ، وليس ذلك إلا لله وحده . وكل ماسواه فإنما ينبغى أن يحب تبعا لمحبته ، ويستعان به لكونه آلة وسببا (الثانى) محبوب لغيره ومستعان به أيضا ، كالمحبوب الذى هو قادر على تحصيل غرض محبه (الثالث) محبوب مستعان عليه بغيره (الرابع) مستعان به غير محبوب فى نفسه .

فإذا عرف ذلك تبين مَنْ أحقُّ هذه الأقسام الأربعة بالعبودية والاستعانة ، وأن محبة غيره واستعانته به إن لم تكن وسيلة إلى محبته واستعانته ، وإلا كانت مضرة على العبد ، ومفسدتها أعظم من مصلحتها . والله المستعان وعليه التكلان .

الباب السابع

في أن القرآن متضمن لأدوية القلب ، وعلاجه من جميع أمراضه

قال الله عز وجل (« ١٠ : ٥٧ » يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ) وقال تعالى : (« ١٧ : ٨٢ » وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ) وقد تقدم أن جماع أمراض القلب هي أمراض الشبهات والشهوات . والقرآن شفاء للنوعين . ففيه من البينات والبراهين القطعية مايبين الحق من الباطل ، فتزول أمراض الشُّبه المفسدة للعلم والتصور والإدراك ، بحيث يرى الأشياء على ماهي عليه ، وليس تحت أديم السماء كتاب متضمن للبراهين والآيات على المطالب العالية : من التوحيد، وإثبات الصفات ، وإثبات المعاد والنبوّات ، ورد النِّحَل الباطلة والآراء الفاسدة ، مثل القرآن . فإنه كفيل بذلك كله ، متضمن له على أتمّ الوجوه وأحسنها ، وأقربها إلى العقول وأفصحها بيانا . فهو الشفاء على الحقيقة من أدواء الشبه والشكوك ؛ ولكن ذلك موقوف على فهمه ومعرفة المراد منه . فمن رزقه الله تعالى ذلك أبصر الحق والباطل عيانا بقلبه ، كما يرى الليل والنهار، وعلم أن ماعداه من كتب الناس وآرائهم ومعقولاتهم : بين علوم لاثقة بها ، وإنما هي آراء وتقليد ، وبين ظنون كاذبة لا تغني عن الحق شيئا ، وبين أمور صحيحة لا منفعة للقلب فيها ؛ وبين علوم صحيحة قد وعّروا الطريق إلى تحصيلها ، وأطالوا الكلام في إثباتها ، مع قلة نفعها . فهي « لحم جمل غثّ على رأس جبل وَعْر ، لا سهل فيُرتَقَى ، ولا سمين فينتقل[1] » . وأحسن ما عند المتكلمين وغيرهم فهو في القرآن أصح تقريراً وأحسن تفسيرا ، فليس عندهم إلا التكلف والتطويل والتعقيد ، كما قيل :

لولا التنافس في الدنيا لما وُضِعت ... كتب التناظر ، لا المغنى ولا العمد
يحللون بزعم منهم عقدا ... وبالذى وضعوه زادت العقد

(١) من وصف المرأة الأولى لزوجها في حديث أم زرع الذي رواه البخاري .

فهم يزعمون أنهم يدفعون بالذى وضعوه الشبه والشكوك ، والفاضل الذكى يعلم أن الشبه والشكوك زادت بذلك . ومن المحال أن لا يحصل الشفاء والهدى ؛ والعلم واليقين من كتاب الله تعالى وكلام رسوله ، ويحصل من كلام هؤلاء المتحيرين المتشككين الشاكين ، الذين أخبر الواقف على نهايات إقدامهم بما انتهى إليه من مرامهم ، حيث يقول[١] :

« نهاية إقدام العقول عِقال وأكثر سعى العالمين ضلال

وأرواحنا فى وحشة من جسومنا وحاصل دنيانا أذًى ووبال

ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

لقد تأملت الطرق الكلامية ، والمناهج الفلسفية ، فما رأيتها تشفى عليلا ، ولا تروى غليلا . ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن ، أقرأ فى الاثبات : (« ٢٠ : ٥ » الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ) : (« ٣٥ : ١٠ » إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ) وأقرأ فى النفى : (« ٤٢ : ١١ » لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) (« ٢٠:١١٠ » وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا) ومن جرّب مثل تجربتى عرف مثل معرفتى » .

فهذا إنشاده وألفاظه فى آخر كتبه . وهو أفضل أهل زمانه على الإطلاق فى علم الكلام والفلسفة ، وكلام أمثاله فى مثل ذلك كثير جدًا قد ذكرناه فى كتاب الصواعق[٢] وغيره . وذكرنا قول بعض العارفين بكلام هؤلاء « آخر أمر المتكلمين الشك ، وآخر أمر المتصوفين الشطح » والقرآن يوصلك إلى نفس اليقين فى هذه المطالب التى هى أعلى مطالب العباد ، ولذلك أنزله من تكلم به . وجعله شفاء لما فى الصدور ، وهدى ورحمة للمؤمنين .

وأما شفاؤه لمرض الشهوات فذلك بما فيه من الحكمة والموعظة الحسنة بالترغيب والترهيب ، والتزهيد فى الدنيا ، والترغيب فى الآخرة ، والأمثال والقصص التى فيها أنواع العبر والاستبصار ، فيرغب القلب السليم إذا أبصر ذلك فيما ينفعه فى معاشه ومعاده ، ويرغب عما يضره ، فيصير القلب محبًا للرشد ، مبغضا للغى . فالقرآن مزيل للإمراض الموجهة للارادات الفاسدة ، فيصلح القلب ، فتصلح إرادته ، ويعود إلى فطرته التى فطر عليها ، فتصلح أفعاله

---

(١) هو الفخر الرازى ، قال هذا فى غير موضع من كتبه . مثل كتاب أقسام اللذات .

(٢) كتاب الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة . أنفس وأقوى ما ألف فى هدم طواغيت اللاحدة ، والمتفلسفة والمفتونين بهم من المؤولين والمحرفين للنصوص . وقد طبع مختصره فى مكة المكرمة بأمر جلالة الملك العالم العادل الصالح المصلح عبد العزيز آل سعود ، أيده الله بنصره .

الاختيارية الكسبية ، كما يعود البدن بصحته وصلاحه إلى الحال الطبيعى ، فيصير بحيث لا يقبل إلا الحق ، كما أن الطفل لا يقبل إلا اللبن .

وعاد الفتى كالطفل ، ليس بقابل سوى المَحْضِ شيئا ، واستراحت عواذله[1]

فيتغذى القلب من الإيمان والقرآن بما يزكيه ويقويه ، ويؤيده ويفرحه ، ويسره وينشطه ، ويثبت ملكه ، كما يتغذى البدن بما ينميه ويقويه . وكل من القلب والبدن محتاج إلى أن يتربَّى فينمو ويزيد ، حتى يكمل ويصلح ، فكما أن البدن محتاج إلى أن يزكو بالأغذية المصلحة له والحِمْية عما يضره ، فلا ينمو إلا بإعطائه ما ينفعه ، ومنع ما يضره ، فكذلك القلب لا يزكو ولا ينمو ، ولا يتم صلاحه إلا بذلك ، ولا سبيل له إلى الوصول إلى ذلك إلا من القرآن ، وإن وصل إلى شىء منه من غيره فهو نزر يسير ، لا يحصل له به تمام المقصود ، وكذلك الزرع لا يتم إلا بهذين الأمرين ، فحينئذ يقال : زكا الزرع وكمل .

ولما كانت حياته ونعيمه لاتتم إلابزكاته وطهارته لم يكن بدٌّ من ذكر هذا وهذا ، فنقول :

الباب الثامن

فى زكاة القلب

الزكاة فى اللغة : هى النماء والزيادة فى الصلاح ، وكمال الشىء ، يقال : زكا الشىء إذا نما ، قال الله تعالى : (« ٩ : ١٠٣ » خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا) فجمع بين الأمرين : الطهارة والزكاة، لتلازمهما . فإن نجاسة الفواحش والمعاصى فى القلب بمنزلة الأخلاط الرديئة فى البدن ، وبمنزلة الدغَل فى الزرع ، وبمنزلة الخبث فى الذهب والفضة والنحاس والحديد ، فكما أن البدن إذا استفرغ من الأخلاط الرديئة تخلصت القوة الطبيعية منها فاستراحت ، فعملت عملها بلا معوق ولا ممانع ، فنما البدن ، فكذلك القلب إذا تخلص من الذنوب بالتوبة فقد استفرغ من تخليطه ، فتخلصت قوة القلب وإرادته للخير ، فاستراح

(١) المحض : اللبن الخالص

من تلك الجواذب الفاسدة والمواد الرديئة : زكا ونما ، وقوى واشتد ، وجلس على سرير ملكه ، ونفذ حكمه فى رعيته ، فسمعت له وأطاعت . فلا سبيل له إلى زكاته إلا بعد طهارته كما قال تعالى : (« ٢٤ : ٣٠ » قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ) فجعل الزكاة بعد غض البصر وحفظ الفرج.

ولهذا كان غض البصر عن المحارم يوجب ثلاث فوائد ، عظيمة الخطر جليلة القدر : إحداها : حلاوة الإيمان ولذته ، التى هى أحلى وأطيب وألذ مما صرف بصره عنه وتركه لله تعالى . فإن من ترك شيئاً لله عوضه الله عز وجل خيراً منه ، والنفس مولعة بحب النظر إلى الصور الجميلة ، والعين رائد القلب . فيبعث رائده لنظر ما هناك ، فإذا أخبره بحسن المنظور إليه وجماله ، تحرك اشتياقاً إليه ، وكثيراً ما يتعب ويتعب رسوله ورائده ؛ كما قيل :

وكنتَ متى أرسلت طرفَك رائدا لقلبك يوما أتعبتك المناظر
رأيت الذى لا كلَّه أنت قادر عليه ، ولا عن بعضه أنت صابر

فإذا كفَّ الرائد عن الكشف والمطالعة استراح القلب من كلفة الطلب والإرادة ، فمن أطلق لحظاته دامت حسراته . فإن النظر يولد المحبة . فتبدأ علاقة يتعلق بها القلب بالمنظور إليه . ثم تَقوى فتصير صبابة . ينصبُّ إليه القلب بكليته . ثم تقوى فتصير غراما يلزم القلب . كلزوم الغريم الذى لا يفارق غريمه . ثم يقوى فيصير عشقا . وهو الحب المفرط . ثم يقوى فيصير شغفا . وهو الحب الذى قد وصل إلى شَغاف القلب وداخله . ثم يقوى فيصير تَتيُّما . والتتيم التعبد ومنه تَيَّمه الحب إذا عَبَّده . وتَيم الله عبدالله . فيصير القلب عبدا لمن لا يصلح أن يكون هو عبدا له . وهذا كله جناية النظر . فحينئذ يقع القلب فى الأسر . فيصير أسيرا بعد أن كان ملكا ، ومسجونا بعد أن كان مطلقا . يتظلم من الطرف ويشكوه . والطرْف يقول : أنا رائدك ورسولك ، وأنت بعثتنى . وهذا إنما تبتلى به القلوب الفارغة من حب الله والإخلاص له ، فإن القلب لا بدله من التعلق بمحبوب . فمن لم يكن الله وحده محبوبه وإلهه ومعبوده فلا بد أن يتعبد قلبه لغيره . قال تعالى عن يوسف الصديق عليه السلام : (« ١٢ : ٢٤ » كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ) فامرأة العزيز لما كانت مشركة وقعت فيما وقعت فيه ، مع كونها ذات زوج ، ويوسف عليه السلام لما كان مخلصاً لله تعالى نجا من ذلك مع كونه شاباً عزَبا غريباً مملوكا .

(الفائدة الثانية) فى غض البصر : نور القلب وصحة الفراسة . قال ابو شجاع الكرمانى « من عمر ظاهره باتباع السنة ، وباطنه بدوام المراقبة ، وكف نفسه عن الشهوات ، وغض بصره عن المحارم ، واعتاد أكل الحلال لم تخطىء له فراسة » وقد ذكر الله سبحانه قصة قوم لوط وما ابتلوا به ، ثم قال بعد ذلك (« ١٥ : ٧٥ » إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ) ، وهم المتفرسون الذين سلموا من النظر المحرم والفاحشة ، وقال تعالى عقيب أمره للمؤمنين بغض أبصارهم وحفظ فروجهم (« ٢٤ : ٣٥ » اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) .

وسر هذا : أن الجزاء من جنس العمل . فمن غضّ بصره عما حرم الله عز وجل عليه عوضه الله تعالى من جنسه ما هو خير منه ؛ فكما أمسك نور بصره عن المحرمات أطلق الله نور بصيرته وقلبه ، فرأى به مالم يره من أطلق بصره ولم يغضه عن محارم الله تعالى . وهذا أمر يحسه الإنسان من نفسه . فإن القلب كالمرآة ، والهوى كالصدأ فيها . فإذا خلصت المرآة من الصدأ انطبعت فيها صور الحقائق كما هى عليه . وإذا صدئت لم تنطبع فيها صور المعلومات . فيكون علمه وكلامه من باب الخرص والظنون .

(الفائدة الثالثة) قوة القلب وثباته وشجاعته ، فيعطيه الله تعالى بقوته سلطان النصرة ، كما أعطاه بنوره سلطان الحجة ، فيجمع له بين السلطانين ، ويهرب الشيطان منه ، كما فى الأثر « إن الذى يخالف هواه يَفْرَق الشيطان من ظله » ولهذا يوجد فى المتبع هواه من ذل النفس وضعفها ومهانتها ما جعله الله لمن عصاه ، فإنه سبحانه جعل العز لمن أطاعه والذل لمن عصاه . قال تعالى : (« ٦٣ : ٨ » وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ) وقال تعالى : (« ٣ : ١٣٩ » وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) وقال تعالى : (« ٣٥ : ١٠ » مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا) أى من كان يطلب العزة فليطلبها بطاعة الله : بالكلم الطيب ، والعمل الصالح . وقال بعض السلف « الناس يطلبون العز بأبواب الملوك ولا يجدونه إلا فى طاعة الله » وقال الحسن « وإن هَمْلَجَتْ بهم البراذين ، وطَقْطَقَتْ بهم البغال إنّ ذل المعصية لفى قلوبهم ، أبى الله عز وجل إلا أن يُذِلّ من عصاه ، وذلك أن من أطاع الله تعالى فقد والاه . ولا يذل من والاه ربه ، كما فى دعاء القنوت « إنه لايذل من واليت ولا يعز من عاديت(١) » .

(١) دعاء القنوت رواه أحمد وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه من حديث الحسن بن علىّ رضى الله عنهما . قال الترمذى : هذا حديث لانعرفه إلا من هذا الوجه من حديث أبي الحوراء السعدى واسمه ربيعة ابن شيبان . ولا نعرف عن النبيّ صلى الله عليه وسلم فى القنوت شيئاً أحسن من هذا . اهـ وانظر التعليق على المنتقى (١ : ٥٣٤ رقم : ١٢١٣) .

والمقصود : أن زكاة القلب موقوفة على طهارته ، كما أن زكاة البدن موقوفة على استفراغه من أخلاطه الرديئة الفاسدة ، قال تعالى . (« ٢٤ : ٢١ » وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) ، ذكر ذلك سبحانه عقيب تحريم الزنا والقذف ونكاح الزانية ، فدل على أن التزكى هو باجتناب ذلك ،وكذلك قوله تعالى فى الاستئذان على أهل البيوت (« ٢٤:٢٨ » وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا فَٱرْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ) فإنهم إذا أمروا بالرجوع لئلا يطلعوا على عورة لم يحب صاحب المنزل أن يُطَّلَع عليها كان ذلك أزكى لهم ، كما أن ردّ البصر وغضّه أزكى لصاحبه ، وقال تعالى : (« ٨٧ : ١٤ » قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ « ١٥ » وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ) ، وقال تعالى عن موسى عليه السلام فى خطابه لفرعون (« ٧٩ : ١٨ » هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ؟) وقال تعالى: (« ٤١ : ٦ » وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ) ، قال أكثر المفسرين من السلف ومن بعدهم : هى التوحيد : شهادة أن لا إله إلا الله ، والإيمان الذى به يزكو القلب ، فإنه يتضمن نفى إلٰهية ما سوى الحق من القلب ، وذلك طهارته ، و إثبات إلٰهيته سبحانه ، وهوأصل كل زكاة ونماء ، فإن التزكى ــ و إن كان أصله النماء والزيادة والبركة ــ فإنه إنما يحصل بإزالة الشر . فلهذا صار التزكى ينتظم الأمرين جميعاً . فأصل ما تزكو به القلوب والأرواح : هو التوحيد ، والتزكية جعل الشىء زكيا ، إما فى ذاته ، و إما فى الاعتقاد والخبر عنه ، كما يقال : عدّلته وفسّقته ، إذا جعلته كذلك فى الخارج ، أو فى الاعتقاد والخبر ، وعلى هذا قوله تعالى : (« ٥٣ : ٣٢ » فَلَا تُزَكُّوٓا أَنفُسَكُمْ) هو على غير معنى : (« ٩١ : ٩ » قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا) أى لا تخبروا بزكاتها وتقولوا : نحن زاكون صالحون متّقون ، ولهذا قال عقيب ذلك : (« ٣٣ » هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ) . وكان اسم « زينب » « برّة » فقال « تزكى نفسها » فسماها رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم « زينب[1] » وقال: «الله أعلم بأهل البر منكم » وكذلك قوله : (« ٤ : ٤٩ »

---

(١) هى زينب بنت جحش ، أمها أميمة بنت عبد المطلب عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهى التى أنزل الله فى شأنها وشأن زوجها زيد بن حارثة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم الآيات من سورة الأحزاب ٣٦ــ٤٠ .

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ) أى يعتقدون زكاءها ويخبرون به ، كما يزكى المزكى الشاهد ، فيقول عن نفسه ما يقول المزكِّى فيه ، ثم قال الله تعالى : (بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ) أى هو الذى يجعله زاكياً ، ويخبر بزكاته ، وهذا بخلاف قوله : (« ٩١ : ٩ » قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا) فإنه من باب قوله : (« ٧٩ : ١٨ » هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى ؟) أى تعمل بطاعة الله تعالى ، فتصير زاكياً ، ومثله قوله : (« ٨٧ : ١٤ » قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى) .

وقد اختلف فى الضمير المرفوع فى قوله : (زكاها) فقيل : هو لله . أى أفلحت نفس زكاها الله عز وجل ، وخابت نفس دسَّاها ، وقيل : إن الضمير يعود على فاعل (أفلح) ، وهو « مَن » سواء كانت موصولة أو موصوفة ، فإن الضمير لو عاد على الله سبحانه لقال : قد أفلح من زكاه وقد خاب من دسّاه . والأولون يقولون « من » و إن كان لفظها مذكراً فإذا وقعت على مؤنث جاز إعادة الضمير عليها بلفظ المؤنث ، مراعاة للمعنى ، و بلفظ المذكر مراعاة للفظ ، وكلاهما من الـكلام الفصيح ، وقد وقع فى القرآن اعتبار لفظها ومعناها ، فالأول كقوله : « ٦ : ٢٥ » وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ) فأفرد الضمير ، والثانى كقوله : (« ١٠ : ٤٢ » وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ) .

قال المرجحون للقول الأول: يدل على صحة قولنا : مارواه أهل السنن من حديث ابن أبى مُليكة عن عائشة رضى الله عنها قالت «أتيت ليلة ، فوجدت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ربِّ أعطِ نفسى تقواها ، وزَكِّها ، أنت خير من زكَّاها ، أنت وليها ومولاها» فهذا الدعاء كالتفسير لهذه الآية ، وأن الله تعالى هو الذى يزكى النفوس فتصير زاكية ، فالله هو المزكى ، والعبد هو المتزكى . والفرق بينهما فرق مابين الفاعل والمطاوع ، قالوا : والذى جاء فى القرآن من إضافة الزكاة إلى العبد إنما هو بالمعنى الثانى، دون الأول . كقوله : (« ٨٧ : ١٤ » قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى) وقوله : (« ٧٩ : ١٨ » هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى ؟) أى تقبل تزكية الله تعالى لك ، فتزكَّى ؟ قالوا : وهذا هو الحق . فإنه لايفلح إلا من زكّاه الله تعالى . قالوا : وهذا اختيار ترجمان القرآن ابن عباس ، فإنه قال فى رواية على بن أبى طلحة وعطاء والكلبى « قد أفلح من زكى الله تعالى نفسه[1] » وقال ابن زيد « قد أفلح من زكى الله نفسه »

(١) رواه ابن جرير الطبرى وابن كثير . وقال ابن كثير عن ابن أبى حاتم عن جويبر عن الضحاك عن

واختاره ابن جرير . قالوا : ويشهد لهذا القول أيضاً قوله فى أول السورة (« ٩١ : ٨ » فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا) . قالوا : وأيضاً فإنه سبحانه وتعالى أخبر أنه خالق النفس وصفاتها . وذلك هو معنى التسوية .

قال أصحاب القول الآخر : ظاهر الكلام ونظمه الصحيح : يقتضى أن يعود الضمير على « من » أى أفلح من زكى نفسه . هذا هو المفهوم المتبادر إلى الفهم ، بل لا يكاد يفهم غيره ، كما إذا قلت : هذه جارية قد ربح من اشتراها . وصلاة قد سعد من صلاها ، وضالة قد خاب من آواها . ونظائر ذلك .

قالوا : والنفس مؤنثة ، فلو عاد الضمير على الله سبحانه لكان وجه الكلام : قد أفلحت نفس زكاها ، أو أفلحت من زكاها ، لوقوع « مَن » على النفس . قالوا : وإن جاز تفريغ الفعل من التاء لأجل لفظ « مَن » كما تقول قد أفلح من قامت منكن ، فذاك حيث لا يقع اشتباه والتباس . فإذا وقع الاشتباه لم يكن بدٌّ من ذكر مايزيله .

قالوا : و « مَن » موصولة بمعنى الذى . ولو قيل : قد أفلح الذى زكاها الله لم يكن جائزا ، لعود الضمير المؤنث على الذى . وهو مذكر . قالوا : وهو سبحانه قصد نسبة الفلاح إلى صاحب النفس إذا زكى نفسه . ولهذا فرغ الفعل من التاء ، وأتى بـ « مَن » التى هى بمعنى الذى . وهذا الذى عليه جمهور المفسرين ، حتى أصحاب ابن عباس رضى الله عنهما . وقال قتادة : (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا) « مَنْ عمل خيراً زكاها بطاعة الله عز وجل » وقال أيضاً : « قد أفلح من زكى نفسه بعمل صالح » وقال الحسن : « قد أفلح من زكى نفسه فأصلحها وحملها على طاعة الله تعالى ، وقد خاب من أهلكها وحملها على معصية الله تعالى » قال ابن قُتيبة : « يريد أفلح من زكى نفسه ، أى نماها وأعلاها بالطاعة والبِرِّ والصدقة ، واصطناع المعروف (وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا) أى نقصها وأخفاها بترك عمل البر وركوب المعاصى » . والفاجر أبدا خفى المكان ، زَمِن المروءة ، غامض الشخص ، ناكس الرأس . فمرتكب الفواحش قد دس نفسه وقمعها ، ومصطنع المعروف قد شهر نفسه ورفعها . وكانت أجواد العرب تنزل الرُّبَى ويَفَاع الأرض

ابن عباس قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى قول الله عزّ وجل قد أفلح من زكاها) قال النبىّ صلى الله عليه وسلم « أفلحت نفس زكاها الله عزّ وجلّ » ورواه ابن أبى حاتم من حديث أبى مالك به . وجويبر هذا هو ابن سعيد متروك . والضحاك لم يلق

لتشهر أماكنها للمُعْتفين . وتوقد النيران فى الليل للطارقين . وكانت اللئام تنزل الأوْلاج والأطراف والأهضام[1] ، لتخفى أماكنها على الطالبين ، فأولئك أعلوا أنفسهم وزكوها ، وهؤلاء أخفوا أنفسهم ودسوها . وأنشد :

وبوابَ بيتك فى معلم رحيب المباءة والمسرح
كفيتَ العُفاةَ طِلابَ القِرَى ونبحَ الكلاب لمستنبح

فهذان قولان مشهوران فى الآية .

وفيها قول ثالث : أن المعنى : خاب من دس نفسه مع الصالحين وليس منهم ، حكاه الواحدى ، قال : ومعنى هذا : أنه أخفى نفسه فى الصالحين ، يُرِى الناس أنه منهم وهو منطوٍ على غير ماينطوى عليه الصالحون .

وهذا — وإن كان حقا فى نفسه — لكن فى كونه هو المراد بالآية نظر ، وإنما يدخل فى الآية بطريق العموم . فإن الذى يدس نفسه بالفجور إذا خالط أهل الخير دس نفسه فيهم . والله تعالى أعلم .

الباب التاسع

فى طهارة القلب من أدرانه وأنجاسه

هذا الباب ، وإن كان داخلا فيما قبله ، كما بينا أن الزكاة لا تحصل إلا بالطهارة ، ولكنا أفردناه بالذكر لبيان معنى طهارته ، وشدة الحاجة إليها ، ودلالة القرآن والسنة عليها . قال الله تعالى (« ٧٤ : ١ » يٰأَيُّها الْمُدَّثِّرُ «٢» قُمْ فَأَنْذِرْ «٣» وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ «٤» وَثِيابَكَ فَطَهِّرْ) وقال تعالى : (« ٥ : ٤١ » أُولٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ . لَهُمْ فِى الدُّنْيا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى الآخِرَةِ عَذابٌ عَظِيمٌ) وجمهور المفسرين من السلف ومن بعدهم على أن المراد بالثياب ههنا القلب ، والمراد بالطهارة إصلاح الأعمال والأخلاق .

(١) الرابية : ما ارتفع من الأرض . و « يفاع » كسحاب : التل . والمعتفى : الضيف ، وكل طالب فضل أو رزق . والولجة — بفتح اللام — : كهف يستتر فيه المارة من مطر وغيره ، والهضمة بفتح الهاء وكسرها — المطمئن من الأرض وبطن الوادى .

قال الواحدى : اختلف المفسرون فى معناه ، فروى عطاء عن ابن عباس رضى الله عنهما قال « يعنى من الإثم ، ومما كانت الجاهلية تجيزه » وهذا قول قتادة ومجاهد ، قالا « نفسك فطهرها من الذنب » ونحوه قول الشَّعْبى وإبراهيم والضحاك والزُّهْرِى . وعلى هذا القول : « الثياب » عبارة عن النفس ، والعرب تَكْنِى بالثياب عن النفس . ومنه قول الشَّمَّاخ :

رموها بأثواب خفاف ، فلا ترى   لها شَبها إلا النعام المُنَفَّرا

رموها يعنى الركاب[1] بأبدانهم . وقال عنترة :

فشككتُ بالرمح الأصمّ ثيابه   ليس الكريم على القَنَى بمُحَرَّم

يعنى نفسه .

وقال فى رواية الكلبى : يعنى لا تغدر ، فتكون غادرا دنس الثياب . وقال سعيد بن جبير : « كان الرجل إذا كان غادراً قيل: دنس الثياب ، وخبيث الثياب » وقال عكرمة : « لا تلبس ثوبك على معصية ، ولا على فُجْرَة » وروى ذلك عن ابن عباس ، واحتج بقول الشاعر :

وإنى بحمد الله لا ثوب غادر   لبست ، ولا من خِزية أتقنع[2]

وهذا المعنى أراد من قال فى هذه الآية « وعملك فأصلح » وهو قول أبى رزين ورواية منصور عن مجاهد وأبى رَوْق ، وقال السُّدى : « يقال للرجل إذا كان صالحاً : إنه لطاهر الثياب ، وإذا كان فاجراً : إنه لخبيث الثياب » قال الشاعر :

لَا هُمَّ إنَّ عامرَ بنَ جَهْمِ   أَوْذَمَ حَجًّا فى ثِيَابٍ دُسْمِ[3]

يعنى أنه متدنس بالخطايا ، وكما وصفوا الغادر الفاجر بدنس الثوب وصفوا الصالح بطهارة الثوب ، قال امرؤ القيس :

* ثيابُ بَنِى عَوف طهارَى نَقيَّة *

يريد أنهم لا يغدرون ، بل يفون ، وقال الحسن : « خُلُقك فحسنهُ » . وهذا قول القرطبى ، وعلى هذا : الثياب عبارة عن الخلق ، لأن خلق الإنسان يشتمل على أحواله اشتمال ثيابه على نفسه .

---

(١) وفى نسخة « يعنى الإبل » .

(٢) الذى فى تفسير ابن جرير « ولا من غدرة أتصنع » وسمى الشاعر : غيلان بن سلمة .

(٣) أو ذم الحج : أوجبه على نفسه . والدسم: جمع دسم ، أى دلس، يقول: أحرم بالحج وهو متلطخ بالذنوب.

وروى العَوفى عن ابن عباس فى هذه الآية « لا تكن ثيابك التى تلبس من مكسب غير طيب » والمعنى طهرها من أن تكون مغصوبة ، أو من وجه لا يحل اتخاذها منه ، وروى عن سعيد بن جبير : « وقلبك . ونيتك فطهر » وقال أبو العباس : الثياب اللباس ، ويقال : القلب ، وعلى هذا ينشد :

* فسُلِّى ثيابى من ثيابك تَنْسلى[1] *

وذهب بعضهم فى تفسير هذه الآية إلى ظاهرها ، وقال : إنه أمر بتطهير ثيابه من النجاسات التى لا تجوز معها الصلاة ، وهوقول ابن سيرين ، وابن زيد . وذكر أبو إسحاق : « وثيابك فقصر » ، قال : لأن تقصير الثوب أبعد من النجاسة ، فإنه إذا انجرّ على الأرض لم يُؤْمَنْ أن يصيبه ما ينجسه ، وهذا قول طاوس. وقال ابن عرفة « معناه : نساءك طهرهن » وقد يكنى عن النساء بالثياب واللباس قال تعالى : (« ٢ : ١٨٧ » أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ) ، ويكنى عنهن بالإزار ، ومنه قول الشاعر :

ألا أبلغ أبا حَفْصٍ رسولا فِدًى لك من أخى ثقةٍ : إزارى

أى أهلى ، ومنه قول البراء بن مَعْرور للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ليلة العَقَبة ، « لَنَمْنَعَنَّكَ مِمَّا نَمْنَعُ منهُ أُزُرَنا[2] » أى نساءنا

قلت : الآية تعمُّ هذا كله ، وتدل عليه بطريق التنبيه واللزوم ، إن لم تتناول ذلك لفظاً فإن المـأمور به إن كان طهارة القلب ، فطهارة الثوب وطيب مكسبه تكميل لذلك ، فإن خبث الملبس يُكسبُ القلب هَيْئةً خبيثة ، كما أن خبث المطعم يكسبه ذلك ، ولذلك حرم لبس جلود النُّمور والسِّباع بنهى النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم عن ذلك فى عدة أحاديث صحاح[3] لا معارض لها ، لما تُكسب القلب من الهيئة المشابهة لتلك الحيوانات ، فإن الملابسة

---

(١) السل : انتزاع الشىء وإخراجه فى رفق . والشعر لامرئ القيس .

(٢) رواه ابن إسحاق فى السيرة عن كعب بن مالك فى حديث بيعة العقبة الطويل .

(٣) روى أحمد وأبو داود والنسائى عن أبى المليح بن أسامة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم « نهى عن جلود السباع » ورواه الترمذى وزاد « أن تفرش » وروى أحمد وأبو داود عن معاوية « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن جلود النمور ، أن يركب عليها » وروى أبو داود والنسائى عن معاوية « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن لبس جلود السباع والركوب عليها » .

الظاهرة تسرى إلى الباطن ، ولذلك حرم لبس الحرير والذهب على الذكور[1] لما يكتسب القلب من الهيئة التى تكون لمن ذلك لبسه من النساء وأهل الفخر والخيلاء .

والمقصود : أن طهارة الثوب وكونه من مكسب طيب هو من تمام طهارة القلب وكمالها ، فإن كان المأمور به ذلك فهو وسيلة مقصودة لغيرها ، فالمقصود لنفسه أولى أن يكون مأموراً به وإن كان المأمور به طهارة القلب وتزكية النفس ، فلا يتم إلا بذلك ، فتبين دلالة القرآن على هذا وهذا .

وقوله : (« ٥ : ٤١ » أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ) عقيب قوله : (سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ) مما يدل على أن العبد إذا اعتاد سماع الباطل وقبوله أكسبه ذلك تحريفاً للحق عن مواضعه ، فإنه إذا قبل الباطل أحبه ورضيه ، فإذا جاء الحق بخلافه ردّه وكذبه إن قدر على ذلك ، وإلا حرّفه ، كما تصنع الجَهْمية بآيات الصفات وأحاديثها ، يردُّون هذه بالتأويل الذى هو تكذيب بحقائقها ،وهذه بكونها أخبارآحاد لا يجوز الاعتماد عليها فى باب معرفة الله تعالى وأسمائه وصفاته . فهؤلاء وإخوانهم من الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم ، فإنها لو طهرت لما أعرضت عن الحق ، وتعوضت بالباطل عن كلام الله تعالى ورسوله ، كما أن المنحرفين من أهل الإرادة لما لم تطهر قلوبهم تعوضوا بالسماع الشيطانى عن السماع القرآنى الإيمانى . قال عثمان بن عفان رضى الله عنه : « لو طهرت قلوبنا لما شبعت من كلام الله » .

فالقلب الطاهر ــ لكمال حياته ونوره وتخلصه من الأدران والخبائث ــ لا يشبع من القرآن ، ولا يتغذى إلا بحقائقه . ولا يتداوى إلا بأدويته ، بخلاف القلب الذى لم يطهره الله تعالى ، فإنه يتغذى من الأغذية التى تناسبه ، بحسب مافيه من النجاسة . فإن القلب النجس كالبدن العليل المريض ، لا تلائمه الأغذية التى تلائم الصحيح .

ودلت الآية على أن طهارة القلب موقوفة على إرادة الله تعالى ، وأنه سبحانه لما لم يرد أن يطهر قلوب القائلين بالباطل ، المحرفين للحق ، لم يحصل لها الطهارة .

---

(١) روى البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « لاتلبس الحرير فإن من لبسه فى الدنيا لم يلبسه فى الآخرة » وكذلك روياه من حديث أنس بلفظ « فلن يلبسه فى الآخرة » .

ولا يصح أن تفسر الإرادة ههنا بالإرادة الدينية ، وهى الأمر والمحبة ، فانه سبحانه قد أراد ذلك لهم أمراً ومحبة ، ولم يرده منهم كونا . فأراد الطهارة لهم وأمرهم بها ، ولم يرد وقوعها منهم ، لما له فى ذلك من الحكمة التى فواتها أكره إليه من فوات الطهارة منهم .

وقد أشبعنا الكلام فى ذلك فى كتابنا الكبير فى القدر[1] .

ودلت الآية على أن من لم يطهر الله قلبه فلا بد أن يناله الخزى فى الدنيا والعذاب فى الآخرة ، بحسب نجاسة قلبه وخبثه . ولهذا حرّم الله سبحانه الجنة على من فى قلبه نجاسة وخبث ، ولا يدخلها إلا بعد طيبه وطهره . فإنها دار الطيبين . ولهذا يقال لهم (« ٣٩ : ٧٣ » طِبْتُمْ فَادْخُلُوها خَالِدِينَ) أى ادخلوها بسبب طيبكم . والبشارة عند الموت لهؤلاء دون غيرهم ، كما قال تعالى : (« ١٦ : ٣٢ » الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) فالجنة لايدخلها خبيث ، ولا من فيه شىء من الخبث . فمن تطهر فى الدنيا ولقى الله طاهراً من نجاساته دخلها بغير معوق ، ومن لم يتطهر فى الدنيا فإن كانت نجاسته عينية ، كالكافر ، لم يدخلها بحال . و إن كانت نجاسته كسبية عارضة دخلها بعدما يتطهر فى النار من تلك النجاسة ، ثم لايخرج منها ، حتى إن أهل الإيمان إذا جازوا الصراط حُبِسوا على قنطرة بين الجنة والنار ، فيُهَذَّبون و يُنَقَّون من بقايا بقيت عليهم ، قَصَّرت بهم عن الجنة ، ولم توجب لهم دخول النار ، حتى إذا هُذِّبوا ونُقُّوا أُذِن لهم فى دخول الجنة .

والله سبحانه بحكمته جعل الدخول عليه موقوفا على الطهارة ، فلا يدخل المصلى عليه حتى يتطهر . وكذلك جعل الدخول إلى جنته موقوفا على الطيب والطهارة ، فلا يدخلها إلا طيب طاهر . فهما طهارتان : طهارة البدن ، وطهارة القلب . ولهذا شرع للمتوضىء أن يقول عقيب وضوئه « أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله . اللهم اجعلنى من التوّابين واجعلنى من المتطهرين[2] » فطهارة القلب بالتوبة ، وطهارة البدن بالماء . فلما اجتمع له الطهران صلح للدخول على الله تعالى ، والوقوف بين يديه ومناجاته .

---

(١) هو كتاب شفاء العليل فى القضاء والقدر والتعليل . طبعه السيد أمين الخانجى سنة ١٣٢٠ .

(٢) روى الإمام أحمد ومسلم وأبوداود والترمذى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما منكم من أحد يتوضأ فيسبغ الوضوء ثم يقول : أشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء » وزاد الترمذى « اللهم اجعلنى من التوابين واجعلنى من المتطهرين » .

وسألت شيخ الإسلام[١] عن معنى دعاء النبي صلى الله عليه وسلم « اللهمّ طهرنى من خطاياى بالماء والثّلج والبَرَد[٢] » كيف يطهر الخطايا بذلك ؟ وما فائدة التخصيص بذلك ؟ وقوله فى لفظ آخر « والماء البارد » والحارّ أبلغ فى الإنقاء ؟

فقال : الخطايا توجب للقلب حرارة ونجاسة وضعفا ، فيرتخى القلب وتضطرم فيه نار الشهوة وتنجسه ، فإن الخطايا والذنوب له بمنزلة الحطب الذى يمد النار و يوقدها ، ولهذا كلما كثرت الخطايا اشتدت نار القلب وضعفه ، والماء يغسل الخبث و يطفىء النار ، فإن كان بارداً أورث الجسم صلابة وقوة ، فإن كان معه ثلج و برد كان أقوى فى التبريد وصلابة الجسم وشدته ، فكان أذهب لأثر الخطايا . هذا معنى كلامه ، وهو محتاج إلى مزيد بيان وشرح .

فاعلم أن ههنا أربعة أمور : أمران حسيان ، وأمران معنويان . فالنجاسة التى تزول بالماء هى ومزيلها حسيان ، وأثر الخطايا التى تزول بالتوبة والاستغفار هى ومزيلها معنويان ، وصلاح القلب وحياته ونعيمه لا يتم إلا بهذا وهذا . فذكر النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم من كل شطر قسما نبّه بِهِ على القسم الآخر . فتضمن كلامه الأقسام الأربعة فى غاية الاختصار ، وحسن البيان . كما فى حديث الدعاء بعد الوضوء « اللهم اجعلنى من التوابين واجعلنى مِن المتطهرين » فإنه يتضمن ذكر الأقسام الأربعة . ومن كمال بيانه صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ، وتحقيقه لما يخبر به ، ويأمر به : تمثيله الأمر المطلوب المعنوى بالأمر المحسوس . وهذا كثير فى كلامه ، كقوله فى حديث على بن أبى طالب « سل الله الهدى والسداد ، واذكر بالهدى هدايتك الطريق ، وبالسداد سَداد السّهم » إذ هذا من أبلغ التعليم والنصح ، حيث أمره أن يذكر إذا سأل الله الهدى إلى طريق رضاه وجنته : كونه مسافراً ، وقد ضل عن الطريق ، ولا يدرى أين يتوجه ، فطلع له رجل خبير بالطريق عالم بها ، فسأله أن يدله على

---

(١) هو شيخ الإسلام تقى الدين إمام عصره وحجة الله على خلقه القائم لله بالدعوة جاهداً مجاهداً صابراً محتسباً : أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحرانى المولود سنة ٦٦١ هـ والمتوفى بقلعة دمشق محبوساً ظلما لقوله الحق إرضاء لله ، وإغضابا لأئمة البدعة فى سنة ٧٢٨ هـ .

(٢) روى الإمام أحمد ومالك فى الموطأ والبخارى ومسلم وأصحاب السنن ، إلا الترمذى ، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كبر فى الصلاة سكت هنيهة ، قبل القراءة ، فقلت : يارسول الله ، بأبى أنت وأمى ، أرأيت سكوتك بين التكبير والقراءة ماتقول ؟ قال : أقول : اللهم باعد بينى وبين خطاياى كما باعدت بين المشرق والمغرب . اللهم نقنى من خطاياى كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس اللهم اغسلنى من خطاياى بالماء والثلج والبرد » .

الطريق ، فهكذا شأن طريق الآخرة ، تمثيلا لها بالطريق المحسوس للمسافر . وحاجة المسافر إلى الله سبحانه : إلى أن يهديه تلك الطريق ، أعظم من حاجة المسافر إلى بلد إلى من يدله على الطريق الموصل إليها . وكذلك السداد ـ وهو إصابة القصد قولا وعملا ـ فمثله مثل رامى السهم ، إذا وقع سهمه فى نفس الشيء الذى رماه ، فقد سدد سهمه وأصاب ، ولم يقع باطلا ، فهكذا المصيب للحق فى قوله وعمله بمنزلة المصيب فى رميه . وكثيرا ما يقرن فى القرآن هذا وهذا . فمنه قوله تعالى : (« ٢ : ١٩٧ » وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى) أمر الحاج بأن يتزودوا لسفرهم، ولا يسافروا بغير زاد . ثم نبههم على زاد سفرالآخرة ، وهو التقوى . فكما أنه لا يصل المسافر إلى مقصده إلا بزاد يُبلغه إياه ، فكذلك المسافر إلى الله تعالى والدار الآخرة لا يصل إلا بزاد من التقوى ، فجمع بين الزادين ، ومنه قوله تعالى : (« ٧ : ٢٦ » يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَٰلِكَ خَيْرٌ) فجمع بين الزينتين : زينة البدن باللباس ، وزينة القلب بالتقوى ،زينة الظاهر والباطن ، وكمال الظاهر والباطن ،ومنه قوله تعالى : (« ٢٠ : ١٢٣ » فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى) فنفى عنه الضلال ، الذى هو عذاب القلب والروح ، والشقاء الذى هو عذاب البدن والروح أيضاً ، فهو منعَّم القلب والبدن بالهدى والفلاح ، ومنه قول امرأةُ العزيز عن يوسف عليه السلام لما أرتهُ النسوة اللائمات لها فى حبه : (« ١٢ : ٣٢ » فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ) ، فأرتهن جماله الظاهر . ثم قالت : (وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ) فأخبرت عن جماله الباطن بعفته ، فأخبرتهن بجمال باطنه ، وأرتهن جمال ظاهره .

فنبه صلى الله تعالى عليه وآله وسلم بقوله « اللهم طهرنى من خطاياى بالماء والثلج والبرد» على شدة حاجة البدن والقلب إلى ما يطهرهما و يبردهما و يقويهما ، وتضمن دعاؤه سؤال هذا وهذا، والله تعالى أعلم .

وقريب من هذا : أنه صلى الله تعالى عليه وآله وسلم « كان إذا خرج من الخلاء قال : غفرانك[1] » وفى هذا من السر ـ والله أعلم ـ :أن النَّجْوَ يُثقل البدن و يؤذيه باحتباسه ،والذنوب تثقل القلب وتؤذيه باحتباسها فيه ، فهما مؤذيان مضران بالبدن والقلب ، فحمد الله عند خروجه

(١) رواه أحمد وأبو داود والترمذى وابن ماجه عن عائشة رضى الله عنها .

على خلاصه من هذا المؤذى لبدنه ، وخفة البدن وراحته ، وسأل أن يخلصه من المؤذى الآخر ويريح قلبه منه و يخففه .

وأسرار كلماته وأدعيته صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فوق ما يخطر بالبال .

فصل فيما فى الشرك والزنا واللواطة من الخبث

وقد وسم الله سبحانه الشرك والزنا واللواطة بالنجاسة والخبث فى كتابه دون سائر الذنوب و إن كانت مشتملة على ذلك ، لكن الذى وقع فى القرآن قوله تعالى : (« ٩ : ٢٨ » يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ) ، وقوله تعالى فى حق اللوطية : (« ٢١ : ٧٤ » وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ) ، وقالت اللوطية : (« ٢٧ : ٥٦ » أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ) فأقروا مع شركهم وكفرهم أنهم هم الأخابث الأنجاس ، وأن لوطاً وآله مطهرون من ذلك باجتنابهم له ، وقال تعالى فى حق الزناة : (« ٢٤ : ٢٦ » الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ) .

فأما نجاسة الشرك فهى نوعان : نجاسة مغلظة ، ونجاسة مخففة ، فالمغلظة : الشرك الأكبر الذى لا يغفره الله عز وجل ، فإن الله لا يغفر أن يشرك به ، والمخففة : الشرك الأصغر ؛ كيسير الرياء ، والتصنع للمخلوق ، والحلف به[1] وخوفه ورجائه . ونجاسة الشرك عينية . ولهذا جعل سبحانه الشرك نَجَسا ـ بفتح الجيم ـ ولم يقل : إنما المشركون نجِس ـ بالكسر ـ فإن النجَس عين النجاسة ، والنجِس ـ بالكسر ـ هو المتنجس . فالثوب إذا أصابه بول أو خمر نجس[2] . والبول والخمر نجَس . فأنجس النجاسة الشرك ، كما أنه أظلم الظلم . فان النجَس فى اللغة والشرع هو المستقذر الذى يطلب مباعدته والبعد منه ، بحيث لا يلمس ولا يشم ولا يرى ،

---

(١) هذا إذا لم يكن على سبيل التعظيم والخوف منه ، كما يحلف أكثر العامة بالأولياء والأنبياء إذ أرادوا عدم الحنث ويحلفون بالله كذبا من غير خوف منه ولا رهبة .

(٢) الخمر رجس . وليست بنجس . والأدلة لا تنهض على تنجسها . وإنما هى صريحة فى تشديد التحريم بالانتفاع بها على أى وجه ، وأن الواجب التباعد منها وإراقتها .

فضلا أن يخالط ويلابس لقذارته ، ونُفْرة الطباع السليمة عنه . وكلما كان الحى أكمل حياة وأصح حياء كان إبعاده لذلك أعظم ، ونفرته منه أقوى .

فالأعيان النجسة إما أن تؤذى البدن أو القلب ، أو تؤذيهما معا . والنجَس قد يؤذى برائحته ، وقد يؤذى بملابسته ، و إن لم تكن له رائحة كريهة .

والمقصود : أن النجاسة تارة تكون محسوسة ظاهرة ، وتارة تكون معنوية باطنة ، فيغلب على الروح والقلب الخبث والنجاسة ، حتى إن صاحب القلب الحى ليشم من تلك الروح والقلب رائحة خبيثة يتأذى بها ، كما يتأذى من شم رائحة النَّتْن ، و يظهر ذلك كثيرا فى عرَقه ، حتى ليوجدلرائحة عرقه نتنا . فإن نَتْن الروح والقلب يتصل بباطن البدن أكثرمن ظاهره . والعرَق يفيض من الباطن ، ولهذا كان الرجل الصالح طيب العرق . وكان رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم أطيب الناس عرقا . قالت أم سُلَيم ، وقد سألها رسول الله عليه الصلاة والسلام عنه وهى تلتقطه « هو من أطيب الطيب [1] » فالنفس النجسة الخبيثة يقوى خبثها ونجاستها حتى يبدو على الجسد . والنفس الطيبة بضدها ، فإذا تجردت وخرجت من البدن وجد لهذه كأطيب نَفْحَة مسك وُجدت على وجه الأرض ، ولتلك كأنتن ريح جِيفة وجدت على وجه الأرض [2] .

والمقصود: أن الشرك لما كان أظلم الظلم ، وأقبح القبائح ، وأنكر المنكرات ، كان أبغض الأشياء إلى الله تعالى وأكرهها له ، وأشدها مَقتا لديه . ورتَّب عليه من عقوبات الدنيا والآخرة مالم يرتبه على ذنب سواه ، وأخبر أنه لا يغفره ، وأن أهله نجَس ، ومنعهم من قربان حرمه ، وحرّم ذبائحهم ومنا كحتهم ، وقطع الموالاة بينهم و بين المؤمنين ، وجعلهم أعداء له سبحانه وللملائكته ورسله وللمؤمنين ، وأباح لأهل التوحيد أموالهم ونساءهم وأبناءهم ، وأن يتخذوهم عبيداً ، وهذا لأن الشرك هَضْم لحق الربوبية ، وتنقيص لعظمة الألهية ، وسوء ظن

---

(١) رواه مسلم عن ثابت عن أنس بن مالك . وروى البخارى عن أنس « أن أم سليم كانت تبسط للنبىّ صلى الله عليه وسلم نطعا . فيقيل عندها على ذلك النطع . فإذا قام أخذت من عرقه وشعره فجمعته فى قارورة ثم جعلته فى سكة قال . فلما حضرت أنس بن مالك الوفاة أوصى أن يجعل فى حنوطه » انظر المنتقى (١ : ٣١ رقم ٧٢) .

(٢) كما جاء ذلك فى حديث البراء بن عازب رضى الله عنه فى قبض روح المؤمن والكافر . رواه الإمام أحمد باسناد رواته محتج بهم فى الصحيح .

برب العالمين ، كما قال تعالى : (« ٤٨ : ٦ » وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً) ، فلم يجمع على أحد من الوعيد والعقوبة ما جمع على أهل الشرك ، فإنهم ظنوا به ظن السوء ، حتى أشركوا به ، ولو أحسنوا به الظن لوحّدوه حق توحيده ، ولهذا أخبر سبحانه عن المشركين أنهم ما قَدَروه حق قدره فى ثلاث مواضع من كتابه[1] وكيف يقدره حق قدره من جعل له عَدْلاً ونِدًّا ، يحبه ، ويخافه ، ويرجوه ، ويذل له ، ويخضع له ، ويهرب من سخطه ، ويؤثر مرضاته ؟ قال تعالى : (« ٢ : ١٦٥ » وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ) وقال تعالى : (« ٦ : ١ » الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ) أى يجعلون له عَدْلا فى العبادة والمحبة والتعظيم . وهذه هى التسوية التى أثبتها المشركون بين الله وبين آلهتهم ، وعرفوا ــ وهم فى النار ــ أنها كانت ضلالا وباطلا ، فيقولون لآلهتهم وهم فى النار معهم (« ٢٦ : ٩٧ » تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِى ضَلَالٍ مُبِينٍ « ٩٨ » إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ) ومعلوم أنهم ما سووهم به فى الذات والصفات والأفعال ، ولا قالوا : إن آلهتهم خلقت السمٰوات والأرض ، وأنها تحيى وتميت ، وإنما سووها به فى محبتهم لها ، وتعظيمهم لها ، وعبادتهم إياها ، كما ترى عليه أهل الاشراك ممن ينتسب إلى الإسلام . ومن العجب أنهم ينسبون أهل التوحيد إلى التنقص بالمشايخ والأنبياء والصالحين ، وما ذنبهم إلا أن قالوا : إنهم عبيد لا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم ضراً ولا نفعاً ، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً ، وأنهم لا يشفعون لعابديهم أبداً ، بل قد حرم الله شفاعتهم لهم ، ولا يشفعون لأهل التوحيد إلا بعد إذن الله لهم فى الشفاعة ، فليس لهم من الأمر شىء ، بل الأمر كله لله ، والشفاعة كلها له سبحانه ، والولاية له ، فليس لخلقه من دونه ولىّ ولا شفيع .

---

(١) الموضع الأول فى سورة الأنعام (٦ : ٩١ وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شىء) الثانى فى سورة الحج (٢٢ : ٧٤ ماقدروا الله حق قدره إن الله لقوى عزيز) الثالث فى سورة الزمر (٣٩ : ٦٧ وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون) وانظر أنواع ظن السوء بالله فى زاد المعاد فى غزوة الأحزاب .

فالشرك والتعطيل مبنيان على سوء الظن بالله تعالى ، ولهذا قال إبراهيم إمام الحنفاء لخصمائه من المشركين : (« ٣٧ : ٨٦ » أَإِفْكاً آلِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ؟ « ٨٧ » فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ؟) وإن كان المعنى : ماظنكم به أن يعاملكم ويجازيكم به ، وقد عبدتم معه غيره ، وجعلتم له ندًّا ؟ فأنت تجد تحت هذا التهديد : ماظننتم بربكم من السوء حتى عبدتم معه غيره ؟ فإن المشرك إما أن يظن أن الله سبحانه يحتاج إلى من يدبر أمر العالم معه : من وزير، أوظهير ،أوعون . وهذا أعظم التنقيص لمن هو غنى عن كل ما سواه بذاته،وكل ماسواه فقير إليه بذاته ، و إما أن يظن أن الله سبحانه إنما تتم قدرته بقدرة الشريك ، و إما أن يظن بأنه لايعلم حتى يعلمه الواسطة ، أولايرحم حتى يجعله الواسطة يرحم ، أو لا يكفى عبده وحده ، أو لايفعل ما يريد العبد حتى يشفع عنده الواسطة ، كما يشفع المخلوق عند المخلوق ، فيحتاج أن يقبل شفاعته لحاجته إلى الشافع وانتفاعه به ، وتكثُّره به من القِلَّة ، وتعززه به من الذِّلَّة ، أو لايجيب دعاء عباده حتى يسألوا الواسطة أن ترفع تلك الحاجات إليه ، كما هو حال ملوك الدنيا ، وهذا أصل شرك الخلق ، أو يظن أنه لا يسمع دعاءهم لبعده عنهم ، حتى يرفع الوسائط إليه ذلك ، أو يظن أن للمخلوق عليه حقا . فهو يُقْسِم عليه بحق ذلك المخلوق عليه ، و يتوسل إليه بذلك المخلوق ، كما يتوسل الناس إلى الأكابر والملوك بمن يعزُّ عليهم ولا يمكنهم مخالفته ، وكل هذا تنقص للربوبية ، وهضم لحقها ، ولو لم يكن فيه إلا نقص محبة الله تعالى وخوفه ورجائه ، والتوكل عليه ، والإنابة إليه ، من قلب المشرك ، بسبب قسمته ذلك بينه سبحانه و بين من أشرك به ، فينقص و يضعف أو يضمحل ذلك التعظيم والمحبة والخوف والرجاء ، بسبب صرف أكثره أو بعضه إلى من عبده من دونه ــ لكفى فى شناعته .

فالشرك ملزوم لتنقص الرب سبحانه والتنقص لازم له ضرورة ، شاء المشرك أم أبى . ولهذا اقتضى حمده سبحانه وكمال ربوبيته أن لا يغفره ، وأن يُخلِّد صاحبه فى العذاب الأليم ، ويجعله أشقى البرية . فلا تجد مشركا قط إلا وهو متنقص لله سبحانه ، و إن زعم أنه يعظمه بذلك . كما أنك لاتجد مبتدعًا إلا وهو متنقص للرسول صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ، و إن زعم أنه معظم له بتلك البدعة . فإنه يزعم أنها خير من السنة وأولى بالصواب ، أو يزعم أنها هى السنة ، إن كان جاهلا مقلدا ، و إن كان مستبصرا فى بدعته فهو مشاقٌّ لله ورسوله .

فالمتنقصون المنقوصون عند الله تعالى ورسوله وأوليائه : هم أهل الشرك والبدعة ، ولا سيما من بَنَى دينه على أن كلام الله ورسوله أدلة لفظية لاتفيد اليقين ، ولا تغنى من اليقين والعلم شيئاً . فيالله للمسلمين ، أيُّ شيء فات من هذا التنقص ؟ .

وكذلك من نفى صفات الكمال عن الرب تعالى ، خشية مايتوهمه من التشبيه والتجسيم . فقد جاء من التنقص بضد ماوصف الله سبحانه به نفسه من الكمال .

والمقصود : أن هاتين الطائفتين هم أهل التنقص فى الحقيقة ، بل هم أعظم الناس تنقصا ، لبّس عليهم الشيطان حتى ظنوا أن تنقصهم هو الكمال . ولهذا كانت البدعة قرينة الشرك فى كتاب الله تعالى . قال تعالى : (« ٧ : ٣٣ » قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْىَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ مَالَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مالاَ تَعْلَمُون) فالإثم والبغى قرينان . والشرك والبدعة قرينان .

فصـــل

وأما نجاسة الذنوب والمعاصى ، فإنها بوجه آخر ، فإنها لا تستلزم تنقيص الربوبية ، ولا سوء الظن بالله عز وجل . ولهذا لم يرتّب الله سبحانه عليها من العقوبات والأحكام ما رتبه على الشرك ، وهكذا استقرّت الشريعة على أنه يُعفَى عن النجاسة المخففة ، كالنجاسة فى محل الاستِجْمَار[١] ، وأسفل الخُفّ ، والحذاء[٢] ، أو بول الصبى الرّضيع[٣] وغير ذلك ، مالا يُعفَى عن المغلظة ، وكذلك يعفى عن الصغائر مالا يعفى عن الكبائر ، ويعفى لاهل التوحيد المحض الذى لم يَشوبوه بالشرك مالا يُعفى لمن ليس كذلك ، فلو لقىَ الموحد الذى لم يشرك بالله شيئاً

(١) لما ثبت فى البخارى ومسلم وغيرهما «أن النبىّ صلى الله عليه وسلم كان يستنجى بثلاثة أحجار ، ويأمر بذلك » . ومسح أثر الخارج بالحجر يترك أثراً خفيفاً فعفى عنه .

(٢) روى أبو داود عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إذا وطىء أحدكم بنعله الأذى فإن التراب له طهور » وفى لفظ « إذا وطىء الأذى بخفيه فطهورهما التراب » .

(٣) روى البخارى ومسلم وغيرهما عن أم قيس بنت محصن « أنها أتت بابن لها صغير لم يأكل الطعام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فبال على ثوبه ، فدعا بماء فنضحه عليه ولم يغسله » .

ألبتة رَبَّه بقُراب الأرض خطايا أتاه بقُرابها مَغفرة[1] ، ولا يحصل هذا لمن نقص توحيده وشابَهُ بالشرك . فإن التوحيد الخالص الذى لا يشوبه شرك لا يبقى معه ذنب . فإنه يتضمن من محبة الله تعالى و إجلاله ، وتعظيمه ، وخوفه ، ورجائه وحده ، مايوجب غسل الذنوب ، ولو كانت قُراب الارض ، فالنجاسة عارضة ، والدافع لها قوىّ ، فلا تثبت معه ، ولكن نجاسة الزنا واللواطة أغلظ من غيرها من النجاسات ، من جهة أنها تفسد القلب ، وتضعف توحيده جداً ، ولهذا كان أحظى الناس بهذه النجاسة أكثرهم شركاء فكلما كان الشرك فى العبد أغلب كانت هذه النجاسة والخبائث فيه أكثر ، وكلما كان أعظم إخلاصاً كان منها أبعد ، كما قال تعالى عن يوسف الصديق عليه السلام (« ١٢ : ٢٤ » كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ) فان عشق الصور المحرّمة نوع تَعَبُّد لها ، بل هو من أعلى أنواع التعبد ، ولا سيما إذا استولى على القلب وتمكّن منه صار تَتَيُّما ، والتتيم التعبد ، فيصير العاشق عابداً لمعشوقه ، وكثيراً ما يغلب حبُّه وذكره والشوق إليه ، والسعى فى مرضاته ، و إيثارُ محابّه على حب الله وذكره ، والسعى فى مرضاته ، بل كثيراً ما يذهب ذلك من قلب العاشق بالكلية ، و يصير متعلقاً بمعشوقه من الصور ، كما هو مشاهد ، فيصير المعشوق هو إلهه من دون الله عز وجل ، يقدّم رضاه وحبه على رضَى الله وحبه ، و يتقرّبُ إليه ما لا يتقرب إلى الله ، ويُنفق فى مرضاته ما لا ينفقه فى مرضاة الله ، و يتجنّب من سَخَطه ما لا يتجنب من سخط الله تعالى ، فيصير آثر عنده من ربه : حُبًّا، وخضوعا ، وذلا ، وسمعاً ، وطاعة .

ولهذا كان العشق والشرك متلازمين ، و إنما حكى الله سبحانه العشق عن المشركين من قوم لوط ، وعن امرأة العزيز ، وكانت إذ ذاك مشركة ، فكلما قوى شرك العبد بُلِىَ بعشق الصور ، وكلما قوى توحيده صُرف ذلك عنه. والزنا واللواطة كمال لذتهما إنما يكون مع العشق ولا يخلو صاحبهما منه ، و إنما لتنقُّله من محل إلى محل لا يبقى عشقه مقصوراً على محل واحد بل ينقسم على سهام كثيرة ، لكل محبوب نصيب من تألهه وتعبده .

---

(١) روى الترمذى ــ وقال : حسن ــ عن أنس بن مالك قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « قال الله : يا ابن آدم مادعوتنى ورجوتنى غفرت لك على ما كان منك ولا أبالى . يا ابن آدم ، لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتنى غفرت لك ولا أبالى . يا ابن آدم إنك لو أتيتنى بقراب الأرض خطايا ، ثم لقيتنى لاتشرك بى شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة » . و « قراب » بضم القاف : مايقارب ملأها .

فليس فى الذنوب أفسد للقلب والدين من هاتين الفاحشتين ، ولهما خاصية فى تبعيد القلب من الله ، فإنهما من أعظم الخبائث ،فإذا انصبغ القلب بهما بعد ممن هو طيب ،لايصعد إليه إلا طيب ، وكلما ازداد خبثاً ازداد من الله بعداً ، ولهذا قال المسيح فيما رواه الإمام أحمد فى كتاب الزهد « لا يكون البطّالون من الحكماء ، ولا يلجُ الزناة مَلكوت السماء» .

ولما كانت هذه حال الزنا كان قريباً للشرك فى كتاب الله تعالى . قال الله تعالى : (« ٢٤ : ٣ » الزَّانِى لاَ يَنْكِحُ إلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لاَ يَنْكِحُهَا إلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ) .

والصواب : القول بأن هذه الآية محكمة يعمل بها لم ينسخها شىء ، وهى مشتملة على خبر وتحريم ، ولم يأت من ادّعى نسخها بحجة ألبتة ، والذى أشكل منها على كثير من الناس واضح بحمد الله تعالى ، فإنهم أشكل عليهم قوله « الزانى لا ينكح إلا زانية أو مشركة » هل هو خبر أو نهى ، أو إباحة ؟ فإن كان خبرا فقد رأينا كثيراً من الزناة ينكح عفيفة ، وإن كان نهياً فيكون قد نهى الزانى أن يتزوج إلا بزانية أو مشركة ، فيكون نهيا له عن نكاح المؤمنات العفائف ، وإباحة له فى نكاح المشركات والزوانى ، والله سبحانه لم يرد ذلك قطعاً ، فلما أشكل عليهم ذلك طلبوا للآية وجهاً يصح حملها عليه .

فقال بعضهم : المراد من النكاح الوطء والزنا ، فكأنه قال : الزانى لا يزنى إلا بزانية أو مشركة .

وهذا فاسد ، فإنه لا فائدة فيه ، ويصان كلام الله تعالى عن حمله على مثل ذلك ، فإنه من المعلوم أن الزانى لايزنى إلا بزانية ، فأى فائدة فى الإخبار بذلك ؟ ولما رأى الجمهور فساد هذا التأويل أعرضوا عنه .

ثم قالت طائفة : هذا عام اللفظ خاص المعنى ، والمراد به رجل واحد وامرأة واحدة ، وهى عَناق البَغِيّ وصاحبها[1] فإنه أسلم ، واستأذن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى نكاحها. فنزلت هذه الآية .

---

(١) هو مرثد بن أبى مرثد . وكان رجلا يحمل الأسرى من مكة حتى يأتى بهم المدينة — وحديثه رواه أبو داود والترمذى والنسائى فى كتاب النكاح . وذكره الحافظ ابن كثير فى تفسير الآية من سورة النور .

وهذا أيضاً فاسد ، فإن هذه الصورة المعينة وإن كانت سبب النزول فالقرآن لا يقتصر به على محال أسبابه ولو كان كذلك لبطل الاستدلال به على غيرها .

وقالت طائفة : بل الآية منسوخة بقوله (« ٢٤ : ٣٢ » وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ) وهذا أفسد من الكل ، فإنه لا تعارض بين هاتين الآيتين ، ولا تناقض إحداهما الأخرى ، بل أمر سبحانه بإنكاح الأيامى ، وحرّم نكاح الزانية ، كما حرّم نكاح المعتدة والمحرمة ، وذوات المحارم ، فأين الناسخ والمنسوخ فى هذا ؟

فإن قيل : فما وجه الآية ؟ .

قيل : وجهها ـ والله أعلم ـ أن المتزوج أمر أن يتزوج المحصنة العفيفة ، وإنما أبيح له نكاح المرأة بهذا الشرط ، كما ذكر ذلك سبحانه فى سورتى النساء والمائدة[1] والحكم المعلق على الشرط ينتفى عند انتفائه ، والإباحة قد علقت على شرط الإحصان ، فإذا انتفى الإحصان انتفت الإباحة المشروطة به ، فالمتزوج إما أن يلتزم حكم الله وشرعه الذى شرعه على لسان رسوله ، أو لا يلتزمه ، فإن لم يلتزمه فهو مشرك لا يرضى بنكاحه إلا من هو مشرك مثله ، وإن التزمه وخالفه ونكح ماحرم عليه ، لم يصح النكاح ، فيكون زانياً ، فظهر معنى قوله (لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً) وتبين غاية البيان ، وكذلك حكم المرأة .

وكما أن هذا الحكم هو موجب القرآن وصريحه فهو موجب الفطرة ، ومقتضى العقل ، فإن الله سبحانه حرم على عبده أن يكون قرْناناً دَيُّوثاً زوج بغىّ ، فإن الله تعالى فطر الناس على استقباح ذلك واستهجانه ، ولهذا إذا بالغوا فى سب الرجل قالوا : زوج قحبة ، فحرّم الله على المسلم أن يكون كذلك .

فظهرت حكمة التحريم وبان معنى الآية ، والله الموفق .

ومما يوضح التحريم ، وأنه هو الذى يليق بهذه الشريعة الكاملة : أن هذه الجناية من المرأة تعود بفساد فراش الزوج وفساد النسب الذى جعله الله تعالى بين الناس لتمام مصالحهم ،

---

(١) قال تعالى فى سورة النساء (٣ : ٣ فانكحوا ماطاب لكم من النساء) وقال فيها أيضاً(٣ : ٢٤ وأحل لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين) وقال فى سورة المائدة (٤ : ٥ والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم).

وعده من جملة نعمه عليهم ، فالزنا يفضى إلى اختلاط المياه ، واشتباه الأنساب ، فمن محاسن الشريعة : تحريم نكاح الزانية ، حتى تتوب وتُستبرأ .

وأيضاً فإن الزانية خبيثة ، كما تقدم بيانه ، والله سبحانه جعل النكاح سبباً للمودة والرحمة والمودة وخالص الحب ، فكيف تكون الخبيثة مودودة للطيب ، زوجا له ، والزوج سمّى زوجا من الازدواج وهو الاشتباه فالزوجان الاثنان المتشابهان ، والمنافرة ثابتة بين الطيب والخبيث شرعا وقَدَرا ، فلا يحصل معها الازدواج والتراحم والتواد ، فلقد أحسن كل الإحسان من ذهب إلى هذا المذهب ، ومنع الرجل أن يكون زوج قحبة .

فأين هذا من قول من جوز أن يتزوجها و يطأها الليلة ، وقد وطئها الزانى البارحة ، وقال : ماء الزانى لا حرمة له ، فهب أن الأمر كذلك ، فماء الزوج له حرمة ، فكيف يجوز اجتماعه مع ماء الزانى فى رحم واحد ؟

والمقصود : أن الله سبحانه سمى الزوانى والزناة خبيثين وخبيثات ، وجنس هذا الفعل قد شرعت فيه الطهارة ، و إن كان حلالا ، وسمى فاعله جنبا ، لبعده عن قراءة القرآن ، وعن الصلاة ، وعن المساجد ، فمنع من ذلك كله حتى يتطهر بالماء . فكذلك إذا كان حراما يبعد القلب عن الله تعالى ، وعن الدار الآخرة ، بل يحول بينه و بين الإيمان ، حتى يحدث طهرا كاملا بالتوبة ، وطهراً لبدنه بالماء . وقول اللوطية (أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ) من جنس قوله سبحانه فى أصحاب الأخدود (« ٨٥ : ٨ » وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ) وقوله تعالى : («٥ : ٥٩» قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ) .

وهكذا المشرك إنما ينقم على الموحد تجريده للتوحيد ، وأنه لا يشو به بالإشراك . وهكذا المبتدع : إنما ينقم على السنى تجريده متابعة الرسول ، وأنه لم يشبها بآراء الرجال ، ولا بشىء مما خالفها . فصبر الموحد المتبع للرسول على ما ينقمه عليه أهل الشرك والبدعة خير له وأنفع ، وأسهل عليه من صبره على ما ينقمه الله ورسوله عليه من موافقة أهل الشرك والبدعة .

إذا لم يكن بد من الصبر ، فاصطبر على الحق ، ذاك الصبر تُحمد عقباه

الباب العاشر

فى علامات مرض القلب وصحته

كل عضو من أعضاء البدن خلق لفعل خاص ، به كماله فى حصول ذلك الفعل منه ، ومرضه : أن يتعذر عليه الفعل الذى خلق له ، حتى لا يصدر منه ، أو يصدر مع نوع من الاضطراب ، فرض اليد : أن يتعذر عليها البطش ، ومرض العين : أن يتعذر عليها النظر والرؤية ، ومرض اللسان : أن يتعذر عليه النطق ، ومرض البدن : أن يتعذر عليه حركته الطبيعية أو يضعف عنها ، ومرض القلب : أن يتعذر عليه ماخلق له من معرفة الله ومحبته والشوق إلى لقائه ، والإنابة إليه ، وإيثار ذلك على كل شهوة ، فلو عرف العبد كل شىء ولم يعرف ربه ، فكأنه لم يعرف شيئاً ، ولو نال كل حظ من حظوظ الدنيا ولذّاتها وشهواتها ولم يظفر بمحبة الله ، والشوق إليه ، والأنس به ؛ فكأنه لم يظفر بلذة ولا نعيم ولا قرة عين ، بل إذا كان القلب خالياً عن ذلك عادت تلك الحظوظ واللذات عذاباً له ولا بد ، فيصير معذبا بنفس ما كان منعماً به من جهتين : من جهة حسرة فوْته ، وأنه حيل بينه وبينه ، مع شدة تعلق روحه به ، ومن جهة فوْت ما هو خير له وأنفع وأدوم ، حيث لم يحصل له ، فالمحبوب الحاصل فات ، والمحبوب الأعظم لم يظفر به ، وكل من عرف الله أحبه ، وأخلص العبادة له ولا بد ، ولم يؤثر عليه شيئاً من المحبوبات ، فمن آثر عليه شيئاً من المحبوبات فقلبه مريض ، كما أن المعدة إذا اعتادت أكل الخبيث وآثرته على الطيب سقطت عنها شهوة الطيب ، وتعوّضت بمحبة غيره .

وقد يمرض القلب ويشتد مرضه ، ولا يعرف به صاحبه ، لاشتغاله وانصرافه عن معرفة صحته وأسبابها ، بل قد يموت وصاحبه لا يشعر بموته ، وعلامة ذلك أنه لا تؤلمه جراحات القبائح ، ولا يوجعه جهله بالحق وعقائده الباطلة ؛ فإن القلب إذا كان فيه حياة تألم بورود القبيح عليه ، وتألم بجهله بالحق بحسب حياته .

وما لجرح بميت إيلام[1] .

---

(١) هذه قطعة من بيت للمتنبى ، وهو بتمامه .

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجـــرح بميت إيلام

وقد يشعر بمرضه ، ولكن يشتد عليه تحمل مرارة الدواء والصبر عليها ؛ فهو يؤثر بقاء ألمه على مشقة الدواء ، فإن دواءه فى مخالفة الهوى ، وذلك أصعب شىء على النفس ، وليس لها أنفع منه .

وتارة يوطن نفسه على الصبر ، ثم ينفسخ عزمه ، ولا يستمر معه لضعف علمه و بصيرته وصبره : كمن دخل فى طريق مخوف مفضٍ إلى غاية الأمن ، وهو يعلم أنه إن صبر عليه انقضى الخوف وأعقبه الأمن ، فهو محتاج إلى قوة صبر ، وقوة يقين بما يصير إليه ، ومتى ضعف صبره و يقينه رجع من الطريق ، ولم يتحمل مشقتها ، ولا سيما إن عدم الرفيق ، واستوحش من الوحدة ، وجعل يقول : أين ذهب الناس ؟ فلى بهم أسوة . وهذه حال أكثر الخلق ، وهى التى أهلكتهم ؛ فالبصير الصادق لا يستوحش من قلة الرفيق ، ولا من فقده إذا استشعر قلبه مرافقة الرّعيل الأول ، الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحَسُن أولئك رفيقا ؛ فتفرّد العبد فى طريق طلبه دليل على صدق الطلب

ولقد سئل إسحٰق بن راهَوَيه عن مسألة فأجاب . فقيل له : إن أخاك أحمد بن حنبل يقول فيها بمثل ذلك . فقال: ماظننت أن أحدا يوافقنى عليها ، ولم يستوحش بعد ظهور الصواب له من عدم الموافقة ؛ فإن الحق إذا لاح وتبين لم يحتج إلى شاهد يشهد به . والقلب يبصر الحق كما تبصر العين الشمس . فإذا رأى الرائى الشمس لم يحتج فى علمه بها واعتقاده أنها طالعة إلى من يشهد بذلك و يوافقه عليه .

وما أحسن ما قال أبو محمد عبد الرحمن بن إسماعيل المعروف بأبى شامة فى كتاب الحوادث والبدع « حيث جاء الأمر بلزوم الجماعة فالمراد به لزوم الحق وأتباعه ، و إن كان المتمسك به قليلا والمخالف له كثيراً » لأن الحق هو الذى كانت عليه الجماعة الأولى من عهد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه ، ولا نظر إلى كثرة أهل البدع بعدهم . قال عمرو بن ميمون الأوْدِى : صحبت معاذاً باليمن ، فما فارقته حتى واريته فى التراب بالشام ، ثم صحبت بعده أفقه الناس عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ، فسمعته يقول : عليكم بالجماعة ، فإن يد الله على الجماعة ، ثم سمعته يوما من الأيام وهو يقول : سيلى عليكم وُلاة يؤخرون الصلاة عن مواقيتها ، فصلوا الصلاة لميقاتها ، فهى الفريضة ، وصلوا معهم فإنها لكم نافلة . قال قلت : يا أصحاب محمد ، ماأدرى ماتحدثوننا؟قال: وماذاك؟قلت تأمرنى بالجماعة وتحضنى عليها . ثم تقول: صل الصلاة وَحْدَك، وهى

الفريضة ، وصل مع الجماعة وهى نافلة ؟ قال : ياعمرو بن ميمون ، قد كنت أظنك من أفقه أهل هذه القرية ، تدرى ما الجماعة ؟ قلت : لا . قال : إن جمهور الجماعة : الذين فارقوا الجماعة . الجماعة ما وافق الحق ، وإن كنت وحدك » وفى طريق أخرى « فضرب على فخذى وقال : ويحك ، إن جمهور الناس فارقوا الجماعة . وإن الجماعة ماوافق طاعة الله عز وجل » قال نُعَيم بن حماد « يعنى إذا فسدت الجماعة فعليك بما كانت عليه الجماعة قبل أن تفسد ، وإن كنت وحدك . فإنك أنت الجماعة حينئذ » ذكره البيهقى وغيره .

وقال أبو شامة عن مبارك عن الحسن البصرى قال « السنة ، والذى لا إله إلا هو ، بين الغالى والجافى ، فاصبروا عليها رحمكم الله ؛ فإن أهل السنة كانوا أقلّ الناس فيما مضى ، وهم أقل الناس فيما بقى : الذين لم يذهبوا مع أهل الإتراف فى إترافهم ، ولا مع أهل البدع فى بدعهم ، وصبروا على سنتهم حتى لقوا ربهم ، فكذلك إن شاء الله فكونوا » .

وكان محمد بن أسلم الطُّوسى ، الإمام المتفق على إمامته ، مع رتبته ؛ أتبع الناس للسنة فى زمانه ، حتى قال : « ما بلغنى سُنة عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إلا عملت بها ، ولقد حرصت على أن أطوف بالبيت راكبا ؛ فما مُكِّنتُ من ذلك ، فسُئل بعض أهل العلم فى زمانه عن السَّواد الأعظم الذين جاء فيهم الحديث « إذا اختلف الناس فعليكم بالسواد الأعظم » فقال : « محمد بن أسلم الطوسى هو السواد الأعظم » وصدق والله ، فإن العصر إذا كان فيه عارف بالسنة داع إليها فهو الحجة ، وهو الإجماع ، وهو السواد الأعظم ، وهو سبيل المؤمنين التى من فارقها واتبع سواها ولاه الله ما تولّى ، وأصلاه جهنم ، وساءت مصيرا .

والمقصود : أن من علامات أمراض القلوب عدولها عن الأغذية النافعة الموافقة لها إلى الأغذية الضارة ، وعدولها عن دوائها النافع إلى دائها الضار ، فهنا أربعة أمور : غذاء نافع ، ودواء شاف ، وغذاء ضار ، ودواء مهلك .

فالقلب الصحيح يؤثر النافع الشافى على الضار المؤذى ، والقلب المريض بضد ذلك .

وأنفع الأغذية غذاء الإيمان ، وأنفع الأدوية دواء القرآن ، وكل منهما فيه الغذاء والدواء

ومن علامات صحته أيضاً : أن يرتحل عن الدنيا حتى ينزل بالآخرة ، ويحل فيها ، حتى يبقى كأنه من أهلها وأبنائها ، جاء إلى هذه الدار غريباً يأخذ منها حاجته ، ويعود إلى وطنه ،

كما قال عليه السلام لعبد الله بن عمر « كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل ، وعدَّ نفسك من أهل القبور » :

فحىَّ على جنات عَدْنٍ فإنها منازلك الأولى وفيها المُخَيَّمُ(١)
ولكننا سَبْي العدو ، فهل ترى نعود إلى أوطاننا ونسلم ؟

وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه « إن الدنيا قد ترحلت مدبرة ، وإن الآخرة قد ترحّلت مقبلة ، ولكل منهما بنون ، فكونوا من أبناء الآخرة ، ولا تكونوا من أبناء الدنيا فإن اليوم عمل ولا حساب ، وغداً حساب ولا عمل» .

وكلما صح القلب من مرضه ترحل إلى الآخرة وقرب منها حتى يصير من أهلها ، وكلما مرض القلب واعتل آثر الدنيا واستوطنها ، حتى يصير من أهلها .

ومن علامات صحة القلب أنه لا يزال يضرب على صاحبه حتى ينيب إلى الله ويخبت إليه ، ويتعلق به تعلق المحب المضطر إلى محبوبه ، الذى لا حياة له ولا فلاح ولا نعيم ولا سرور إلا برضاه وقربه والأنس به ، فيه يطمئن ، وإليه يسكن ، وإليه يأوى ، وبه يفرح ، وعليه يتوكل ، وبه يثق ، وإياه يرجو ، وله يخاف ، فذكره قوته ، وغذاؤه ، ومحبته ، والشوق إليه حياته ونعيمه ولذته وسروره ، والالتفات إلى غيره والتعلق بسواه داؤه ، والرجوع إليه دواؤه ، فإذا حصل له ربه سكن إليه واطمأن به ، وزال ذلك الاضطراب والقلق ، وانسدت تلك الفاقة ، فإن فى القلب فاقة لا يسدها شىء سوى الله تعالى أبداً ، وفيه شعث لا يلمه غير الإقبال عليه ، وفيه مرض لا يشفيه غير الإخلاص له ، وعبادته وحده ، فهو دائما يضرب على صاحبه حتى يسكن ويطمئن إلى إلٰهه ومعبوده ، فحينئذ يباشر روح الحياة ، ويذوق طعمها ، ويصير له حياة أخرى غير حياة الغافلين المعرضين عن هذا الأمر الذى له خلق الخلق ، ولأجله خلقت الجنة والنار ، وله أرسلت الرسل ونزلت الكتب ، ولو لم يكن جزاء إلا نفس وجوده لكفى به جزاء وكفى بفوته حسرة وعقوبة .

---

(١) هذان البيتان من قصيدة طويلة للحافظ ابن القيم رحمه الله فى ذكر الجنة والشوق إليها . ذكرها بطولها فى كتاب حادى الأرواح إلى بلاد الأفراح .

قال بعض العارفين « مساكين أهل الدنيا ، خرجوا من الدنيا وما ذاقوا أطيب ما فيها ؛ قيل : وما أطيب ما فيها ؟ قال : محبة الله والأنس به والشوق إلى لقائه ، والتنعم بذكره وطاعته » .

وقال آخر « إنه ليمر بى أوقات أقول فيها إن كان أهل الجنة فى مثل هذا إنهم لفى عيش طيب » .

وقال آخر « والله ما طابت الدنيا إلا بمحبته وطاعته ، ولا الجنة إلا برؤيته ومشاهدته »

وقال أبو الحسين الوراق « حياة القلب فى ذكر الحى الذى لا يموت ، والعيش المنى الحياة مع الله تعالى لا غير » .

ولهذا كان الفوت عند العارفين بالله أشد عليهم من الموت ؛ لأن الفوت انقطاع عن الحق ، والموت انقطاع عن الخلق ، فكم بين الانقطاعين ؟

وقال آخر « من قرت عينه بالله تعالى قرت به كل عين ، ومن لم تقر عينه بالله تقطع قلبه على الدنيا حسرات » .

وقال يحيى بن معاذ « من سر بخدمة الله سرت الأشياء كلها بخدمته ، ومن قرت عينه بالله قرت عيون كل أحد بالنظر إليه » .

ومن علامات صحة القلب : أن لا يفتر عن ذكر ربه ، ولا يسأم من خدمته ، ولا يأنس بغيره ؛ إلا بمن يدله عليه ، ويذكره به ، ويذاكره بهذا الأمر .

ومن علامات صحته : أنه إذا فاته ورده وجد لفواته ألما أعظم من تألم الحريص بفوات ماله وفقده .

ومن علامات صحته : أنه يشتاق إلى الخدمة ، كما يشتاق الجائع إلى الطعام والشراب .

ومن علامات صحته : أنه إذا دخل فى الصلاة ذهب عنه همه وغمه بالدنيا ، واشتد عليه خروجه منها ، ووجد فيها راحته ونعيمه ، وقرت عينه وسرور قلبه .

ومن علامات صحته : أن يكون همه واحداً ، وأن يكون فى الله .

ومن علامات صحته : أن يكون أشح بوقته أن يذهب ضائعاً من أشد الناس شحا بماله

ومنها : أن يكون اهتمامه بتصحيح العمل أعظم منه بالعمل ، فيحرص على الإخلاص فيه والنصيحة والمتابعة والإحسان ، ويشهد مع ذلك مِنّة الله عليه فيه وتقصيره فى حق الله .

فهذه ست مشاهد لا يشهدها إلا القلب الحى السليم .

وبالجملة فالقلب الصحيح : هو الذى هَمُّه كله فى الله ، وحبه كله له ، وقصده له ، وبدنه له ، وأعماله له ، ونومه له ، ويقظته له ، وحديثه والحديث عنه أشهَى إليه من كل حديث . وأفكاره تحوم على مراضيه ومحابّه : الخلوة به آثر عنده من الخلطة إلا حيث تكون الخلطة أحب إليه وأرضى له ، قُرّة عينه به ، وطمأنينته وسكونه إليه ، فهو كلما وجد من نفسه التفاتا إلى غيره تلا عليها (« ٨٩ : ٢٧ – ٣٠ » يـٰأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً) فهو يردد عليها الخطاب بذلك ليسمعه من ربه يوم لقائه فينصبغ القلب بين يدى إلٰهه ومعبوده الحق بصبغة العبودية ، فتصير العبودية صفة له وذوقا لا تكلفا ، فيأتى بها تودُّدا وتحببا وتقربا ، كما يأتى المحب المقيم فى محبة محبوبه بخدمته وقضاء أشغاله . فكلما عرض له أمر من ربه أو نهى أحَسَّ من قلبه ناطقا ينطق « لبَّيْكَ وَسَعْدَيْك ؛ إنى سامع مطيع ممتثل ، ولك علىّ المِنَّة فى ذلك ، والحمد فيه عائد إليك » .

وإذا أصابه قدَر وجد من قلبه ناطقا يقول « أنا عبدك ومسكينك وفقيرك ، وأنا عبدك الفقير العاجز الضعيف المسكين ، وأنت ربى العزيز الرحيم ؛ لا صبر لى إن لم تصبرنى ، ولا قوة لى إن لم تحملنى وتُقَوِّنى ؛ لا ملجأ لى منك إلا إليك ، ولا مستعان لى إلا بك ، ولا انصراف لى عن بابك ، ولا مذهب لى عنك » .

فينطرح بمجموعه بين يديه ، ويعتمد بكليته عليه ، فإن أصابه بما يكره قال : رحمة أُهْديتْ إلىّ ، ودواء نافع من طبيب مشفق ، وإن صرف عنه ما يحب قال : شرًّا صرف عنى

وكم رمت أمراً خِرْتَ لى فى انصرافه ... وما زلتَ بى منى أبّر وأرحما

فكل ما مَسَّه به من السَّراء والضَّرّاء اهتدى بها طريقاً إليه ، وانفتح له منه باب يدخل منه عليه ، كما قيل :

ما مَسَّنى قَدَر بكُرْهٍ أو رضًى ... إلا اهتديت به إليك طريقاً

أمْضِ القضاء على الرضى منى به ... إنى وجدتك فى البلاء رفيقاً

ولله هاتيك القلوب وما انطوت عليه من الضمائر ، وماذا أودعته من الكنوز والذخائر ولله طيب أسرارها ولا سيما يوم تُبْلَى السرائر .

سيبدو لها طيب ونور وبهجة ... وحسن ثناء يوم تبلى السرائر

بالله ، لقد رفع لها علم عظيم فشمرت إليه ، واستبان لها صراط مستقيم فاستقامت عليه ، ودعاها مادون مطلوبها الأعلى فلم تستجب إليه ، واختارت على ماسواه وآثرت مالديه.

الباب الحادى عشر

فى علاج مرض القلب من استيلاء النفس عليه

هذا الباب كالأساس والأصل لما بعده من الأبواب ، فإن سائر أمراض القلب إنما تنشأ من جانب النفس ، فالموادُّ الفاسدة كلها إليها تنصبُّ ، ثم تنبعث منها إلى الأعضاء . وأول ماتنال القلب ؛ وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى خطبة الحاجة « الحمد لله نستعينه ونستهديه ، ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا[١] » .

وفى المسند والترمذى من حديث حُصين بن عبيد[٢] ورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : «ياحُصين ، كم تعبد ؟ قال : سبعة ، ستة فى الأرض و واحد فى السماء ، قال: فمن الذى تُعِدُّ لرَغْبتك ورَهْبتك ؟ قال : الذى فى السماء . قال : أسْلِمْ حتى أعلمك كلمات ينفعك الله بها ، فأسلم . فقال : قل : اللهم ألهمنى رشدى . وقِنِي شرَّ نفسِي » .

وقد استعاذ صلى الله عليه وسلم من شرها عموما ، ومن شر مايتولد منها من الأعمال ، ومن شر مايترتب على ذلك من المكاره والعقوبات ، وجمع بين الاستعاذة من شر النفس ومن سيئات الأعمال . وفيه وجهان :

(١) روى أبو داود والترمذى ــ وصححه ــ والحاكم والبيهقى عن ابن مسعود رضى الله عنه قال « علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم التشهد فى الصلاة والتشهد فى الحاجة . وذكر تشهد الصلاة ، قال : والتشهد فى الحاجة : أن الحمد لله نستعينه ــ الحديث .

(٢) حصين بن عبيد ــ وكانت فى الأصول كلها ابن المنذر ــ وهو خطأ . وهو والد عمران بن حصين . اختلف فى إسلامه . فروى أحمد والنسائى باسناد صحيح عن ربعى بن حراش عن عمران بن حصين « أن حصينا أتى النبيّ صلى الله عليه وسلم قبل أن يسلم ــ الحديث ، وفيه : ثم أن حصيناً أسلم » ورواه النسائى من وجه آخر عن ربعى عن عمران بن حصين عن أبيه «أنه أتى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : يامحمد . كان عبد المطلب خيراً لقومك منك ــ الحديث ــ وفيه : فلما أراد أن ينصرف قال : ما أقول ؟ قال : قل : اللهم قنى شر نفسى واعزم لى على أرشد أمرى . ولم يكن أسلم . ثم أسلم ــ الحديث » .

أحدهما : أنه من باب إضافة النوع إلى جنسه ، أى أعوذ بك من هذا النوع من الأعمال

والثانى : أن المراد به عقوبات الأعمال التى تسوء صاحبها .

فعلى الأول : يكون قد استعاذ من صفة النفس وعملها .

وعلى الثانى : يكون قد استعاذ من العقوبات وأسبابها .

ويدخل العمل السيىء فى شر النفس . فهل المعنى : مايسوءنى من جزاء عملى ، أو من عملى السيىء ؟ وقد يترجح الأول ، فإن الاستعاذة من العمل السيىء بعد وقوعه إنما هى استعاذة من جزائه وموجبه ؛ و إلا فالموجود لايمكن رفعه بعينه .

وقد اتفق السالكون إلى الله على اختلاف طرقهم وتباين سلوكهم على أن النفس قاطعة بين القلب و بين الوصول إلى الرب ، وأنه لايُدخَلُ عليه سبحانه ولايوصل إليه إلا بعد إماتتها وتركها بمخالفتها والظفر بها .

فإن الناس على قسمين : قسم ظفرت به نفسه فملكته وأهلكته وصار طوعا لها تحت أوامرها . وقسم ظفروا بنفوسهم فقهروها ، فصارت طوعا لهم منقادة لأوامرهم .

قال بعض العارفين : انتهى سفر الطالبين إلى الظفر بأنفسهم . فمن ظفر بنفسه أفلح وأنجح ومن ظفرت به نفسه خسر وهلك . قال تعالى (« ٧٩ : ٣٧ : ٤١ » فَأَمَّا مَنْ طَغَى وَءاثَرَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا فَإِنَّ الجَحِيمَ هِىَ المَأْوَى . وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الهَوَى فَإِنَّ الجَنَّةَ هِىَ المَأْوَى)

فالنفس تدعو إلى الطغيان و إيثار الحياة الدنيا ، والرب يدعو عبده إلى خوفه ونهى النفس عن الهوى . والقلب بين الداعيين ، يميل إلى هذا الداعى مرة و إلى هذا مرة . وهذا موضع المحنة والابتلاء ، وقد وصف سبحانه النفس فى القرآن بثلاثة صفات : المطمئنة ، والأمّارة بالسوء، واللوّامة .

فاختلف الناس : هل النفس واحدة ، وهذه أوصاف لها . أم للعبد ثلاث أنفس ؟: نفس مطمئنة ، ونفس لوامة ، ونفس أمارة .

فالأول قول الفقهاء والمتكلمين . وجمهور المفسرين ، وقول محقق الصوفية ، والثانى قول كثير من أهل التصوف .

والتحقيق : أنه لا نزاع بين الفريقين ؛ فإنها واحدة باعتبار ذاتها ، وثلاث باعتبار صفاتها . فإذا اعتبرت بنفسها فهي واحدة ، وإن اعتبرت مع كل صفة دون الأخرى فهي متعددة ، وما أظنهم يقولون إن لكل أحد ثلاث أنفس : كل نفس قائمة بذاتها ، مساوية للأخرى فى الحدّ والحقيقة ، وأنه إذا قبض العبد قبضت له ثلاث أنفس ، كل واحدة مستقلة بنفسها .

وحيث ذكر سبحانه النفس ، وأضافها إلى صاحبها ؛ فإنما ذكرها بلفظ الإفراد ، وهكذا فى سائر الأحاديث ، ولم يجئ فى موضع واحد « نفوسك » و « نفوسه » ولا « أنفسك » و «أنفسه » وإنما جاءت مجموعة عند إرادة العموم ، كقوله : (« ٨١ : ٧ » وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ) أو عند إضافتها إلى الجمع ؛ كقوله صلى الله عليه وسلم « إنما أنفسنا بيد الله[1] » ولو كانت فى الإنسان ثلاث أنفس لجاءت مجموعة إذا أضيفت إليه ولو فى موضع واحد .

فالنفس إذا سكنت إلى الله ، واطمأنت بذكره ، وأنابت إليه ، واشتاقت إلى لقائه ، وأنست بقربه ، فهي مطمئنة ، وهي التى يقال لها عند الوفاة (« ٨٩ : ٢٧ : ٢٨ » يَاأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً) . قال ابن عباس : (يا أيتها النفس المطمئنة) يقول : المصدقة ، وقال قتادة : « هو المؤمن ، اطمأنت نفسه إلى ما وعد الله » وقال الحسن « المطمئنة بما قال الله . والمصدقة بما قال » ، وقال مجاهد « هى المنيبة المخبتة التى أيقنت أن الله ربها ، وضربت جأشاً[2] لأمره وطاعته ، وأيقنت بلقائه »

وحقيقة الطمأنينة : السكون والاستقرار ، فهى التى قد سكنت إلى ربها وطاعته وأمره وذكره ، ولم تسكن إلى سواه ، فقد اطمأنت إلى محبته وعبوديته وذكره ، واطمأنت إلى أمره ونهيه وخبره ، واطمأنت إلى لقائه ووعده ، واطمأنت إلى التصديق بحقائق أسمائه وصفاته ، واطمأنت إلى الرضى به ربًّا ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد رسولا ، واطمأنت إلى قضائه وقدره ، واطمأنت إلى كفايته وحَسْبِهِ وضمانه ، فاطمأنت بأنه وحده ربها وإلٰهها ومعبودها ومليكها ومالك أمرها كله ، وأن مرجعها إليه ، وأنها لا غنى لها عنه طرفة عين .

---

(١) فى قصة نومهم عن صلاة الفجر — حين عرسوا من آخر الليل وهم راجعون إلى المدينة — رواها مسلم وأحمد عن أبى قتادة . ورواها أحمد عن عمران بن حصين .

(٢) قال فى لسان العرب فى مادة « جأش » : ضربت جأشاً ، معناه قرت عيناً واطمأنت كما يضرب البعير بصدره الأرض إذا برك وسكن .

وإذا كانت بضد ذلك فهى أمارة بالسوء تأمر صاحبها بما تهواه : من شهوات الغىّ ، واتباع الباطل ، فهى مأوى كل سوء ، وإن أطاعها قادته إلى كل قبيح وكل مكروه . وقد أخبر سبحانه أنها أمارة بالسوء ، ولم يقل « آمرة » لكثرة ذلك منها ، وأنه عادتها ودأبها إلا إذا رحمها الله وجعلها زاكية تأمر صاحبها بالخير ، فذلك من رحمة الله ، لا منها . فإنها بذاتها أمارة بالسوء ؛ لأنها خلقت فى الأصل جاهلة ظالمة ، إلا من رحمة الله ، والعدل والعلم طارىء عليها بإلهام ربها وفاطرها لها ذلك ، فإذا لم يلهمها رشدها بقيت على ظلمها وجهلها . فلم تكن أمارة إلا بموجب الجهل والظلم ، فلولا فضل الله ورحمته على المؤمنين ما زكت منهم نفس واحدة

فإذا أراد الله سبحانه بها خيرا جعل فيها ماتزكو به وتصلح : من الإرادات والتصورات وإذا لم يرد بها ذلك تركها على حالها التى خلقت عليها من الجهل والظلم .

وسبب الظلم : إما جهل ، وإما حاجة . وهى فى الأصل جاهلة . والحاجة لازمة لها ، فلذلك كان أمرها بالسوء لازمًا لها إن لم تدركها رحمة الله وفضله .

وبهذا يعلم أن ضرورة العبد إلى ربه فوق كل ضرورة ، ولاتشبهها ضرورة تقاس بها ، فإنه إن أمسك عنه رحمته وتوفيقه وهدايته طرفة عين خسر وهلك .

فصل

وأما اللوامة

فاختلف فى اشتقاق هذه اللفظة ، هل هى من التلوم ، وهو التلون والتردد ، أو هى من اللوم ؟ وعبارات السلف تدور على هذين المعنيين .

قال سعيد بن جبير « قلت لابن عباس : ما اللوامة ؟ قال : هى النفس اللؤوم » .

وقال مجاهد « هى التى تُنَدَّم على مافات وتلوم عليه » .

وقال قتادة « هى الفاجرة » وقال عكرمة « تلوم على الخير والشر » وقال عطاء عن ابن عباس « كل نفس تلوم نفسها يوم القيامة ، تلوم المحسن نفسه أن لا يكون ازداد إحسانا ، وتلوم المسىء نفسه أن لا يكون رجع عن إساءته » .

وقال الحسن « إن المؤمن ــ والله ــ ماتراه إلا يلوم نفسه على كل حالاته ، يستقصرها فى كل مايفعل فيندم ويلوم نفسه ، وإن الفاجر لَيَمْضِى قدُمًا لا يعاتب نفسه » .

فهذا عبارات من ذهب إلى أنها من اللوم .

وأما من جعلها من التلوم فلكثرة ترددها وتلومها ، وأنها لاتستقر على حال واحدة .

والأول أظهر ؛ فإن هذا المعنى لوأريد لقيل : المتلومة . كما يقال : المتلونة والمترددة . ولكن هو من لوازم القول الأول ،فإنها لتلومها وعدم ثباتها تفعل الشيء ثم تلوم عليه . فالتلوّم من لوازم اللوم .

والنفس قد تكون تارة أمارة ، وتارة لوامة ، وتارة مطمئنة ، بل فى اليوم الواحد والساعة الواحدة يحصل منها هذا وهذا . والحكم للغالب عليها من أحوالها ، فكونها مطمئنة وصف مدح لها . وكونها أمّارة بالسوء وصف ذم لها . وكونها لوامة ينقسم إلى المدح والذم ، بحسب ماتلوم عليه .

والمقصود : ذكر علاج مرض القلب باستيلاء النفس الأمارة عليه . وله علاجان :

محاسبتها ، ومخالفتها ، وهلاك القلب من إهمال محاسبتها ، ومن موافقتها واتباع هواها ، وفى الحديث الذى رواه أحمد وغيره من حديث شداد بن أوس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الكَيِّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنَّى على الله » دان نفسه : أى حاسبها .

وذكر الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال « حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا ، فإنه أهون عليكم فى الحساب غدا أن تحاسبوا أنفسكم اليوم ، وتَزَيَّنوا للعرض الأكبر يومئذ تعرضون لاتخفى منكم خافية » .

وذكر أيضاً عن الحسن قال « لاتلقى المؤمن إلا يحاسب نفسه : وماذا أردت تعملين ؟ وماذا أردت تأكلين ؟ وماذا أردت تشربين[١] ، والفاجر يمضى قُدُمًا قدما لايحاسب نفسه »

وقال قتادة فى قوله تعالى (« ١٨ : ٢٨ » وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا») : أضاع نفسه وغبن ، مع ذلك تراه حافظا لماله مضيعا لدينه .

وقال الحسن : « إن العبد لا يزال بخير ما كان له واعظ من نفسه ، وكانت المحاسبة من همته » .

---

(١) فى نسخة « ماذا أردت بكلمتى ، وماذا أردت بأكلتى ، وماذا أردت بشربتى ؟ » .

وقال ميمون بن مهران « لا يكون العبد تقيا حتى يكون لنفسه أشد محاسبة من الشريك لشريكه ؛ ولهذا قيل : النفس كالشريك الخوّان ، إن لم تحاسبه ذهب بمالك » .

وقال ميمون بن مهران أيضا « إن التقى أشد محاسبة لنفسه من سلطان عاص ، ومن شريك شحيح » .

وذكر الإمام أحمد عن وهب قال « مكتوب فى حكمة آل داود : حق على العاقل : أن لايغفل عن أربع ساعات: ساعة يناجى فيها ربه ، وساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة يخلو فيها مع إخوانه الذين يخبرونه بعيوبه ويصدقونه عن نفسه ، وساعة يتخلى فيها بين نفسه وبين لذاتها فيما يحل ويجمل ، فإن فى هذه الساعة عوناً على تلك الساعات ، وإجماماً للقلوب » وقد روى هذا مرفوعاً من كلام النبي صلى الله عليه وسلم . رواه أبو حاتم وابن حبان وغيره .

وكان الأحنف بن قيس يجىء إلى المصباح ، فيضع أصبعه فيه ، ثم يقول : حِسّ ياحنيف ما حملك على ما صنعت يوم كذا ؟ ما حملك على ما صنعت يوم كذا ؟ .

وكتب عمر بن الخطاب إلى بعض عماله « حاسب نفسك فى الرخاء قبل حساب الشدة ، فإن من حاسب نفسه فى الرخاء قبل حساب الشدة عاد أمره إلى الرضى والغبطة ، ومن ألهته حياته وشغلته أهواؤه عاد أمره إلى الندامة والخسارة »

وقال الحسن : « المؤمن قَوّام على نفسه ، يحاسب نفسه لله ، وإنما خفّ الحساب يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم فى الدنيا ، وإنما شقّ الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة . إن المؤمن يفاجئه الشىء ويعجبه ، فيقول : والله إنى لأشتهيك . وإنك لمن حاجتى ، ولكن والله مامن صلة إليك ، هيهات هيهات . حيل بينى وبينك ، ويفرط منه الشىء فيرجع إلى نفسه ، فيقول : ما أردت إلى هذا ؟ مالى ولهذا ؟ والله لا أعود إلى هذا أبداً ، إن المؤمنين قوم أوقفهم القرآن وحال بينهم وبين هلكتهم ، إن المؤمن أسير فى الدنيا يسعى فى فكاك رقبته ، لا يأمن شيئاً حتى يلقى الله ؛ يعلم أنه مأخوذ عليه فى سمعِهِ وفى بصره ، وفى لسانه ، وفى جوارحه ، مأخوذ عليه فى ذلك كله » .

قال مالك بن دينار « رحم الله عبداً قال لنفسه : ألست صاحبة كذا ؟ ألست صاحبة كذا ؟ ثم زمها ، ثم خطمها ، ثم ألزمها كتاب الله عز وجل ، فكان لها قائداً » .

وقد مثلت النفس مع صاحبها بالشريك فى المال ، فكما أنه لا يتم مقصود الشركة من

الربح إلا بالمشارطة على ما يفعل الشريك أولا ، ثم بمطالعة ما يعمل ، والإشراف عليه ومراقبته ثانياً ، ثم بمحاسبته ثالثاً ، ثم بمنعه من الخيانة إن أطلع عليه رابعاً ، فكذلك النفس : يشارطها أولا على حفظ الجوارح السبعة التي حفظها هو رأس المال . والربح بعد ذلك ، فمن ليس له رأس مال ، فكيف يطمع في الربح ؟ وهذه الجوارح السبعة[1] ، وهي العين ، والأذن ، والفم ، والفرج ، واليد ، والرجل : هي مراكب العطب والنجاة ، فمنها عطب من عطب بإهمالها . وعدم حفظها ، ونجا من نجا بحفظها ومراعاتها ، فحفظها أساس كل خير ، وإهمالها أساس كل شر . قال تعالى (« ٢٤ : ٣٠ » قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ) ، وقال تعالى (« ١٧ : ٣٧ » وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا) ، وقال : « ١٧ : ٣٦ » وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا) ، وقال («١٧:٥٣» وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) وقال : (« ٣٣ : ٧٠ » يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا) ، وقال («٥٩ : ١٨» يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ) .

فإذا شارطها على حفظ هذه الجوارح انتقل منها إلى مطالعتها والإشراف عليها ومراقبتها ، فلا يهملها ، فإنه إن أهملها لحظة رتعت في الخيانة ولا بد ، فإن تمادى على الإهمال تمادت في الخيانة حتى تُذْهِبَ رأس المال كله ، فمتى أحسَّ بالنقصان انتقل إلى المحاسبة ؛ فحينئذ يتبين له حقيقة الربح والخسران ، فإذا أحس بالخسران وتيقنه استدرك منها ما يستدركه الشريك من شريكه : من الرجوع عليه بما مضى ، والقيام بالحفظ والمراقبة في مراقبته ومحاسبته ، وليحذر من إهماله

ويعينه على هذه المراقبة والمحاسبة : معرفته أنه كلما اجتهد فيها اليوم استراح منها غداً إذا صار الحساب إلى غيره ، وكلما أهملها اليوم اشتد عليه الحساب غداً .

ويعينه عليها أيضاً : معرفته أن ربح هذه التجارة سكنى الفردوس ، والنظر إلى وجه الرب سبحانه ، وخسارتها : دخول النار والحجاب عن الرب تعالى ، فإذا تيقن هذا هان عليه الحساب اليوم ؛ فحق على الحازم المؤمن بالله واليوم الآخر أن لا يغفل عن محاسبة نفسه والتضييق عليها في حركاتها وسكناتها وخطراتها وخطواتها ، فكل نَفَسٍ من أنفاس العمر جوهرة نفيسة

(١) كذا ، ولم يذكر السابعة .

لاحظَّ لها يمكن أن يشترى بها كنز من الكنوز لايتناهى نعيمه أبد الآباد . فإضاعة هذه الأنفاس ، أو اشتراء صاحبها بها مايجلب هلاكه : خسران عظيم لايسمح بمثله إلاأجهل الناس وأحمقهم وأقلهم عقلا . وإنما يظهر له حقيقة هذا الخسران يوم التغابن (« ٣ : ٣٠» يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَاعَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَاعَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا و بَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا)

فصـــل

ومحاسبة النفس نوعان :

نوع قبل العمل ، ونوع بعده .

فأما النوع الأول : فهو أن يقف عند أول هَمّه و إرادته ، ولايبادر بالعمل حتى يتبين له رجحانه على تركه .

قال الحسن رحمه الله « رحم الله عبدا وقف عند هَمّه ، فإن كان لله مضى ، و إن كان لغيره تأخر » .

وشرح هذا بعضهم فقال : إذا تحركت النفس لعمل من الأعمال وَهَمَّ به العبد ، وقف أوّلا ونظر : هل ذلك العمل مقدور له أو غير مقدور ولا مستطاع ؟ فإن لم يكن مقدورا لم يقدم عليه ، و إن كان مقدورا وقف وقفة أخرى ونظر : هل فعلُه خير له من تركه ، أو تركه خير له من فعله ؟ فإن كان الثانى تركه ولم يقدم عليه ، و إن كان الأول وقف وقفة ثالثة ونظر : هل الباعث عليه إرادة وجه الله عز وجل وثوابه أو إرادة الجاه والثناء والمال من المخلوق ؟ فإن كان الثانى لم يقدم عليه ، و إن أفضى به إلى مطلوبه ، لئلا تعتاد النفس الشرك . ويخفّ عليها العمل لغير الله ، فبقدر مايخف عليها ذلك يثقل عليها العمل لله تعالى ، حتى يصير أثقل شيء عليها ، و إن كان الأول وقف وقفة أخرى ، ونظر : هل هو مُعان عليه ، وله أعوان يساعدونه وينصرونه إذا كان العمل محتاجا إلى ذلك أم لا ؟ فإن لم يكن له أعوان أمسك عنه ، كما أمسك النبى صلّى الله عليه وسلّم عن الجهاد بمكة حتى صار له شَوْكة وأنصار .

و إن وجده مُعانا عليه فليقدم عليه فإنه منصور ، ولا يفوت النجاح إلا مَنْ فَوَّتَ خصلة من هذه الخصال ، و إلا فمع اجتماعها لايفوته النجاح .

فهذه أربع مقامات يحتاج إلى محاسبة نفسه عليها قبل العمل ؛ فما كل مايريد العبد فعله يكون مقدورا له ، ولا كل مايكون مقدورا له يكون فعله خيرا له من تركه ، ولا كل مايكون فعله خيرا له من تركه يفعله لله ، ولا كل مايفعله لله يكون معانا عليه ، فإذا حاسب نفسه على ذلك تبين له مايقدم عليه ، ومايحجم عنه .

فصـــــل

النوع الثانى : محاسبة النفس بعد العمل ، وهو ثلاثة أنواع :

أحـدها : محاسبتها على طاعة قصَّرت فيها من حق الله تعالى ؛ فلم توقعها على الوجه الذى ينبغى .

وحق الله تعالى فى الطاعة ستة أمور تقدمت ، وهى : الإخلاص فى العمل ، والنصيحة لله فيه ، ومتابعة الرسول فيه ، وشهود مشهد الإحسان فيه ، وشهود مِنَّة الله عليه ، وشهود تقصيره فيه بعد ذلك كله .

فيحاسب نفسه : هل وَفَّى هذه المقامات حقها ؛ وهل أتى بهافى هذه الطاعة ؟

الثانى : أن يحاسب نفسه على كل عمل كان تركُه خيرا له من فعله .

الثالث : أن يحاسب نفسه على أمر مباح ، أومعتاد : لِمَ فعله ؟ وهل أراد به الله والدار الآخرة ؟ فيكون رابحا ، أو أراد به الدنيا وعاجلها ؛ فيخسر ذلك الربح و يفوته الظفر به .

فصـــــل

وأخر ما عليه الإهمال ، وترك المحاسبة والاسترسال ، وتسهيل الأمور وتمشيتها ، فإن هذا يؤول به إلى الهلاك ، وهذه حال أهل الغرور : يغمض عينيه عن العواقب ، ويُمَشِّى الحال ، ويتكل على العفو ؛ فيهمل محاسبة نفسه والنظر فى العاقبة . و إذا فعل ذلك سهل عليه مواقعة

الذنوب ، وأنس بها ، وعسر عليها فِطَامها ، ولو حضره رشده لعلم أن الحمية أسهل من الفطام وترك المـألوف والمعتاد .

قال ابن أبي الدنيا : حدثني رجل من قريش ، ذكر أنه من ولد طلحة بن عبيد الله قال : كان تَوْبَةُ بن الصِّمَّة بالرَّقَّةِ ، وكان محاسباً لنفسه ، فحسب يوما ، فإذا هو ابن ستين سنة ، فحسب أيامها ، فإذا هى أحد وعشرون ألف يوم وخمسمائة يوم ، فصرخ ، وقال : يا ويلتى ! ألقى ربى بأحد وعشرين ألف ذنب ؟ كيف وفى كل يوم آلاف من الذنوب ؟ . ثم خرَّ مَغْشيًا عليه ، فإذا هو ميت ، فسمعوا قائلا يقول: « يالكِ رَكْضَةً إلى الفردوس الأعلى»

وجماع ذلك : أن يحاسب نفسه أولا على الفرائض ، فإن تذكر فيها نقصاً تداركه ، إما بقضاء أو إصلاح .ثم يحاسبها على المناهى ، فإن عرف أنه ارتكب منها شيئاً تداركه بالتوبة والاستغفار والحسنات الماحية . ثم يحاسب نفسه على الغفلة ، فإن كان قد غفل عما خلق له تداركه بالذكر والإقبال على الله تعالى . ثم يحاسبها بما تكلم به ، أو مشت إليه رجلاه ، أو بطشت يداه ، أو سمعته أذناه : ما ذا أرادت بهذا ؟ ولمن فعلته ؟ وعلى أى وجه فعلته ؟ ويعلم أنه لا بد أن يُنشر لكل حركة وكلمة منه ديوانان : ديوان لمن فعلتَه ؟ وكيف فعلتَه ؟ فالأول سؤال عن الإخلاص ، والثانى سؤال عن المتابعة ، وقال تعالى (« ١٥ : ٩٢ » فَوَرَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ « ٩٣ » عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ) وقال تعالى (« ٧ : ٦ » فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ « ٧ » فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ) ، وقال تعالى : (« ٣٣ : ٨ » لِيَسْئَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ) .

فإذا سئل الصادقون وحوسبوا على صدقهم فما الظن بالكاذبين ؟

قال مقاتل يقول تعالى : أخذنا ميثاقهم لكى يسأل الله الصادقين – يعنى النبيين – عن تبليغ الرسالة » وقال مجاهد « يسأل المبلغين المؤدين عن الرسل – يعنى : هل بلغوا عنهم – كما يسأل الرسل ، هل بلغوا عن الله تعالى ؟ »

والتحقيق : أن الآية تتناول هذا وهذا ، فالصادقون هم الرسل ، والمبلغون عنهم ، فيسأل الرسل عن التبليغ ويسأل المبلغين عنهم عن تبليغ مابلغهم الرسل ، ثم يسأل الذين بلغتهم الرسالة ماذا أجابوا المرسلين ، كما قال تعالى : (« ٢٨ : ٦٥ » وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ) .

قال قتادة : كلمتان يسأل عنهما الأولون والآخرون : ماذا كنتم تعبدون ؟ وماذا أجبتم المرسلين ؟ فيسأل عن المعبود وعن العبادة .

وقال تعالى (« ١٠٢ : ٨ » ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ) قال محمد بن جرير : يقول تعالى : ثم ليسألنكم الله عز وجل عن النعيم الذى كنتم فيه فى الدنيا : ماذا عملتم فيه ؟ من أين وصلتم إليه ؟ وفيم أصبتموه ؟ وماذا عملتم به ؟

وقال قتادة « إن الله سائل كل عبد عما استودعه من نعمه وحقه »

والنعيم المسئول عنه نوعان : نوع أخذ من حله وصرف فى حقه ، فيسأل عن شكره . ونوع أخذ بغير حله وصرف فى غير حقه ، فيسأل عن مستخرجه ومصرفه .

فإذا كان العبد مسئولا ومحاسبا على كل شىء ، حتى على سمعه وبصره وقلبه ، كما قال تعالى : (« ١٧ : ٣٤ » إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً) ؛ فهو حقيق أن يحاسب نفسه قبل أن يناقش الحساب .

وقد دل على وجوب محاسبة النفس قوله تعالى (« ٥٩ : ١٨ » يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ) يقول تعالى : لينظر أحدكم ما قدم ليوم القيامة من الأعمال : أمن الصالحات التى تنجيه ، أم من السيئات التى توبقه ؟

قال قتادة « مازال ربكم يقرب الساعة حتى جعلها كغد » .

والمقصود أن صلاح القلب بمحاسبة النفس ، وفساده بإهمالها والاسترسال معها .

فصل

وفى محاسبة النفس عدة مصالح

منها : الاطلاع على عيوبها ، ومن لم يطلع على عيب نفسه لم يمكنه إزالته ، فإذا اطلع على عيبها مقتها فى ذات الله تعالى .

وقد روى الإمام أحمد عن أبى الدرداء رضى الله عنه قال « لا يَفقَهُ الرجل كل الفقه حتى يمقت الناس فى جنب الله ، ثم يرجع إلى نفسه فيكون لها أشد مقتاً » .

وقال مُطَرِّف بن عبد الله « لولا ما أعلم من نفسى لقَلَيْتُ الناس » .

وقال مصرف فى دعائه بعرفة « اللهم لا ترد الناس لأجلى » .

وقال بَكْرُ بن عبد الله المُزَنِى « لما نظرت إلى أهل عرفات ظننت أنهم قد غفر لهم ، لولا أنى كنت فيهم » .

وقال أيوب السَّختيانى « إذا ذكر الصالحون كنتُ عنهم بمعزِل » .

ولما احْتُضِرَ سفيان الثورى دخل عليه أبو الأشهب[1] ، وحماد بن سلمة ، فقال له حماد : « يا أبا عبد الله ، أليس قد أمنت مما كنت تخافه ؟ وتقدم على من ترجوه ، وهو أرحم الراحمين ، فقال : يا أبا سلمة ، أتطمع لمثلى أن ينجو من النار ؟ قال : إى والله ، إنى لأرجو لك ذلك » .

وذكر عن مسلم بن سعيد الواسطى قال : أخبرنى حَمَّاد بن جعفر بن زيد : أن أباه أخبره قال : « خرجنا فى غَزَاةٍ إلى كابُل ، وفى الجيش : صِلة بن أشْيَم ؛ فنزل الناس عند العتمة ، فصلوا ثم اضطجع فقلت : لأرمقَنّ عمله ، فالتمسَ غفلة الناس ، حتى إذا قلت : هَدأت العيون وَثَبَ فدخل غَيْضَةً[2] قريبا منا ، فدخلت على أثره ، فتوضأ ، ثم قام يصلى ، وجاء أسد حتى دنا منه ، فصعدت فى شجرة فتراهُ التفت أوعَدَّهُ جرْوا ؟ فلما سجدقلت : الآن يفترسه ، فجلس ثم سلم ، ثم قال : أيها السبع ، أطلب الرزق من مكان آخر . فولَّى وإن له لزئيرا ، أقول : تصدّع الجبال منه . قال : فمازال كذلك يصلى حتى كان عند الصبح جلس ، فحمد الله تعالى بمحامد لم أسمع بمثلها ، ثم قال : اللهم إنى أسألك أن تجيرنى من النار ، ومثلى يصغر أن يجترئ أن يسألك الجنة ؛ قال : ثم رجع وأصبح كأنه بات على الحشايا ، وأصبحت وبى من الفترة شىء الله به عالم » .

وقال يونس بن عبيد « إنى لأجد مائة خصلة من خصال الخير ، ما أعلم أن فى نفسى منها واحدة » .

وقال محمد بن واسع « لو كان للذنوب ريح ماقدر أحد يجلس إلىّ »

وذكر ابن أبى الدنيا عن الخلد بن أيوب قال « كان راهب فى بنى إسرائيل فى صومعة

---

(١) أبو الأشهب البصرى : جعفر بن حيان التيمى السعدى العطاردى الحذاء الاعمى مات سنة ١٦٢ عن خمس وتسعين .

(٢) الغيضة : الأجمة ، ومجتمع الأشجار .

منذ ستين سنة . فأُتِىَ فى منامه . فقيل له : إن فلانا الإسكافى خير منك ـ ليلة بعد ليلة ـ فأتى الإسكافى ، فسأله عن عمله . فقال : إنى رجل لايكاد يمر بى أحد إلا ظننت أنه فى الجنة وأنا فى النار ، ففضل على الراهب بإزرائه على نفسه »

وذكر داود الطائى عند بعض الأمراء . فأثنوا عليه ، فقال « لو يعلم الناس بعض مانحن فيه ماذلّ لنا لسان بذكر خير أبداً » .

وقال أبو حفص « من لم يتهم نفسه على دوام الأوقات ، ولم يخالفها فى جميع الأحوال ، ولم يجرها إلى مكروهها فى سائر أوقاته ؛ كان مغروراً ، ومن نظر إليها باستحسان شىء منها فقد أهلكها »

فالنفس داعية إلى المهالك ، معينة للأعداء ، طامحة إلى كل قبيح ، متبعة لكل سوء ، فهى تجرى بطبعها فى ميدان المخالفة .

فالنعمة التى لاخطر لها : الخروج منها ، والتخلص من رقها ، فإنها أعظم حجاب بين العبد و بين الله تعالى ، وأعرف الناس بها أشدهم إزراء عليها ، ومقتاً لها .

قال ابن أبى حاتم فى تفسيره : حدثنا على بن الحسين المقدمى ، حدثنا عامر بن صالح عن أبيه عن ابن عمر : أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : « اللهم اغفر لى ظلمى وكفرى ، فقال قائل : يا أمير المؤمنين ، هذا الظلم ، فما بال الكفر ؟ قال : إن الإنسان لظلوم كفار » .

قال : وحدثنا يونس بن حبيب ، حدثنا أبو داود ، عن الصلت بن دينار ، حدثنا عُقْبة ابن صهبان الهنائى قال « سألت عائشة رضى الله عنها عن قول الله عز وجل (« ٣٥ : ٣٢ » ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ، فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ، وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ ، وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ) ، فقالت : يابنىّ ، هؤلاء فى الجنة ، أما السابق بالخيرات فمن مضى على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة والرزق[1] ، وأما المقتصد فمن اتبع أثره من أصحابه حتى لحق به ، وأما الظالم لنفسه فمثلى ومثلكم ، فجعلتْ نفسها معنا[2] » .

---

(١) وفى تفسير الحافظ ابن كثير فى سورة فاطر « شهد له رسول الله بالحياة والرزق » .

(٢) إنما تقول السيدة الصديقة بنت الصديق هذا تواضعاً ، وإلا فهى من خيار السابقين المقربين .

وقال الإمام أحمد : حدثنا حجاج حدثنا شريك عن عاصم عن أبى وائل عن مسروق ، قال : دخل عبد الرحمن على أم سلمة رضى الله عنها ، فقالت « سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول : إِنَّ مِنْ أَصْحَابِي لَمَنْ لا يَرَانِي بَعْدَ أَنْ أَمُوتَ أَبَدًا فَخَرَجَ عَبْدُ الرَّحْمٰنِ مِنْ عِنْدِهَا مَذْعُوراً ، حَتَّى دَخَلَ عَلَى عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ . فَقَالَ له : اسْمَعْ مَاتَقُولُ أُمُّكَ ، فَقَامَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حَتَّى أَتَاهَا فَدَخَلَ عَلَيْهَا ، فَسَأَلَهَا ، ثُمَّ قَالَ : أَنْشُدُكِ بِاللهِ ، أَمِنْهُمْ أَنَا ؟ قَالَتْ : لاَ ، وَلَنْ أُبَرِّئَ بَعْدَكَ أَحَداً[1] » .

فسمعت شيخنا يقول : إنما أرادت أنى لا أفتح عليها هذا الباب ، ولم ترد أنك وحدك البرىء من ذلك دون سائر الصحابة .

ومقت النفس فى ذات الله من صفات الصديقين ، ويدنو العبد به من الله تعالى فى لحظة واحدة أضعاف أضعاف مايدنو بالعمل .

ذكر ابن أبى الدنيا عن مالك بن دينار قال « إن قوما من بنى إسرائيل كانوا فى مسجد لهم فى يوم عيد ، فجاء شاب حتى قام على باب المسجد ، فقال : ليس مثلى يدخل معكم ، أنا صاحب كذا ، أنا صاحب كذا ، يزرى على نفسه ، فأوحى الله عز وجلّ إلى نبيهم : أن فلانا صديق » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن الحسن بن أنس حدثنا منذر عن وهب « أن رجلا سائحا عبد الله عز وجل سبعين سنة ، ثم خرج يوماً فقلَّل عمله وشكا إلى الله تعالى منه ، واعترف بذنبه فأتاه آتٍ من الله فقال : إن مجلسك هذا أحب إلىّ من عملك فيما مضى من عمرك » .

قال أحمد : وحدثنا عبد الصمد ــ أبو هلال ــ عن قتادة قال : قال عيسى بن مريم عليه السلام « سلونى ، فإنى ليِّن القلب ، صغير عند نفسى » .

---

(١) بالبحث وجدته فى المسند (ج ٥ ص ٢٩٠) حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن شقيق عن أم سلمة قالت «دخل عليها عبد الرحمن بن عوف قال فقال يا أمه قد خفت أن يهلكنى كثرة مالى أنا أكثر قريش مالاً قالت : يابنىّ فانفق فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن من أصحابى من لايرانى بعد أن أفارقه فخرج فلقى عمر فأخبره . فجاء عمر فدخل عليها فقال لها : بالله منهم أنا ؟ فقالت :لا ولن أبرئ أحداً بعدك » وفى صفحة (٣٠٧) عن الأعمش عن أبى وائل قال « دخل عبد الرحمن بن عوف على أم سلمة فقالت له : إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إن من أصحابى ــ الحديث » .

وذكر أحمد أيضا عن عبد الله بن رياح الأنصارى قال « كان داود عليه السلام ينظر أغمص حَلْقَةٍ فى بنى إسرائيل فيجلس بين ظهرانيهم ، ثم يقول : يارب مسكين بين ظهرانى مساكين » .

وذكر عن عمران بن موسى القصير قال : قال موسى عليه السلام « يارب ، أين أبغيك ؟ قال : ابغنى عند المنكسرة قلوبهم ، فإنى أدنو منهم كل يوم باعا ، ولولا ذلك انهدموا » .

وفى كتاب الزهد للإمام أحمد « أن رجلا من بنى إسرائيل تعبد ستين سنة فى طلب حاجة ، فلم يظفر بها ، فقال فى نفسه : والله لو كان فيك خير لظفرت بحاجتك ، فأُتى فى منامه ، فقيل له : أرأيت ازدراءك نفسك تلك الساعة ؟ فإنه خير من عبادتك تلك السنين »

ومن فوائد محاسبة النفس : أنه يعرف بذلك حق الله تعالى . ومن لم يعرف حق الله تعالى عليه فإن عبادته لا تكاد تُجدى عليه ، وهى قليلة المنفعة جدا .

وقد قال الإمام أحمد : حدثنا حجاج حدثنا جرير بن حازم عن وهب قال : « بلغنى أن نبى الله موسى عليه السلام مر برجل يدعو ويتضرع ، فقال : يارب ارحمه ، فإنى قد رحمته فأوحى الله تعالى إليه : لو دعانى حتى ينقطع قواه مااستجيب له حتى ينظر فى حق عليه »

فمن أنفع ماللقلب النظر فى حق الله على العباد ، فإن ذلك يورثه مقت نفسه ، والإزراء عليها ويخلصه من العجب ورؤية العمل ، ويفتح له باب الخضوع والذل والانكسار بين يدى ربه ، واليأس من نفسه ، وأن النجاة لا تحصل له إلا بعفو الله ، ومغفرته ورحمته ، فإن من حقه أن يُطَاع ولا يعصى ، وأن يذكر فلا ينسى ، وأن يشكر فلا يكفر .

فمن نظر فى هذا الحق الذى لربه عليه عَلِم عِلْم اليقين أنه غير مؤد له كما ينبغى ، وأنه لايسعه إلا العفو والمغفرة ، وأنه إن أحيل على عمله هلك .

فهذا محل نظر أهل المعرفة بالله تعالى وبنفوسهم ، وهذا الذى أيأسهم من أنفسهم ، وعلق رجاءهم كله بعفو الله ورحمته .

وإذا تأملت حال أكثر الناس وجدتهم بضد ذلك ، ينظرون فى حقهم على الله ، ولا ينظرون فى حق الله عليهم . ومن هٰهنا انقطعوا عن الله ، وحجبت قلوبهم عن معرفته ومحبته والشوق إلى لقائه والتنعم بذكره ، وهذا غاية جهل الإنسان بربه وبنفسه .

فمحاسبة النفس هو نظر العبد فى حق الله عليه أولا ، ثم نظره : هل قام به كما ينبغى

ثانيا ، وأفضل الفكرِ الفكرُ فى ذلك ، فإنه يسير القلب إلى الله ويطرحه بين يديه ذليلا ، خاضعا منكسرا كسرا فيه جبره ، ومفتقرا فقرا فيه غناه ، وذليلا ذلا فيه عزه ، ولو عمل من الأعمال ماعساه أن يعمل ، فإنه إذا فاته هذا ، فالذى فاته من البر أفضل من الذى أتى .

وقال الإمام أحمد : حدثنا ابن القاسم حدثنا صالح المدنى عن أبى عمران الجَوْنى عن أبى الخلد أن الله تعالى أوحى إلى موسى عليهِ السلام : « إذا ذكرتنى فاذكرنى وأنت تنتفض أعضاؤك ، وكن عند ذكرى خاشعا مطمئنا ، وإذا ذكرتنى فاجعل لسانك من وراء قلبك ، وإذا قمت بين يدىّ فقم مقام العبد الحقير الذليل ، وذم نفسك فهى أولى بالذم ، وناجنى حين تناجينى بقلب وَجِل ولسان صادق .

ومن فوائد نظر العبد فى حق الله عليه

أن لايتركه ذلك يدِلّ بعمل أصلا ، كائنا ما كان ، ومن أدَلّ بعمله لم يصعد إلى الله تعالى ، كما ذكر الإمام أحمد عن بعض أهل العلم بالله أنه قال له رجل : إنى لأقوم فى صلاتى فأبكى حتى يكاد ينبت البَقْل من دموعى . فقال له : إنك أن تضحك وأنت تعترف لله بخطيئتك خير من أن تبكى وأنت مُدِلّ بعملك ؛ فإن صلاة الدال لاتصعد فوقه .

فقال له : أوصنى . قال : عليك بالزهد فى الدنيا وأن لاتنازعها أهلها ، وأن تكون كالنّحلة إن أكلت أكلت طيباً ، وإن وضعت وضعت طيباً ، وإن وقعت على عود لم تضره ولم تكسره ، وأوصيك بالنصح لله عز وجل نصح الكلب لأهله ، فإنهم يجيعونه ويطردونه ويأبى إلا أن يحوطهم وينصحهم

ومن هنا أخذ الشاطبى قوله :

وقدقيل: كن كالكلب يقصيه أهله ... ولا يأتَلِى فى نصحهم متبذلا

وقال الإمام أحمد : حدثنا سيار حدثنا جعفر حدثنا الجُرَيرى قال « بلغنى أن رجلا من بنى إسرائيل كانت له إلى الله عز وجل حاجة ، فتعبد واجتهد ، ثم طلب إلى الله تعالى حاجته ، فلم ير نجاحا ، فبات ليلة مزريا على نفسه ، وقال : يانفس ، مالكِ لاتقضى حاجتك ؟ فبات محزونا قد أزرى على نفسه وألزم إطلاقه نفسه ، فقال : أما والله مامن قِبَلِ ربى أتيت ولكن من قِبَلِ نفسى أتيت ، وألزم نفسه اللامة ، فقضيت حاجته » .

الباب الثاني عشر

فى علاج مرض القلب بالشيطان

هذا الباب من أهم أبواب الكتاب وأعظمها نفعاً ، والمتأخرون من أرباب السلوك لم يعتنوا به اعتناءهم بذكر النفس وعيوبها وآفاتها ، فإنهم توسعوا فى ذلك ، وقصروا فى هذا الباب .

ومن تأمل القرآن والسنة وجد اعتناءهما بذكر الشيطان وكيده ومحاربته أكثر من ذكر النفس ، فإن النفس المذمومة ذكرت فى قوله (« ١٢ : ٥٣ » إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ) واللوامة فى قوله (« ٧٥ : ٢ » وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ) وذكرت النفس المذمومة فى قوله (« ٧٩ : ٤٠ » وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى) ، وأما الشيطان فذُكر فى عدة مواضع ، وأفردت له سورة تامة[1] . فتحذير الرب تعالى لعباده منه جاء أكثر من تحذيره من النفس ، وهذا هو الذى لاينبغى غيره ؛ فإن شر النفس وفسادها ينشأ من وسوسته ، فهى مركَبُه وموضع شره ، ومحل طاعته ، وقد أمر الله سبحانه بالاستعاذة منه عند قراءة القرآن وغير ذلك ، وهذا لشدة الحاجة إلى التعوذ منه ، ولم يأمر بالاستعاذة من النفس فى موضع واحد ، وإنما جاءت الاستعاذة من شرها فى خطبة الحاجة فى قوله صلى الله عليه وسلم « ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا » كما تقدم ذلك فى الباب الذى قبله .

وقد جمع النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم بين الاستعاذة من الأمرين فى الحديث الذى رواه الترمذى وصححه عن أبى هريرة رضى الله عنه « أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه قال : يارسول الله ، علمنى شيئاً أقوله إذا أصبحت وإذا أمسيت ، قال: قل : اللهم عالمَ الغيب والشهادة فاطر السموات والأرض ربَّ كل شىء ومليكه . أشهد أن لا إله إلا أنت أعوذ بك من شر نفسى وشر الشيطان وشِرْكه[2] وأن أقترف على نفسى سوءاً أو أجُرَّه إلى مسلم قُلْهُ إذا أصبحت وإذا أمسيت وإذا أخذت مضجعك »

---

(١) لعلها سورة قل أعوذ برب الناس .

(٢) روى بكسر الشين وسكون الراء . وروى بفتحتين ، أى من حبائله وشباكه التى يصيد بها حزبه ،

فقد تضمن هذا الحديث الشريف الاستعاذة من الشر وأسبابه وغايته ، فإن الشر كله إما أن يصدر من النفس أو من الشيطان ، وغايته : إما أن تعود على العامل ، أو على أخيه المسلم ، فتضمن الحديث مصدرى الشر اللذين يصدر عنهما وغايتيه اللتين يصل إليهما .

فصـــل

قال تعالى (« ١٦ : ٩٨ ـ ١٠٠ » فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ . إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ)

ومعنى « استعذ بالله » امتنع به واعتصم به والجأ إليه ، ومصدره العَوْذ ، والعِيَاذ ، والمَعَاذ ، وغالب استعماله فى المستعاذ به ، ومنه قوله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم «لقد عذتِ بِمَعاذ[1]» وأصل اللفظة : من اللَّجَأ إلى الشىء والاقتراب منه ، ومن كلام العرب «أطيب اللحم عُوذه» أى الذى قد عاذ بالعظم واتصل به . وناقة عائذ : يعوذ بها ولدها ، وجمعها « عُوذ » كحُمْر . ومنه فى حديث الحُدَيبية «معهم العُوذ المطافيل[2]» والمطافيل :[جمع] مُطفِل ، وهى الناقة التى معها فصيلها .

قالت طائفة ـ منهم صاحب جامع الأصول ـ : استعار ذلك للنساء ، أى معهم النساء وأطفالهم . ولا حاجة إلى ذلك ، بل اللفظ على حقيقته ، أى قد خرجوا إليك بدوابهم

(١) تزوج النبىّ صلى الله عليه وسلم أسماء بنت النعمان بن الجون الكندية فلما دخل عليها قالت : أعوذ بالله منك . فقال : لقد عذت بعظيم ، الحقى بأهلك» ويقال : اسمها أميمة بنت النعمان . وروى البخارى عن أبى أسيد قال « خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى انطلقنا إلى حائط يقال لها الشوط حتى انتهينا إلى حائطين جلسنا بينهما فقال : اجلسوا ههنا ، فدخل ، وقد أتى بالجونية فأنزلت فى نخل فى بيت أميمة بنت النعمان ابن شراحيل ومعها دايتها حاضنة لها . فلما دخل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : هبى لى نفسك . قالت : وهل تهب الملكة نفسها للسوقة ؟ قال : فأهوى بيده عليها لتسكن . فقالت : أعوذ بالله منك . فقال لقد عذت بمعاذ ، ثم خرج علينا فقال : ياأبا أسيد اكسها فكساها دراعيته وألحقها بأهلها » .

(٢) قال البخارى فى سياق قصة الحديبية ـ وقد نزل النبىّ صلى الله عليه وسلم فيها على ثمد من الماء ـ فبينا هم كذلك إذ جاء بديل بن ورقاء الخزاعى فى نفر من قومه من خزاعة ـ وكانوا عيبة نصح رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل تهامة ـ فقال : إنى تركت كعب بن لؤى وعامر بن لؤى نزلوا أعداد مياه الحديبية معهم العوذ المطافيل ، وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت » .

ومراكبهم حتى أخرجوا معهم النوق التى معها أولادها ، فأمر سبحانه بالاستعاذة به من الشيطان عند قراءة القرآن . وفى ذلك وجوه :

منها : أن القرآن شفاء لما فى الصدور يُذهِب لما يلقيه الشيطان فيها من الوساوس والشهوات والإرادات الفاسدة ، فهو دواء لما أمَرَّه فيها الشيطان ، فأمر أن يطرد مادة الداء ويُخلى منه القلب ليصادف الدواء محلا خاليا ، فيتمكّن منه ، ويؤثر فيه ، كما قيل .

أتانى هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلبا خاليا فتمكنا

فيجىء هذا الدواء الشافى إلى القلب قد خلا من مزاحم ومُضادٍ له فينجع فيه .

ومنها : أن القرآن مادة الهدى والعلم والخير فى القلب ، كما أن الماء مادة النبات ، والشيطان نار يحرق النبات أوّلا فأولا ، فكلما أحس بنبات الخير من القلب سعى فى إفساده وإحراقه ، فأمر أن يستعيذ بالله عز وجل منه لئلا يفسد عليه مايحصل له بالقرآن .

والفرق بين هذا الوجه والوجه الذى قبله ؛ أن الاستعاذة فى الوجه الأول لأجل حصول فائدة القرآن ، وفى الوجه الثانى لأجل بقائها وحفظها وثباتها .

وكأن من قال : إن الاستعاذة بعد القراءة لاَحَظَ هذا المعنى ، وهو لعمر الله مَلْحَظ جيد ، إلا أن السنة وآثار الصحابة إنما جاءت بالاستعاذة قبل الشروع فى القراءة . وهو قول جمهور الأمة من السلف والخلف ، وهو محصّل للأمرين .

ومنها : أن الملائكة تدنو من قارئ القرآن وتستمع لقراءته ، كما فى حديث أُسَيد بن حُضَير لما كان يقرأ ورأى مثلَ الظُّلَّة فيها مثل المصابيح ، فقال عليه الصلاة والسلام « تلك الملائكة[1] » والشيطان ضد الملك وعدوُّه . فأمر القارئ أن يطلب من الله تعالى مباعدة عدوه عنه حتى يحضره خاص ملائكته ، فهذه منزلة لايجتمع فيها الملائكة والشياطين .

---

(١) روى البخارى ومسلم عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه « أن أسيد بن حضير بينا هو ليلة يقرأ فى مربده إذ جالت فرسه فقرأ ، ثم جالت أخرى فقرأ ، ثم جالت أيضاً . قال أسيد : فخشيت أن تطأ يحى ، فقمت إليها . فإذا مثل الظلة فوق رأسى فيها أمثال السرج عرجت فى الجو حتى ما أراها . فغدوت على رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقلت : يا رسول الله بينا أنا البارحة فى جوف الليل أقرأ فى مربدى إذ جالت فرسى . فقال رسول الله : اقرأ ابن حضير ، قال : فقرأت ثم جالت أيضاً ، فقال رسول الله : اقرأ ابن حضير . قال : فانصرفت ـ وكان يحى قريباً منها ـ خشيت أن تطأه . فرأيت مثل الظلة فيها أمثال السرج عرجت فى الجو حتى ما أراها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : تلك الملائكة تستمع لك ولو قرأت لأصبحت يراها الناس ماتستتر منهم » الظلة : السحابة .

ومنها : أن الشيطان يُجْلِب على القارئ بخيله ورَجْله ، حتى يشغله عن المقصود بالقرآن . وهو تدبره وتفهمه ومعرفة ما أراد به المتكلم به سبحانه ، فيحرص بجهده على أن يحول بين قلبه و بين مقصود القرآن ؛ فلا يكمل انتفاع القارئ به ، فأمر عند الشروع أن يستعيذ بالله عز وجل منه .

ومنها : أن القارئ يناجى الله تعالى بكلامه ، والله تعالى أشد أَذَناً للقارئ الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القَيْنَة إلى قينته[1] ، والشيطان إنما قراءته الشعر والغناء ، فأمر القارئ أن يطرده بالاستعاذة عند مناجاة الله تعالى واستماع الرب قراءته .

ومنها : أن الله سبحانه أخبر أنه ما أرسل من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته ، والسلف كلهم على أن المعنى : إذا تلا ألقى الشيطان فى تلاوته . قال الشاعر فى عثمان .

تمنى كتاب الله أول ليـلهِ وآخره لاقى حمام المقادر

فإذا كان هذا فعله مع الرسل عليهم السلام فـكيف بغيرهم ؟ ولهذا يغلّط القارئ تارة و يخلط عليه القراءة ، و يشوشها عليه ، فيخبط عليه لسانه ، أو يشوش عليه ذهنه وقلبه ، فإذا حضر عند القراءة لم يعدم منه القارئ هذا ، أو هذا ؛ ور بما جمعهما له ، فـكان من أهم الأمور : الاستعاذة بالله تعالى منه.

ومنها : أن الشيطان أحرص ما يكون على الإنسان عند ما يهمُّ بالخير ، أو يدخل فيه . فهو يشتد عليه حينئذ ليقطعه عنه ، وفى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم « إن شيطاناً تَفَلَّتَ علىّ البارحة ، فأراد أن يقطع علىّ صلاتى ـ الحديث » وكلما كان الفعل أنفع للعبد وأحب إلى الله تعالى كان اعتراض الشيطان له أكثر . وفى مسند الإمام أحمد من حديث سَبْرة بن أبى الفاكِه أنه سمع النبى صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرافه ، فقعد له بطريق الاسلام ، فقال : أَتُسْلِم وَتَذَرَ دينك ودين آبائك وآباء آبائك ، فعصاه

---

(١) أى أن الله أشد استماعاً لقارئ القرآن . كما روى البخارى ومسلم عن أبى هريرة أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال « ما أذن الله بشىء كما أذن لنبىّ حسن الصوت يتغنى بالقرآن ، يجهر به » وروى أحمد وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه عن فضالة بن عبيد « لله أشد أذنا للرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة » وقال الحاكم : على شرط الشيخين « القينة » المغنية .

فأسلم ، ثم قعد له بطريق الهجرة ، فقال : أتهاجر وتَذَرَ أرضك وسماءك ؟ و إنما مثل المهاجر كالفَرَسِ فى الطِّوَل ، فعصاه وهاجر ، ثم قعد له بطريق الجهاد ــ وهو جهاد النفس والمال فقال : تقاتل فتُقتل ، فتنكحَ المرأة ويُقسم المال ؟ قال : فعصاه فجاهد[(١)] » .

فالشيطان بالرصيد للإنسان على طريق كل خير .

وقال منصور عن مجاهد رحمه الله « مامن رفقة تخرج إلى مكة إلا جهز معهم إبليس مثل عِدَّتِهم » رواه ابن أبى حاتم فى تفسيره ، فهو بالرصد ، ولاسيما عند قراءة القرآن ، فأمر سبحانه العبد أن يحاربَ عدوه الذى يقطع عليه الطريق و يستعيذ بالله تعالى منه أولاً ، ثم يأخذ فى السير ، كما أن المسافر إذا عرض له قاطع طريق اشتغل بدفعه ، ثم اندفع فى سيره .

ومنها : أن الاستعاذة قبل القراءة عنوان و إعلام بأن المأتىّ به بعدها القرآن ، ولهذا لم تشرع الاستعاذة بين يدى كلام غيره ، بل الاستعاذة مقدمة وتنبيه للسامع أن الذى يأتى بعدها هو التلاوة ، فإذا سمع السامع الاستعاذة استعد لاستماع كلام الله تعالى ، ثم شرع ذلك للقارئ ، و إن كان وحده ، لما ذكرنا من الحِكَمِ وغيرها .

فهذه بعض فوائد الاستعاذة

وقد قال أحمد فى رواية حنبل « لايقرأ فى صلاة ولا غير صلاة ، إلا أستعاذ ؛ لقوله عز وجل : (« ١٦ : ٩٨ » فَإِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ) .

وقال فى رواية ابن مشيش « كلما قرأ يستعيذ »

وقال عبد الله بن أحمد « سمعت أبى إذا قرأ استعاذ ، يقول : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، إن الله هو السميع العليم »

وفى المسند والترمذى من حديث أبى سعيد الخدرى قال : « كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا قام إلى الصلاة استفتح ثم يقول : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم : من هَمْزِهِ وَنَفْخِهِ وَنَفْثِهِ »

---

(١) انظر المسند (ج ٣ ص ٤٨٣) وقال « فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فمن فعل ذلك منهم فمات كان حقاً على الله أن يدخله الجنة ، أو قتل كان حقاً على الله عزّ وجلّ أن يدخله الجنة . وإن غرق كان حقاً على الله أن يدخله الجنة ، أو وقصته دابته كان حقاً على الله أن يدخله الجنة » والطول ــ بكسر الطاء وفتح الواو ــ الحبل الطويل يشد أحد طرفيه فى وتد أو غيره والطرف الأخر فى يد الفرس ، ليدور فيه ويرعى . ولا يذهب لوجهه .

وقال ابن المنذر « جاء عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول قبل القراءة : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » ، واختار الشافعى وأبو حنيفة والقاضى فى الجامع أنه كان يقول : « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » وهو رواية عن أحمد ؛ لظاهر الآية ، وحديث ابن المنذر .

وعن أحمد من رواية عبد الله « أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم » لحديث أبى سعيد ، وهو مذهب الحسن وابن سيرين ويدل عليه مارواه أبو داود فى قصة الإفك « أن النبى صلى الله عليه وسلم جلس وكشف عن وجهه وقال : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم » .

وعن أحمد رواية أخرى أنه يقول : « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، إن الله هو السميع العليم » وبه قال سفيان الثورى ومسلم بن يَسار ، واختاره القاضى فى المجرد وابن عقيل ، لأن قوله (فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ) ظاهره أنه يستعيذ بقوله « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » وقوله فى الآية الأخرى (« ٤١ : ٣٦ » فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) يقتضى أن يلحق بالاستعاذة وصفه بأنه هو السميع العليم فى جملة مستقلة بنفسها مؤكدة بحرف « إن » لأنه سبحانه هكذا ذكر .

وقال إسحاق : الذى أختاره ماذكر عن النبى صلى الله عليه وسلم « اللهم إنى أعوذ بك من الشيطان الرجيم من هَمْزه ونفخه ونَفْثِه »

وقد جاء فى الحديث تفسير ذلك ، قال: «وهمزه المُوتَةُ، ونفخه : الكِبْر ، ونفثه: الشعر »

وقال تعالى (« ٢٣ : ٩٧ ـ ٩٨ » وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ . وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ) والهمزات : جمع هَمزة كتمرات وتمرة . وأصل الهمز الدفع ، قال أبو عبيد عن الكسائى : همزته، ولمزته ، ولهزته ، ونهزته ـ إذا دفعته ، والتحقيق : أنه دفع بنخز ، وغمز يشبه الطعن ، فهو دفع خاص ، فهمزات الشياطين : دفعهم الوساوس والإغواء إلى القلب ، قال ابن عباس والحسن « همزات الشياطين : نزغاتهم ووساوسهم » وفسرت همزاتهم بنفخهم ونفثهم ، وهذا قول مجاهد ، وفسرت بخنقهم وهو الموتة التى تشبه الجنون

وظاهر الحديث أن الهمز نوع غير النفخ والنفث ، وقد يقال ـ وهو الأظهر ـ إن همزات الشياطين إذا أفردت دخل فيها جميع إصاباتهم لابن آدم ، وإذا قرنت بالنفخ والنفث كانت نوعا خاصا ، كنظائر ذلك .

ثم قال (وأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ) قال ابن زيد : فى أمورى ، وقال الكلبى : عند تلاوة القرآن ، وقال عكرمة : عند النزع والسياق ، فأمره أن يستعيذ من نوعى شر إصابتهم بالهمز وقربهم ودنوّهم منه .

فتضمنت الاستعاذة أن لايمسوه ولا يقربوه ، وذكر ذلك سبحانه عقيب قوله : (ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ) فأمره أن يحترز من شر شياطين الإنس بدفع إساءتهم إليه بالتى هى أحسن ، وأن يدفع شر شياطين الجن بالاستعاذة منهم

ونظير هذا قوله فى سورة الأعراف (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ) فأمره بدفع شر الجاهلين بالإعراض عنهم ، ثم أمره بدفع شر الشيطان بالاستعاذة منه فقال (وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

ونظير ذلك قوله فى سورة فصلت (وَلاَ تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ، ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ)

فهذا لدفع شر شياطين الإنس ثم قال : (وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) فأكد بإنّ و بضمير الفصل وأتى باللام فى « السميع العليم » وقال فى الأعراف (إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

وسر ذلك ـ والله أعلم ـ أنه حيث اقتصر على مجرد الأسم ولم يؤكده أريد إثبات مجرد الوصف الكافى فى الاستعاذة والإخبار بأنه سبحانه يسمع ويعلم ، فيسمع استعاذتك فيجيبك ويعلم ماتستعيذ منه فيدفعه عنك ، فالسمع لكلام المستعيذ والعلم بالفعل المستعاذ منه ، وبذلك يحصل مقصود الاستعاذة ، وهذا المعنى شامل للموضعين ، وامتاز المذكور فى سورة فصلت بمزيد التأكيد والتعريف والتخصيص ؛ لأن سياق ذلك بعد إنكاره سبحانه على الذين شكوا فى سمعه لقولهم وعلمه بهم ، كما جاء فى الصحيحين من حديث ابن مسعود قال « جتمع عند البيت ثلاثة نفر قرشيان وثقفى ، أوثقفيان وقرشى ، كثيرٌ شحمُ بطونهم . قليل فقه قلوبهم ، فقالوا : أترون الله يسمع مانقول ؟ فقال أحدهم : يسمع إن جهرنا ولايسمع إن أخفينا ، فقال الآخر : إن سمع بعضه سمع كله ، فأنزل الله عز وجل (« ٤١ : ٢٢ ـ ٢٣ » وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلاَ أَبْصَارُكُمْ وَلاَ جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللهَ لاَيَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ . وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِى ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ

منَ الْخَاسِرِينَ) » فجاء التوكيد فى قوله (إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) فى سياق هذا الإنكار : أى هو وحده الذى له كمال قوة السمع وإحاطة العلم ، لا كما يظن به أعداؤه الجاهلون : أنه لايسمع إن أخفوا وأنه لايعلم كثيرا مما يعملون ، وحَسَّنَ ذلك أيضا : أن المأمور به فى سورة فصّلت دفع إساءتهم إليه بإحسانه إليهم ، وذلك أشق على النفوس من مجرد الإعراض عنهم ولهذا عقبه بقوله (ومَا يُلَقَّاهَا إلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ) فحسن التأكيد لحاجة المستعيذ .

وأيضاً فإن السياق هٰهنا لإثبات صفات كماله وأدلة ثبوتها وآيات ربو بيته وشواهد توحيده ولهذا عقب ذلك بقوله (وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَار) و بقوله (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً) فأتى بأداة التعريف الدالة على أن من أسمائه « السميع العليم » كما جاءت الأسماء الحسنى كلها معرّفة ، والذى فى الأعراف فى سياق وعيد المشركين و إخوانهم من الشياطين ووعد المستعيذ بأن له ربًّا يسمع و يعلم ، وآلهة المشركين التى عبدوها من دونه ليس لهم أعين يبصرون بها ولا آذان يسمعون بها ، فإنه سميع عليم ، وآلهتهم لاتسمع ولاتبصر ولاتعلم ، فكيف تُسَوُّونها به فى العبادة ؛ فعلمت أنه لايليق بهذا السياق غير التنكير ، كما لايليق بذلك غير التعريف ، والله أعلم بأسرار كلامه .

ولما كان المستعاذ منه فى سورة « حَمَ المؤمن » هو شر مجادلة الكفار فى آياته وماترتب عليها من أفعالهم المرئيّةِ بالبصر قال (« ٤٠-٥٦ » إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فى آيَاتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِى صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَاهُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) فإنه لما كان المستعاذ منه كلامه وأفعالهم المشاهدة عيانا قال « إنه هوالسميع البصير » وهناك المستعاذ منه غير مشاهد لنا ، فإنه يرانا هو وقَبيلُه من حيث لانراه بل هو معلوم بالإيمان و إخبار الله ورسوله .

فصــــل

فالقرآن أرشد إلى دفع هذين العدوّين بأسهل الطرق بالاستعاذة والإعراض عن الجاهلين ودفع إساءتهم بالإحسان . وأخبر عن عظم حظ من لقّاه ذلك فإنه ينال بذلك كفّ شر عدوه وانقلابه صديقا ، ومحبة الناس له ، وثناءهم عليه ، وقهر هواه ، وسلامة قلبه من الغلّ والحقد وطمأنينة الناس — حتى عدوه — إليه . هذا غير ما يناله من كرامة الله وحسن ثوابه ورضاه عنه ؛ وهذا غاية الحظ عاجلا وآجلا ، ولما كان ذلك لا يُنال إلا بالصبر قال « وما يُلقّاها إلا الذين صبروا » فإن النزِق الطائش لا يصبر على المقابلة .

ولما كان الغضب مركب الشيطان ، فتتعاون النفس الغضبية والشيطان على النفس المطمئنة التي تأمر بدفع الإساءة بالإحسان — أمر أن يعاونها بالاستعاذة منه ، فتُمِدّ الاستعاذة النفس المطمئنة فتقوى على مقاومة جيش النفس الغضبية ، ويأتي مدد الصبر الذي يكون النصر معه ، وجاء مدد الإيمان والتوكل ، فأبطل سلطان الشيطان ، فـ(إنه لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) .

قال مجاهد وعكرمة والمفسرون : ليس له حجة .

والصواب : أن يقال : ليس له طريق يتسلط به عليهم : لا من جهة الحجة ، ولا من جهة القدرة . والقدرة داخلة في مسمى السلطان ، وإنما سميت الحجة سلطانا ، لأن صاحبها يتسلط بها تسلط صاحب القدرة بيده ، وقد أخبر سبحانه أنه لا سلطان لعدوه على عباده المخلصين المتوكلين ، فقال في سورة الحجر (« ١٥ : ٣٩ — ٤٢ » قالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ. قالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ . إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ) .

وقال في سورة النحل « ١٦ : ٩٩ — ١٠٠ » (إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ)

فتضمن ذلك أمرين : أحدهما نفي سلطانه وإبطاله على أهل التوحيد والإخلاص ، والثاني إثبات سلطانه على أهل الشرك وعلى من تولّاه .

ولما علم عدو الله أن الله تعالى لا يُسَلِّطه على أهل التوحيد والإخلاص قال («٣٨ : ٨٢ـ٨٣» فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ)

فعلم عدوّ الله أن من اعتصم بالله ، عز وجل ، وأخلص له وتوكل عليه لا يقدر على إغوائه وإضلاله ، و إنما يكون له السلطان على من تولاّه وأشرك مع الله ، فهؤلاء رَعِيَّته فهو وليهم وسلطانهم ومتبوعهم .

فإن قيل : فقد أثبت له السلطان على أوليائه فى هذا الموضع ، فكيف ينفيه فى قوله («٣٤ : ٢٠» وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ «٢١» وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ) ؟

قيل : إن كان الضمير فى قوله : (وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ) عائداً على المؤمنين فالسؤال ساقط ، ويكون الاستثناء منقطعا : أى لكن امتحنّاهم بإبليس ، لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها فى شك ،وإن كان عائداً على ماعاد عليه فى قوله : (وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ) وهو الظاهر ، ليصحّ الاستثناء المنقطع بوقوعه بعد النفى ، ويكون المعنى : وما سلّطناه عليهم إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة .

قال ابن قُتيبة « إن إبليس لما سأل الله تعالى النَّظْرَة فأنْظَرَه قال: لَأُغْوِيَنَّهُمْ وَلَأُضِلَّنَّهم ولآمرنَّهم بكذا ، ولأتخذنَّ من عبادك نصيباً مفروضا[1] وليس هو فى وقت هذه المقالة مستيقنا أن ماقدّره فيه يتمّ ، و إنما قال ظانًّا ، فلما اتَّبعوه وأطاعوه صَدّق عليهم ماظنه فيهم ، فقال تعالى : وما كان تسليطنا إياه إلا لنعلم المؤمنين من الشاكين ، يعنى نعلمهم موجودين ظاهرين فيحق القول ويقع الجزاء »

وعلى هذا فيكون السلطان ههنا على من لم يؤمن بالآخرة وشكّ فيها ، وهم الذين تولوه وأشركوا به فيكون السلطان ثابتا لا منفيا ، فتتفق هذه الآية مع سائر الآيات .

فإن قيل : فما تصنع بالتى فى سورة إبراهيم حيث يقول لأهل النار : (« ١٤ : ٢٢ »

---

(١) قال تعالى فى سورة النساء (٥ : ١١٧ وإن يدعون إلا شيطانا مريدا ١١٨ لعنه الله وقال لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضا ١١٩ ولأضلنهم ولأمنينهم ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ولآمرنهم فليغيرن خلق الله) .

وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلاَّ أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي) وهذا وإن كان قوله فالله سبحانه أخبر به عنه مُقرِّراً له ، لامنكرا ، فدلّ على أنه كذلك .

قيل: هذا سؤال جيد . وجوابه : أن السلطان المنفى فى هذا الموضع : هوالحجة والبرهان ، أى ما كان لى عليكم من حجة و برهان أحتج به عليكم ، كما قال ابن عباس «ما كان لى من حجة أحتج بها عليكم » أى : ماأظهرت لكم حجة إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى ، وصدّقتم مقالتى ، واتبعتمونى بلا برهان ولاحجة . وأما السلطان الذى أثبته فى قوله (إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ) فهو تَسلُّطه عليهم بالإغواء والإضلال ، وتمكنه منهم ، بحيث يؤزّهم إلى الكفر والشرك ويُزْعجهم إليه ، ولا يَدَعُهم يتركونه كما قال تعالى (« ١٩ : ٨٣ » أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا) قال ابن عباس « تُغْريهم إغراء » وفى رواية « تُشليهم إشلاء[1] » وفى لفظ « تحرضهم تحريضاً » وفى آخر « تزعجهم إلى المعاصى إزعاجا » وفى آخر « توقدهم » أى تحركهم كما يحرك الماء بالإيقاد تحته ، قال الأخفش : « توهجهم » .

وحقيقة ذلك : أن « الأزّ » هو التحريك والتهييج ، ومنه يقال لغليان القدر : الأزيز ؛ لأن الماء يتحرّك عند الغليان . ومنه الحديث « لجوفه أزيز كأزيز المرجل من البكاء[2] » قال أبو عبيدة « الأزيز » الالتهاب والحركة ، كالتهاب النار فى الحطب ، يقال : ازّ قِدْرك ، أى ألهب تحتها بالنار ؛ وأزت القدر إذا اشتد غليانها ، فقد حصل للأزّ معنيان : أحدهما : التحريك ، والثانى : الإيقاد والإلهاب ، وهما متقاربان ، فإنه تحريك خاص بإزعاج و إلهاب

فهذا من السلطان الذى له على أوليائه وأهل الشرك ، ولكن ليس له على ذلك سلطان حجة و برهان ، و إنما استجابوا له بمجرد دعوته إياهم ، لما وافقت أهواءهم وأغراضهم ، فهم الذين أعانوا على أنفسهم ومكّنوا عدوهم من سلطانه عليهم ، بموافقته ومتابعته فلما أعطوا

(١) قال ابن جرير قال ابن زيد (تؤزهم أزاً) تغرياً (ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين) قال تؤزهم أزا : تشليهم إشلاء على معاصى الله تبارك وتعالى وتغريهم عليها كما يغرى الإنسان الآخر على الشيء اه . فى القاموس : أشلى دابته : أراها المخلاة لتأتيه ، والناقة : دعاها للحلب .

(٢) رواه الإمام أحمد وأبو داود والنسائى والترمذى — وصححه — وابن حبان وابن خزيمة : عن مطرف ابن عبد الله بن الشخير عن أبيه قال « رأيت النبىّ صلى الله عليه وسلم يصلى ولصدره أزيز كأزيز المرجل من البكاء » .

بأيديهم واستأسروا له سُلِّط عليهم، عقوبة لهم. وبهذا يظهر معنى قوله سبحانه («٤ : ١٤١» وَلَنْ يَجْعَلَ اللهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً) فالآية على عمومها وظاهرها، وإنما المؤمنون يصدر منهم من المعصية والمخالفة التى تضادُّ الإيمان مايصير به للكافرين عليهم سبيل بحسب تلك المخالفة، فهم الذين تَسَبَّبوا إلى جعل السبيل عليهم، كما تَسبَّبوا إليه يوم أُحد بمعصية الرسول ومخالفته[(١)]، والله سبحانه لم يجعل للشيطان على العبد سلطانا، حتى جعل له العبد سبيلا إليه بطاعته والشرك به، فجعل الله حينئذ له عليه تسلُّطا وقهْراً، فمن وجد خيراً فليَحْمَد الله تعالى، ومن وجد غير ذلك فلا يَلُومَنّ إلا نفسه.

فالتوحيد والتوكل والإخلاص يمنع سلطانه، والشرك وفروعه يوجب سلطانه، والجميع بقضاء مَنْ أَزِمَّة الأمور بيده، ومَرَدُّها إليه، وله الحجة البالغة؛ فلوشاء لجعل الناس أمة واحدة، ولكن أبتْ حِكمته وحمده وملكه إلا ذلك («٤٥ : ٣٦» فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمٰوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ «٣٧» وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

(١) رواه الإمام أحمد والبخارى عن البراء بن عازب قال «جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الرماة يوم أحد — وكانوا خمسين رجلا — عبد الله بن جبير. قال: ووضعهم موضعاً. وقال: إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم، وإن رأيتمونا ظهرنا على العدو وأوطأناهم فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم. فهزموهم. قال: فأناوالله رأيت النساء يشتددن على الجبل قدبدت أسوقهن وخلاخلهن رافعات ثيابهن فقال أصحاب عبد الله بن جبير: الغنيمة، أى قوم الغنيمة. ظهر أصحابكم فما تنظرون؟ قال عبد الله بن جبير: أنسيتم ما قال لكم رسول الله؟ قالوا: إنا والله لنأتين الناس فلنصيبن من الغنيمة. فلما أتوهم صرفت وجوههم فأقبلوامنهزمين — الحديث» وفيه أن انتقال الرماة كان سبباً فى كشف ظهر المسلمين فدخل منه كمين للمشركين وارتد المنهزمون منهم وأحاطوا بالمسلمين. وقتل من المسلمين سبعون.

الباب الثالث عشر

فى مكايد الشيطان التى يكيد بها ابن آدم

قال الله تعالى إخبارا عن عـدوه إبليس ، لَمَّا سأله عن امتناعه عن السجود لآدم واحتجاجه بأنه خيرٌ منه وإخراجه من الجنة أنه سأله أن يُنظِره ، فأنظَره ، ثم قال عدو الله (« ٧ : ١٦ » فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ «١٧» ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ)

قال جهور المفسرين والنحاة : حذف « على » فانتصب الفعل . والتقدير : لأقعدنّ لهم على صراطك . والظاهر : أن الفعل مضمر ، فإن القاعد على الشيء ملازم له ، فكأنه قال : لألزمنّه ، ولأرْصُدَنَّه ، ولأعوِّجنه ، ونحو ذلك .

قال ابن عباس : « دينك الواضح » وقال ابن مسعود : « هو كتاب الله » وقال جابر : « هو الإسلام » وقال مجاهد : « هو الحق »

والجميع عبارات عن معنى واحد ، وهو الطريق الموصل إلى الله تعالى ، وقد تقدم حديث سَبْرة بن الفاكه « أن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه كلها ــ الحديث » فما من طريق خيرٍ إلا والشيطان قاعد عليه يقطعه على السالك .

وقوله (ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ) قال ابن عباس ، فى رواية عطية[١] عنه « مِنْ قِبَل الدنيا » وفى رواية علىّ[٢] عنه « أشككهم فى آخرتهم »

وكذلك قال الحسن « من قبل الآخرة ، تكذيبا بالبعث والجنة والنار »

وقال مجاهد « من بين أيديهم : من حيث يبصرون »

---

(١) هو عطية بن سعد بن جنادة العوفى ــ بفتح العين المهملة وإسكان الواو ، أبو الحسن الكوفى . يروى عن أبى هريرة وأبى سـعيد وابن عباس ضعفه الثورى وهشيم وابن عدى . وحسن له الترمذى أحاديث مات سنة ١١١ .

(٢) هو على بن أبى طلحة ــ سالم ــ الهاشمى مولاهم أبو الحسن الجزرى . يروى عن ابن عباس مرسلا . له فى مسلم حديث واحد . وعن أبى داود والنسائى وابن ماجه حديث آخر . مات سنة ١٤٣ .

(ومن خلفهم) قال ابن عباس « أرغبهم فى دنياهم » وقال الحسن « من قبل دنياهم أزيّنها لهم وأشهّيها لهم »

وعن ابن عباس رواية أخرى « من قِبَل الآخرة

وقال أبو صالح « أشككهم فى الآخرة وأباعدها عليهم » وقال مجاهد أيضا « من حيث لايبصرون » .

(وعن أيمانهم) قال ابن عباس « أُشَبِّه عليهم أمر دينهم » وقال أبو صالح « الحق أشككهم فيه » وعن ابن عباس أيضا « من قبل حسناتهم » .

قال الحسن « من قبل الحسنات أثبطهم عنها » .

وقال أبو صالح أيضا « من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم : أُنَفِّقه عليهم وأُرَغِّبهم فيه » .

وقال الحسن « (وعن شمائلهم) السيئات يأمرهم بها ويَحُثُّهم عليها ويزينها فى أعينهم »

وصح عن ابن عباس رضى الله عنه أنه قال : « ولم يقل من فوقهم لأنه علم أن الله من فوقهم » .

قال الشعبى « فالله عز وجل أنزل الرحمة عليهم من فوقهم »

وقال قتادة «أتاك الشيطان ياابن آدم من كل وجه غير أنه لم يأتك من فوقك ، لم يستطع أن يحول بينك و بين رحمة الله »

قال الواحدى : وقول من قال : الأيمان كناية عن الحسنات ، والشمائل كناية عن السيئات ؛حَسَنٌ ، لأن العرب تقول: اجعلنى فى يمينك ، ولاتجعلنى فى شمالك ، تريد : اجعلنى من المقدمين عندك ، ولاتجعلنى من المؤخرين ، وأنشد لابن الدُّمَيْنَة :

أَلُبْنَى، أفى يُمْنَى يَدَيك جعلتنى فأفرحَ ، أم صَيَّرتنى فى شمالك ؟

وروى أبو عبيد عن الأصمعى : هو عندنا باليمين : أى بمنزلةٍ حسنة ، وبضد ذلك : هو عندنا بالشمال ، وأنشد :

رأيت بنى العَلّات لما تظافروا يَحُوزون سهمى بينهم فى الشمائل[1]

(١) بنو العلات : الذين أمهاتهم مختلفة وأبوهم واحد . وسهمى ، أى حظى ونصيبى .

أى ينزلونى بالمنزلة السيئة .

وحكى الأزهرى عن بعضهم فى هذه الآية « لأغوينهم حتى يكذبوا بما تقدم من أمور الأمم السالفة ، ومن خلفهم بأمر البعث ، وعن أيمانهم ، وعن شمائلهم: أى لأضلهم فيما يعملون ، لأن الكسب يقال فيه : ذلك بما كسبت يداك ، وإن كانت اليدان لم تجنيا شيئاً ، لأنهما الأصل فى التصرف ، فجعلتا مثلا لجميع مايعمل بغيرهما »

وقال آخرون ـ منهم أبو إسحاق ، والزمخشرى ـ واللفظ لأبى إسحاق « ذكر هذه الوجوه للمبالغة فى التوكيد ، أى: لآتينهم من جميع الجهات ، والحقيقة ـ والله أعلم ـ أتصرف لهم فى الإضلال من جميع جهاتهم».

وقال الزمخشرى « ثم لآتينهم من الجهات الأربع التى يأتى منها العدو فى الغالب ، وهذا مثل لوسوسته إليهم وتسويله ما أمكنه وقدر عليه ، كقوله (« ١٧ : ٦٤ » وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ)

وهذا يوافق ماحكيناه عن قتادة « أتاك من كل وجه غير أنه لم يأتك من فوقك » وهذا القول أعم فائدة ولا يناقض ماقال السلف ، فإن ذلك على جهة التمثيل لا التعيين

قال شقيق « مامن صباح إلا قعد لى الشيطان على أربعة مراصد : من بين يدىّ ، ومن خلفى ، وعن يمينى ، وعن شمالى؛ فيقول : لاتخف فإن الله غفور رحيم ، فأقرأ (« ٢٠ : ٨٢» وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى) وأما من خلفى فيخوفنى الضَّيعة على من أخلّفه ، فاقرأ (« ١١ : ٦ » وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِى الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا) ومن قِبَل يمينى ، يأتينى من قِبَل النساء ، فاقرأ (« ٧ : ١٢٧ » وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ) ومن قبل شمالى فيأتينى من قبل الشهوات ، فاقرأ (« ٣٤ : ٥٤ » وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ)

قلت : السُّبل التى يسلكها الإنسان أربعة لاغير ، فإنه تارة يأخذ على جهة يمينه ، وتارة على شماله ، وتارة أمامه ، وتارة يرجع خلفه ، فأىُّ سبيل سلكها من هذه وجد الشيطانَ عليها رصداً له ، فإن سلكها فى طاعة وجده عليها يُثَبِّطه عنها ويقطعه ، أو يُعوقه ويُبطِّئه ، وإن سلكها لمعصية وجده عليها حاملاً له وخادما ومعينا ومُمَنِّياً ، ولو اتفق له الهبوط إلى أسفل لأتاه من هناك .

ومما يشهد لصحة أقوال السلف قوله تعالى (« ٤١ : ٢٥ » وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ) .

قال الكلبي « ألزمناهم قرناء من الشياطين » وقال مقاتل « هيأنا لهم قرناء من الشياطين» وقال ابن عباس « مابين أيديهم من أمر الدنيا ، وما خلفهم من أمر الآخرة » .

والمعنى زينوا لهم الدنيا حتى آثروها ، ودعوهم إلى التكذيب بالآخرة والإعراض عنها

وقال الكلبي «زينوا لهم مابين أيديهم من أمر الآخرة : أنه لاجنة ، ولانار ، ولابعث؛ وماخلفهم من أمر الدنيا : ماهم عليه من الضلالة » وهذا اختيار الفراء .

وقال ابن زيد « زينوا لهم مامضى من خبث أعمالهم ، ومايستقبلون منها » والمعنى على هذا زينوا لهم ماعملوه فلم يتوبوا منه ومايعزمون عليه فلا ينوون تركه .

فقول عدو الله تعالى : (ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ) يتناول الدنيا والآخرة ، وقوله (وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ) فإن ملك الحسنات عن اليمين يستحث صاحبه على فعل الخير ، فيأتيه الشيطان من هذه الجهة يُثَبِّطه عنه ، وإن ملك السيئات عن الشمال ينهاه عنها فيأتيه الشيطان من تلك الجهة يحرّضه عليها ، وهذا يفصّل ماأجمله فى قوله (« ٣٨ : ٨٢ » فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ) وقال تعالى : (« ٤ : ١١٧ » إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا ١١٨ لَعَنَهُ اللهُ، وقالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ١١٩ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا ١٢٠ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا) قال الضحاك « مَفروضاً أى معلوماً » وقال الزجاج « أى نصيباً افترضتُه على نفسى » قال الفراء « يعنى ماجُعل له عليه السبيلُ من الناس ، فهو كالمفروض » .

قلت : حقيقة الفَرْض هوالتقدير . والمعنى : أن من اتَّبع الشيطانَ وأطاعه فهو من نصيبه المفروض وحظّه المقسوم ، فكل من أطاع عدو الله فهو من مفروضه ، فالناس قسمان : نصيب الشيطان ومفروضه ، وأولياء الله وحزبه وخاصته .

وقوله « ولأضلّنّهم » يعنى عن الحق « ولأمنينهم » قال ابن عباس : « يريد تعويق التوبة وتأخيرها » .

وقال الكلبي «أمَنِّيهم أنه لاجنة ، ولانار ولا بعث »

وقال الزجاج : « أجمع لهم مع الإضـــلال أن أوهمهم أنهم ينالون مع ذلك حظهم من الآخرة »

وقيل : لأمنينهم ركوب الأهواء الداعية إلى العصيان والبدع .

وقيل : أمنيهم طول البقاء فى نعيم الدنيا ، فأطيل لهم الأمل ليؤثروها على الآخرة .

وقوله « ولآمرنهم فليُبَتِّـكُنّ آذان الأنعام » « البتْك » القطع وهو فى هذا الموضع : قطع آذان البحيرة ، عن جميع المفسرين ، ومن ههنا كره جمهور أهل العلم تثقيب أذنى الطفل للحلق ، ورَخّص بعضهم فى ذلك للأنثى ، دون الذكر؛ لحاجتها إلى الحلية ، واحتجوا بحديث أمّ زَرْعٍ ، وفيه « أناسَ مِنْ حُلِيٍّ أُذَنَىّ[1] » وقال النبى صلى الله عليه وسلم « كنت لكِ كأبى زَرْعٍ لأمِّ زَرْع » ونص أحمد رحمه الله على جواز ذلك فى حق البنت وكراهته فى حق الصبى.

وقوله «ولآمرنّهُم فليُغَـيِّرُنَّ خَلْقَ الله» قال ابن عباس «يريد دين الله»وهوقول إبراهيم ، ومجاهد ، والحسن ، والضحاك ، وقتادة ، والسُّدّى ، وسعيد بن المسيّب ، وسعيد بن جُبير .

ومعنى ذلك : هو أن الله تعالى فَطَر عباده على الفِطْرة المستقيمة ، وهى مِلّة الإسلام ، كما قال تعالى : (« ٣٠ : ٣٠ » فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ، وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ٣١ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوه) ولهـذا قال صلى الله عليه وسلم « مامن مولود إلا يُولد على الفِطْرة ، فأبواه يُهَوِّدانه أو ينُصِّرانه أو يُمَجِّسانه ، كما تُنْتَجُ البهيمة بَهيمةً جَمْعاء ، فهل تُحِسُّون فيها من جَدْعاء ، حتى تكونوا أنتم تَجْدَعونها» ؟ ثم قرأ أبو هريرة (فِطْرَتَ الله التى فَطَرَ الناسَ عليها الآية[2]) متفق عليه .

---

(١) حديث أم زرع رواه البخارى بطوله فى باب حسن المعاشرة مع الأهل فى كتاب النكاح ، عن عائشة رضى الله عنها قالت « جلس إحدى عشرة امرأة ــ الحديث » قال الحافظ ابن حجر فى الفتح (٩ : ٢١٣) وهى أم زرع بنت أكيمل بن ساعدة . و «أناس» أثقل حتى تدلى واضطرب . والنوس : حركة كل شىء متدلّ اه وقد رواه مسلم أيضاً .

(٢) « تنتج » أى تلد . يقال : نتجت الناقة إذا ولدت فهى منتوجة . « الجما » السليمة من العيوب المجتمعة الأعضاء . الجدع : قطع الأنف والأذن والشفة . وهو بالأنف أخص . ومعنى الحديث : أن المولود يولد على نوع من الجبلة . وهى فطرة الله . وكونه متهيئاً لقبول الحق طبعاً وطوعا لو خلته شياطين الإنس والجن وما يختار لم يختر غيرها فضرب لذلك الجدعاء والجماء مثلا .

فجمع عليه الصلاة والسلام بين الأمرين : تغيير الفطرة بالتهويد والتنصير ، وتغيير الخلقة بالجَدْعِ ، وهما الأمران اللذان أخبر إبليس أنه لا بد أن يُغيِّرهما فغيَّر فِطْرة الله بالكفر ، وهو تغيير الخلقة التي خلقوا عليها ، وغيَّر الصورة بالجَدْع والبَتْك ، فغيَّر الفطرة إلى الشرك ، والخِلقة إلى البَتْك والقطع ، فهذا تغيير خلقة الروح ، وهذا تغيير خلقة الصورة .

ثم قال « يعدهم ويمنيهم » فوعدهُ : ما يصل إلى قلب الإنسان ، نحو : سيطول عمرُكَ ، وتنالُ من الدنيا لَذَّتك ، وستعلو على أقْرَانِك ، وتظفر بأعدائك ، والدنيا دُوَلٌ ستكون لك كما كانت لغيرك ، ويطول أمله ، ويَعِدُهُ بِالحُسْنى على شِرْكه ومعاصيه ، ويُمَنّيه الأمانى الكاذبة على اختلاف وجوهها ، والفرق بين وَعْدِه وتمنيته أنه يعِدُ الباطل ، ويُمنّى المحال ، والنفس المهينَة التى لا قَدْر لها تغتذى بوعده وتمنيته ، كما قال القائل :

مُنًى إن تكن حَقًّا تكنْ أحْسَنَ المُنَى وإلا فقد عِشْنا بها زَمَناً رَغْداً

فالنفس المبطلة الخسيسة تلتذ بالأمانى الباطلة والوعود الكاذبة ، وتفرح بها ، كما يفرح بها النساء والصبيان ويتحركون لها ، فالأقوال الباطلة مصدرها وَعْدُ الشيطان وتَمْنِيَتُهُ ، فإن الشيطان يمنى أصحابها الظفر بالحق وإدراكه ، ويَعِدُهم الوصول إليه من غير طريقه ، فكل مبطل فله نصيب من قوله (يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ، وما يعدهمُ الشيطانُ إلا غروراً) .

ومن ذلك قوله تعالى : (« ٢ : ٢٦٨ » الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاء وَاللهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً) ، قيل : (يعدكم الفقر) يخوّفكم به ، يقول : إن أنفقتم أموالكم افتقرتم (ويأمركم بالفحشاء) قالوا : هى البخل فى هذا الموضع خاصة ، ويُذكَر عن مقاتل والكلبي « كل فحشاء فى القرآن فهى الزنا إلا فى هذا الموضع فإنها البخل » .

والصواب : أن الفحشاء على بابها ، وهى كل فاحشة ، فهى صفة لموصوف محذوف ، فحذف موصوفها إرادة للعموم : أى بالفَعْلَة الفحشاء والخَلَّة الفحشاء ، ومن جملتها البخل ، فذكر سبحانه وَعْد الشيطان وأمْرَه : يأمرهم بالشر ويخوفهم من فعل الخير ، وهذان الأمران هما جماع ما يطلبه الشيطان من الإنسان فإنه إذا خوّفه من فعل الخير تركه ، وإذا أمره بالفحشاء وزيّنها له ارتكبها ، وسمى سبحانه تخويفه وَعْدَ الانتظار الذى خوفه إياه كما ينتظر الموعود ما وعد به ، ثم ذكر سبحانه وعده على طاعته ، وامتثال أوامره واجتناب نواهيه ، وهى المغفرة

والفضل ، فالمغفرة : وقاية الشر ، والفضل : إعطاء الخير ، وفى الحديث المشهور « إن للملَك بقلب ابن آدم لَمَّةً ، وللشيطان لَمَّة ، فلَمَّة للملك : إيعاد بالخير ، وتصديق بالوعد، ولَمَّة الشيطان: إيعاد بالشر ، وتكذيبٌ بالوعد ، ثم قرأ (الشَّيْطَانُ يَعِدُ كُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُ كُمْ بِالْفَحْشَاءِ ، الآية[1] » .

فالملك والشيطان يتعاقبان على القلب تعاقب الليل والنهار ، فمن الناس من يكون ليله أطول من نهاره ، وآخر بضده ، ومنهم من يكون زمنه نهاراً كله ، وآخر بضده ، نستعيذ بالله تعالى من شر الشيطان .

فصل

ومن كيده للإنسان : أنه يورده الموارد التى يُخَيِّلُ إليه أنَّ فيها منفعته ، ثم يُصْدِرُهُ المصادرالتى فيها عطَبه ، ويتخلَّى عنه ويُسْلِمه ويَقِفُ يَشْمَتُ به ، ويضحك منه ، فيأمره بالسَّرقة والزنا والقتل ، ويدل عليه ويفضحه ، قال تعالى : (« ٨ : ٤٨ » وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لاَ غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىءٌ مِنْكُمْ إِنِّى أَرَى مَالاَ تَرَوْنَ إِنِّى أَخَافُ اللهَ وَاللهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ) ، فإنه تراءى للمشركين عند خروجهم إلى بَدْرٍ فى صورة سُراقة بن مالك ، وقال : أنا جار لكم من بَنى كِنَانة أن يَقْصِدوا أهْلَكم وذراريكم بسوء ، فلما رأى عدو الله جنود الله تعالى من الملائكة نزلت لنصر رسوله فرَّ عنهم، وأسلمهم[2] ، كما قال حسان :

---

(١) رواه الترمذى والنسائى وابن أبى حاتم وابن حبان عن ابن مسعود . وقال الترمذى : حسن غريب و « اللمة » بفتح اللام والميم : الخطرة والهمة تقع فى القلب . أراد إلمام الملك والشيطان به والقرب منه

(٢) قال ابن إسحاق « لما أجمعت قريش المسير ذكرت الذى بينها وبين بنى بكر من الحرب . فكاد ذلك أن يثنيهم فتبدى لهم ابليس فى صورة سراقة بن مالك بن جعشم المدلجى . وكان من أشراف بنى كنانة ، فقال : أنا جار لكم أن تأتيكم كنانة بشىء تكرهونه . فخرجوا سراعا — قال ابن إسحاق — فذكر لى أنهم كانوا يرونه فى كل منزل فى صورة سراقة بن مالك لاينكرونه حتى إذا كان يوم بدر والتقى الجمعان كان الذى رآه حين نكص الحارث بن هشام أو عمير بن وهب . فقال : أين سراقة أين ؟ وميل عدو الله فذهب قال : فأوردهم ثم أسلمهم . قال : ونظر عدو الله إلى جنود الله قد أيد الله بهم رسوله والمؤمنين فنكص على عقبيه وقال : إنى برىء منكم إنى أرى مالا ترون » .

دَلاَّهم بغُرورٍ ، ثم أسلمهم إن الخبيث لمن والاه غرَّار[(١)]

وكذلك فعل بالراهب الذى قتل المرأة وولدها ، أمره بالزنا ثم بقتلها ، ثم دَلّ أهلها عليه ، وكشف أمره لهم ، ثم أمره بالسجود له ، فلما فعل فَرّ عنه وتركه . وفيه أنزل الله سبحانه (« ٥٩ : ١٦ » كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اُكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ) وهذا السياق لايختص بالذى ذكرتْ عنه هذه القصة[(٢)] ، بل هو عام فى كل من أطاع الشيطان فى أمره له بالكفر، لينصره ويقضى حاجته ؛ فإنه يتبرأ منه ويسلمه كما يتبرأ من أوليائه جملة فى النار ، ويقول لهم (إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ) فأوردهم شر الموارد وتبرأ منهم كل البراءة .

وتكلم الناس فى قول عدو الله (إنى أخاف الله) فقال قتادة وابن إسحٰق «صدق عدو الله فى قوله (إنى أرى مالاترون) وكذب فى قوله (إنى أخاف الله) والله مابه مخافة الله ، ولكن علم أنه لاقوة له ولا مَنَعَة فأوردهم وأسلمهم ، وكذلك عادة عدو الله بمن أطاعه » .

وقالت طائفة : « إنما خاف بطش الله تعالى به فى الدنيا ، كما يخاف الكافر والفاجر أن يقتل أو يؤخذ بجرمه ، لا أنه خاف عقابه فى الآخرة » ، وهذا أصح ، وهذا الخوف لايستلزم إيمانا ولانجاة .

قال الكلبى : « خاف أن يأخذه جبريل فيعرفهم حاله فلا يطيعونه » .

وهذا فاسد ، فإنه إنما قال لهم ذلك بعد أن فرّ ونكص على عقبيه ، إلا أن يريد أنه إذا عرف المشركون أن الذى أجارهم وأوردهم إبليس لم يطيعوه فيما بعد ذلك ، وقد أبعد النُّجْعَة إن أراد ذلك ، وتكلَّف غير المراد .

وقال عطاء : « إنى أخاف الله أن يهلكنى فيمن يهلك » وهذا خوف هلاك الدنيا فلا ينفعه .

---

(١) قبله : سرنا وساروا إلى بدر لحينهم لو يعلمون يقين العلم ماساروا
وبعده : وقال : إنى لكم جار ، فأوردهم شر الموارد فيه الخزى والعار
ثم التقينا فولوا عن سراتهم من منجدين ومنهم فرقة غاروا

(٢) روى قصته ابن جرير وابن كثير فى تفسير سورة الحشر عن علىّ وابن مسعود مختصرة . ورواها البغوى عن ابن عباس مطولة . وسمى الراهب برصيصا . ورواها ابن جرير عن ابن عباس أيضاً بسياق آخر

وقال الزجاج وابن الانبارى « ظن أن الوقت الذى أنظر إليه قد حضر ـ زاد ابن الانبارى ـ قال : أخاف أن يكون الوقت المعلوم الذى يزول معه إنظارى قد حضر فيقع بى العذاب ، فإنه لما عاين الملائكة خاف أن يكون وقت الانظار قد انقضى ، فقال ماقال إشفاقا على نفسه » .

فصـــل

ومن كيد عدو الله تعالى : أنه يخوف المؤمنين من جنده وأوليائه ، فلا يجاهدونهم ولايأمرونهم بالمعروف ، ولاينهونهم عن المنكر؛ وهذا من أعظم كيده بأهل الإيمان ، وقد أخبرنا الله تعالى سبحانه عنه بهذا فقال : (« ٣ : ١٧٥ » إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَه فَلَاتَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) .

المعنى عند جميع المفسرين : يخوفكم بأوليائه . قال قتادة « يعظمهم فى صدوركم ، ولهذا قال فلا تخافوهم وخافونى إن كنتم مؤمنين ، فكلما قوى إيمان العبد زال من قلبه خوف أولياء الشيطان ، وكلما ضعف إيمانه قوى خوفه منهم » .

ومن مكايده أنه يسحر العقل دائما حتى يكيده ، ولايسلم من سحره إلا من شاء الله ، فيزين له الفعل الذى يضره حتى يخيل إليه أنه من أنفع الأشياء ، وينفّر من الفعل الذى هو أنفع الأشياء له ، حتى يخيّل له أنه يضره ، فلا إله إلا الله . كم فتن بهذا السحرمن إنسان، وكم حال به بين القلب و بين الإسلام والإيمان والإحسان ؟ وكم جلا الباطل وأبرزه فى صورة مستحسنة ، وشنع الحق وأخرجه فى صورة مستهجنة ؟ وكم بَهْرَج من الزُّيوف على الناقدين ، وكم روّج من الزغل على العارفين ؟ فهو الذى سحر العقول حتى ألقى أربابها فى الأهواء المختلفة والآراء المتشعبة ، وسلك بهم من سبل الضلال كل مسلك ، وألقاهم من المهالك فى مهلك بعد مهلك ، وزين لهم عبادة الأصنام، وقطيعة الأرحام ، ووأد النبات ، ونكاح الأمهات ، ووعدهم الفوز بالجنات مع الكفر والفسوق والعصيان ، وأبرز لهم الشرك فى صورة التعظيم ، والكفر بصفات الرب تعالى وعلوه وتكلمه بكتبه فى قالب التنزيه ، وترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى قالب التودد إلى الناس ، وحسن الخلق معهم ، والعمل بقوله : (« ٥ : ١٠٥ » عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ) والإعراض عما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام فى قالب التقليد ،

والاكتفاء بقول من هو أعلم منهم ، والنفاق والإدهان فى دين الله فى قالب العقل المعيشى الذى يندرج به العبد بين الناس .

فهو صاحب الأبوين حين أخرجهما من الجنة ، وصاحب قابيل حين قتل أخاه ، وصاحب قوم نوح حين أغرقوا ، وقوم عاد حين أهلكوا بالريح العقيم ، وصاحب قوم صالح حين أهلكوا بالصيحة ، وصاحب الأمة اللوطية حين خسِفَ بهم وأُتبِعوا بالرجم بالحجارة ، وصاحب فرعون وقومه حين أخِذوا الأَخذة الرَّابية ، وصاحب عباد العجل حين جرى عليهم ماجرى ، وصاحب قريش حين دعوا يوم بدر ، وصاحب كل هالك ومفتون .

فصـــل

وأول كيده ومكره : أنه كاد الأبوين بالأيمان الكاذبة : أنه ناصح لهما ، وأنه إنما يريد خلودهما فى الجنة ، قال تعالى («٧ : ٢٠ ، ٢١» فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَاوُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ . وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ . فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ) .

فالوسوسة : حديث النفس والصوت الخفى ، وبه سمى صوت الحُلِيِّ وسواسا ، ورجل موسوس بكسر الواو ، ولا يفتح فإنه لحن ، وإنما قيل له : موسوس ؛ لأن نفسه توسوس إليه ، قال تعالى : (« ٥٠ : ١٦ » وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ) .

وعلم عدو الله أنهما إذا أكلا من الشجرة بدت لهما عوراتهما ، فإنها معصية ، والمعصية تهتك ستر ما بين الله وبين العبد ، فلما عصيا انْهَتَك ذلك الستر فبدت لهما سوآتهما ، فالمعصية تبدى السوأة الباطنة والظاهرة ، ولهذا رأى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فى رؤياه الزناة والزوانى عراة بادية سوآتهم[1] وهكذا إذا رؤى الرجل أو المرأة فى منامه مكشوف السوأة فإنه يدل على فساد فى دينه ، قال الشاعر :

(١) روى البخارى عن سمرة بن جندب قال « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مما يكثر أن يقول لأصحابه: هل رأى أحد منكم من رؤيا . فيقص عليه ما شاء الله أنه يقص . وأنه قال لنا ذات غداة : إنه أتانى الليلة اثنان وإنهما استبعثانى . وإنهما قالا لى : انطلق . وإنى انطلقت معهما ــ فذكر الحديث ــ وفيه : فانطلقنا فأتينا على مثل التنور ، قال : فأحسب إن كان يقول : فإذا فيه لغط وأصوات ، قال : فاطلعنا فإذا فيه رجال ونساء عراة . فإذا هم يأتيهم لهب فإذا أتاهم ذلك اللهب ضوضوا . وذكر أنهما قالا له : فإنهم الزناة والزوانى » .

إنى كأنى أرى من لا حياء له ولا أمانة وسط الناس عريانا

فإن الله سبحانه أنزل لباسين : لباسا ظاهراً يوارى العورة ويسترها ، ولباساً باطناً من التقوى ،يجمل العبد ويستره، فإذا زال عنه هذا اللباس انكشفت عورته الباطنة ، كما تنكشف عورته الظاهرة بنزع ما يسترها .

ثم قال (مانهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين) أى : إلا كراهة أن تكونا ملكين ، وكراهة أن تخلدا فى الجنة ، ومن ههنا دخل عليهما لما عرف أنهما يريدان الخلود فيها ، وهذا باب كَيْدِهِ الأعظم الذى يدخل منه على ابن آدم ، فإنه يجرى منه مجرى الدم حتى يصادف نفسه ، ويخالطه ، ويسألها عما تحبه وتؤثره ، فإذا عرفه استعان بها على العبد ، ودخل عليه من هذا الباب ، وكذلك علّم إخوانه وأولياءه من الإنس إذا أرادوا أغراضهم الفاسدة من بعضهم بعضاً أن يدخلوا عليهم من الباب الذى يحبونه ويهوونه ، فإنه باب لايخذل عن حاجته من دخل منه ، ومن رام الدخول من غيره فالباب عليه مسدود ، وهو عن طريق مقصده مصدود .

فشامّ عدو الله الأبوين ، فأحسّ منهما إيناساً وركونا إلى الخلد فى تلك الدار فى النعيم المقيم فعلم أنه لايدخل عليهما من غير هذا الباب ، فقاسمهما بالله إنه لهما لمن الناصحين ، وقال : مانهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين .

وكان عبد الله بن عباس يقرؤها ملكين بكسر اللام ، ويقول « لم يطمعا أن يكونا من الملائكة ، ولكن استشرفا أن يكونا ملكين فأتاهما من جهة الملك ، ويدل على هذه القراءة قوله فى الآية الأخرى (قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَ يَبْلَى) .

وأما على القراءة المشهورة فيقال : كيف أطمع عدو الله آدم عليه السلام أن يكون بأكله من الشجرة من الملائكة ، وهو يرى الملائكة لا تأكل ولا تشرب ، وكان آدم عليه السلام أعلم بالله وبنفسه وبالملائكة من أن يطمع أن يكون منهم بأكله ، ولا سيما مما نهاه الله عز وجل عنه ؟.

فالجواب : أن آدم وحواء عليهما السلام لم يطمعا فى ذلك أصلا ، وإنما كَذَبهما عدو الله وغرّهما ، وخدعهما بأن سمى تلك الشجرة شجرة الخلد ، فهذا أول المكر والكيد ، ومنه ورث أتباعه تسمية الأمور المحرمة بالأسماء التى تحب النفوس مسمياتها، فسموا الخمر : أم الأفراح

وسموا أخاها بلقيمة الراحة ، وسموا الربا بالمعاملة ، وسموا المكوس بالحقوق السلطانية ، وسموا أقبح الظلم وأفحشه شرع الديوان ، وسموا أبلغ الكفر ، وهو جحد صفات الرب ، تنزيها ، وسموا مجالس الفسوق مجالس الطيبة ؛ فلما سماها شجرة الخلد قال : مانها كما عن هذه الشجرة إلا كراهة أن تأكلا منها فتخلدا فى الجنة ولا تموتا فتكونان مثل الملائكة الذين لايموتون ، ولم يكن آدم عليه السلام قد علم أنه يموت بعد ، واشتهى الخلود فى الجنة ، وحصلت الشبهة من قول العدو وإقسامه بالله جهد أيمانه ، أنه ناصح لهما ، فاجتمعت الشبهة والشهوة ، وساعد القدر ، فأخذتهما سِنَةُ الغَفْلَة ، واستيقظ لهما العدو ، كما قيل :

واستيقظوا وأراد الله غفلتهم لينفذ القَدَر المحتوم فى الأزل

إلا أن هذا الجواب يعترض عليه قوله (أوتكونا من الخالدين)

فيقال : الماكر المخادع لابد أن يكون فيما يمكر به ويكيد من التناقض والباطل مايدل على مكره وكيده ، ولاحاجة بنا إلى تصحيح كلام عدو الله ، والاعتذار عنه ، وإنما يعتذر عن الأب فى كون ذلك رَاجَ عليه وولج سمعه ، فهو لم يجزم لهما بأنهما إن أكلا منها صارا مَلَكين ، وإنما ردّد الأمر بين أمرين : أحدهما ممتنع ، والآخر : ممكن ، وهذا من أبلغ أنواع الكيد والمكر ، ولهذا لما أطمعه فى الأمر الممكن جزم له به ولم يردده . فقال (« ٢٠ : ١٢٠ » يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَيَبْلَى) فلم يُدْخِل أداة الشك ههنا كما أدخلها فى قوله (إِلاَّ أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الخَالِدِينَ) فتأمله ، ثم قال (وقَاسَمَهُمَا إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ)

فتضمن هذا الخبر أنواعا من التأكيد :

أحدها : تأكيده بالقَسَم .

الثانى : تأكيده بإنَّ .

الثالث : تقديم المعمول على العامل ، إيذانا بالاختصاص ، أى نصيحتى مختصة بكما ، وفائدتها إليكما لا إلىّ .

الرابع : إتيانه باسم الفاعل الدال على الثبوت واللزوم ، دون الفعل الدال على التجدد : أى النصح صفتى وسَجِيَّتى ، ليس أمراً عارضاً لى .

الخامس : إتيانه بلام التأكيد فى جواب القسم .

السادس : أنه صوّر نفسه لهما ناصحا من جملة الناصحين ، فكأنه قال لهما : الناصحون لكما فى ذلك كثير ، وأنا واحد منهم ، كما تقول لمن تأمره بشىء : كل أحد معى على هذا وأنا من جملة من يشير عليك به .

سعى نحوها حتى تجاوز حدّه وكَثَّرفارتابت ، ولوشاء قللا

وورث عدو الله هذا المكر لأوليائه وحزبه عند خداعهم للمؤمنين كما كان المنافقون يقولون لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إذا جاءوه (« ٦٣ : ١ » نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ) فأكدوا خبرهم بالشهادة و بإنّ و بلام التأكيد ، وكذلك قوله سبحانه (« ٩ : ٥٦» وَيَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَاهُمْ مِنْكُمْ) .

ثم قال تعالى : (فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ) قال أبو عبيدة : خذلهما وخلَّاهما ، من تَدْلِيَةِ الدَّلْوِ ، وهو إرسالها فى البئر .

وذكر الأزهرى لهذه اللفظة أصلين : أحدهما قال : أصله الرجل العطشان يتدلى فى البئر لِيَرْوَى من الماء فلا يجد فيها ماء فيكون قد تَدَلَّى فيها بالغرور . فوُضِعَتْ التدلية موضع الإطماع فيما لايُجْدِى نفعاً ، فيقال : دَلَّاه ، إذا أطمعه ، ومنه قول أبى جُنْدَب الهُذَلى :

أحُص ، فلا أجير ومن أجره فليس كمن تَدَلَّى بالغرور

أحص : أى أقطع .

الثانى : فدلاهما بغرور ، أى جرَّأهما على أكل الشجرة ، وأصله : دللهما من الدلال والدالة[1] وهى الجراءة ، قال شَمِّر : يقال : مادَلَّلَكَ علىَّ : أى ماجرَّأك على ، وأنشد لقيس ابن زهير :

أظن الحلم دلَّ علىَّ قومى وقد يُستجهل الرجل الحليم

(١) قال أبو حيان فى البحر : فأبدل من المضاعف الأخير حرف علة ، كما قالوا : تظنيت . وأصله : تظننت . ومن كلام بعض العلماء « خدع الشيطان آدم فانخدع . ونحن من خدعنا بالله انخدعنا له » اه وروى ابن سعد فى الطبقات وأبو نعيم فى الحلية عن ابن عمر « أنه كان إذا رأى من عبده طاعة وحسن صلاة أعتقه . وكان عبيده يفعلون ذلك ، طلبا للعتق ، فقيل له : يخدعونك . فقال : من خدعنا بالله انخدعنا له » .

قلت : أصل التدلية فى اللغة الإرسال والتعليق . يقال : دلَّى الشىء فى مِهْوَاةٍ ، إذا أرسله بتعليق . وتدلى الشىء بنفسه . ومنه قوله تعالى («١٢ ١٩» فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ) قال عامة أهل اللغة ، يقال : أدلى دلوه إذا أرسلها فى البئر . ودلاَها بالتخفيف ، إذا نزعها من البئر ، فأدلى دلوه يدليه إدلاء إذا أرسلها ، ودلاها يدلوها دلوا ، إذا نزعها وأخرجها ، ومنه الإدلاء ، وهوالتوصل إلى الرجل برحم منه ، ويشاركه فى الاشتقاق الأكبر الدلالة وهى التوصل إلى الشىء بإبانته وكشفه ، ومنه الدلّ وهو مايدل على العبد من أفعاله ، وكان عبد الله ابن مسعود يُشَبَّه برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى هَدْيه ودَلِّه وسَمْتِه ، فالهدى الطريقة التى عليها العبد ، من أخلاقه وأقواله وأعماله ، والدلّ مايدل من ظاهره على باطنه ، والسَّمْت هيأته ووقاره ورزانته .

والمقصود : ذكر كيد عدو الله ومكره بالأبوين .

قال مُطَرِّفُ بن عبد الله : قال لهما إنى خُلقت قبلكما ، وأنا أعلم منكما ، فاتبعانى أرْشِدْكما وحلف لهما ، وإنما يُخدع المؤمن بالله ، قال قتادة « وكان بعض أهل العلم يقول : من خادعنا بالله خُدعنا » فالمؤمن غر كريم والفاجر خَبٌّ لئيم ، وفى الصحيح « أن عيسى ابن مريم عليه السلام رأى رجلا يسرق ، فقال : سرقت ؟ فقال : لا والله الذى لا إله إلاهو ، فقال المسيح : آمنت بالله وكذَّبت بصرى » .

وقد تأوله بعضهم على أنه لما حلف له جوّز أن يكون قد أخذ من ماله ، فظنه المسيح سرقة ؛ وهذا تكلف ، وإنما كان الله سبحانه وتعالى فى قلب المسيح عليه السلام أجلّ وأعظم من أن يحلف به أحد كاذبا ، فلما حلف له السارق دار الأمر بين تهمته وتهمة بصره ، فردّ التهمة إلى بصره لما اجتهد له فى اليمين ، كما ظن آدم عليه السلام صدق إبليس لما حلف له بالله عز وجل ، وقال : ماظننت أحدا يحلف بالله تعالى كاذبا .

فصل

ومن كيده العجيب : أنه يشام النفس ، حتى يعلم أى القوتين تغلب عليها : قوة الإقدام والشجاعة ، أم قوة الانكفاف والإحجام والمهانة ؟ .

فإن رأى الغالب على النفس المهانة والإحجام أخذ فى تثبيطه و إضعاف همته و إرادته عن المـأمور به ، وثَقَّـله عليه ، فهوّن عليه تركه ، حتى يتركه جملة ، أو يقصّر فيه ويتهاون به .

و إن رأى الغالب عليه قوة الإقدام وعلوّ الهمة أخذ يقلل عنده المـأمور به ، و يوهمه أنه لا يكفيه ، وأنه يحتاج معه إلى مبالغة وزيادة فيقصر بالأول ويتجاوز بالثانى ، كما قال بعض السلف : «ما أمر الله تعالى بأمر إلاوللشيطان فيه نزغتان : إما إلى تفريط وتقصير ، و إما إلى مجاوزة وغلو . ولايبالى بأيهما ظفر » .

وقد اقتطع أكثر الناس إلا أقل القليل فى هذين الواديين : وادى التقصير ، ووادى المجاوزة والتعدى . والقليل منهم جدّا الثابت على الصراط الذى كان عليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه .

فقوم قَصّر بهم عن الإتيان بواجبات الطهارة ، وقوم تجاوز بهم إلى مجاوزة الحدّ بالوسواس .

وقوم قَصّر بهم عن إخراج الواجب من المـال ، وقوم تجاوز بهم حتى أخرجوا جميع مافى أيديهم وقعدوا كَلاًّ على الناس ، مستشرفين إلى مابأيديهم .

وقوم قصر بهم عن تناول مايحتاجون إليه من الطعام والشراب واللباس حتى أضروا بأبدانهم وقلوبهم ، وقوم تجاوز بهم حتى أخذوا فوق الحاجة فأَضَرُّوا بقلوبهم وأبدانهم .

وكذلك قَصّر بقوم فى حق الأنبياء وورثتهم حتى قتلوهم ، وتجاوز بآخرين حتى عبدوهم

وقصر بقوم فى خُلطة الناس حتى اعتزلوهم فى الطاعات ، كالجمعة والجماعات والجهاد وتعلُّم العلم ، وتجاوز بقوم حتى خالطوهم فى الظلم والمعاصى والآثام .

وقصر بقوم حتى امتنعوا من ذبح عصفور أو شاة ليأكله ، وتجاوز بآخرين حتى جرأهم على الدماء المعصومة .

وكذلك قصر بقوم حتى منعهم من الاشتغال بالعلم الذى ينفعهم ، وتجاوز بآخرين حتى جعلوا العلم وحده هو غايتهم دون العمل به .

وقصر بقوم حتى أطعمهم من العشب ونبات البرية ، دون غذاء بنى آدم ، وتجاوز بآخرين حتى أطعمهم الحرام الخالص .

وقصر بقوم حتى زين لهم ترك سُنة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من النكاح فرغبوا عنه بالكلية ، وتجاوز بآخرين حتى ارتكبوا ماوصلوا إليه من الحرام .

وقصر بقوم حتى جفوا الشيوخ من أهل الدين والصلاح ، وأعرضوا عنهم ، ولم يقوموا بحقهم ، وتجاوز بآخرين حتى عبدوهم مع الله تعالى .

وكذلك قصّر بقوم حتى منعهم قبول أقوال أهل العلم والالتفات إليها بالكلية ، وتجاوز بآخرين حتى جعلوا الحلال ماحللوه والحرام ماحرموه ، وقدموا أقوالهم على سنة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الصحيحة الصريحة .

وقصر بقوم حتى قالوا : إن الله سبحانه لا يقدر على أفعال عباده ولا شاءها منهم ، ولكنهم يعملونها بدون مشيئة الله تعالى وقدرته ، وتجاوز بآخرين حتى قالوا : إنهم لا يفعلون شيئاً ألبتة ، وإنما الله سبحانه هو فاعل تلك الأفعال حقيقة ، فهى نفس فعله لا أفعالهم . والعبيد ليس لهم قدرة ولا فعل ألبتة .

وقصر بقوم حتى قالوا : إن رب العالمين ليس داخلا فى خلقه ولا بائنا عنهم ، ولا هو فوقهم ولا تحتهم ولا خلفهم ولا أمامهم ولا عن أيمانهم ولا عن شمائلهم ، وتجاوز بآخرين حتى قالوا : هو فى كل مكان بذاته ، كالهواء الذى هو داخل فى كل مكان .

وقصر بقوم حتى قالوا : لم يتكلم الرب سبحانه بكلمة واحدة ألبتة ، وتجاوز بآخرين حتى قالوا : لم يزل أزلا وأبداً قائلا : يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى ، ويقول لموسى (أذهب إلى فرعون) فلا يزال هذا الخطاب قائما به ومسموعاً منه ، كقيام صفة الحياة به .

وقصر بقوم حتى قالوا : إن الله سبحانه لا يُشَفِّع أحداً فى أحد ألبتة ، ولا يرحم أحداً بشفاعة أحد ، وتجاوز بآخرين حتى زعموا أن المخلوق يشفع عنده بغير إذنه ، كما يشفع ذو الجاه عند الملوك ونحوهم .

وقصر بقوم حتى قالوا : إيمان أفسق الناس وأظلمهم كإيمان جبريل وميكائيل ، فضلا عن أبى بكر وعمر ، وتجاوز بآخرين حتى أخرجوا من الإسلام بالكبيرة الواحدة .

وقصر بقوم حتى نفوا حقائق أسماء الرب تعالى وصفاته وعَطَّلوه منها ، وتجاوز بآخرين حتى شبهوه بخلقه ومَثَّلوه بهم .

وقصر بقوم حتى عادوا أهل بيت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقاتلوهم ، واستحلوا حرمتهم ، وتجاوز بقوم حتى ادّعوا فيهم خصائص النبوة : من العصمة وغيرها . وربما ادعوا فيهم الإلهية .

وكذلك قصر باليهود فى المسيح حتى كذبوه ورموه وأمه بما برأهما الله تعالى منه ، وتجاوز بالنصارى حتى جعلوه ابن الله ، وجعلوه إلهاً يعبد مع الله .

وقصر بقوم حتى نفوا الأسباب والقوى والطبائع والغرائز ، وتجاوز بآخرين حتى جعلوها أمراً لازما لا يمكن تغييره ولا تبديله ، ور بما جعلها بعضهم مستقلة بالتأثير .

وقصر بقوم حتى تعبدوا بالنجاسات ، وهم النصارى وأشباههم ، وتجاوز بقوم حتى أفضى بهم الوسواس إلى الآصار والأغلال ، وهم أشباه اليهود .

وقصر بقوم حتى تزينوا للناس وأظهروا لهم من الأعمال والعبادات ما يحمدونهم عليه ، وتجاوز بقوم حتى أظهروا لهم من القبائح ومن الأعمال السيئة ما يسقطون به جاههم عندهم ، وسموا أنفسهم الملامتية .

وقصر بقوم حتى أهملوا أعمال القلوب ولم يلتفتوا إليها وعدوها فضلا ، أو فضولا ، وتجاوز بآخرين حتى قصروا نظرهم وعملهم عليها ، ولم يلتفتوا إلى كثير من أعمال الجوارح ، وقالوا : العارف لا يسقط وارده لورده .

وهذا باب واسع جداً لو تتبعناه لبلغ مبلغاً كثيراً ، و إنما أشرنا إليه أدنى إشارة .

فصل

ومن حيله ومكايده : الكلام الباطل ، والآراء المتهافتة ، والخيالات المتناقضة ، التى هى زبالة الأذهان ، ونُحاتة الأفكار ، والزَّبَد الذى يقذف به القلوب المظلمة المتحيِّرة ، التى تعدل الحق بالباطل ، والخطأ بالصواب ، قد تقاذفت بها أمواج الشبهات ، ورانَتْ عليها غيوم الخيالات ، فمركبها القيل والقال ، والشك والتشكيك ، وكثرة الجدال ، ليس لها حاصل من اليقين يعول عليه ، ولا معتقد مطابق للحق يُرجع إليه ، يوحى بعضهم إلى بعض زُخْرُف القول غرورا ؛ فقد اتخذوا لأجل ذلك القرآن مهجوراً ، وقالوا من عند أنفسهم فقالوا مُنكراً من القول وزورا فهم فى شكِّهم يَعْمَهون ،وفى حَيْرتهم يَتَرَدَّدون ، نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون ، واتبعوا ما تَلَتْه الشياطين على ألسنة أسلافهم من أهل الضلال ، فهم إليه يحاكمون ، وبه يتخاصمون ، فارقوا الدليل واتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل .

فصـــل

ومن كيده بهم وتحيله على إخراجهم من العلم والدين : أن ألقى على ألسنتهم أن كلام الله ورسوله ظواهر لفظية لا تفيد اليقين ، وأوحى إليهم أن القواطع العقلية والبراهين اليقينية فى المناهج الفلسفية ، والطرق الـكلامية ، لحال بينهم وبين اقتباس الهدى واليقين من مِشْـكاة القرآن ، وأحالهم على منطق يونان ، وعلى ماعندهم من الدعاوى الـكاذبة العَرِيَّة عن البرهان ، وقال لهم : تلك علوم قديمة صَقَلَتها العقول والأذهان ، ومَرَّتْ عليها القرون والأزمان ، فانظر كيف تلطَّف بكيده ومكره حتى أخرجهم من الإيمـان ، كإخراج الشعرة من العجين .

فصـــل

ومن كيده : ما ألقاه إلى جُهال المتصوفة من الشطح والطامات ، وأبرزه لهم فى قالب الـكشف من الخيالات ، فأوقعهم فى أنواع الأباطيل والتُّرَّهَات ، وفتح لهم أبواب الدعاوى الهـائلات ، وأوحى إليهم : أن وراء العلم طريقاً إن سلـكوه أفضى بهم إلى كشف العيان ، وأغناهم عن التقيد بالسنة والقرآن ؛ فحسَّن لهم رياضة النفوس وتهذيبها ؛ وتصفية الأخلاق والتجافى عما عليه أهل الدنيا ، وأهل الرياسة والفقهاء ، وأرباب العلوم ، والعمل على تفريغ القلب وخلوه من كل شىء ، حتى ينتقش فيه الحق بلا واسطة تعلّم ، فلما خلا من صورة العلم الذى جاء به الرسول نَقَش فيه الشيطان بحسب ما هو مستعد له من أنواع الباطل ، وخَيَّلَه للنفس حتى جعله كالمشاهد كشفاً وعياناً ، فإذا أنـكره عليهم ورثة الرسل قالوا : لـكم العلم الظاهر ، ولنا الـكشف الباطن ، ولـكم ظاهر الشريعة ، وعندنا باطن الحقيقة ، ولـكم القشور ولنا اللباب ، فلما تمـكَّن هذا من قلوبهم سلخها من الـكتاب والسنة والآثار كما ينسلخ الليل من النهار ، ثم أحالهم فى سلوكهم على تلك الخيالات ، وأوهمهم أنها من الآيات البينات ، وأنها من قِبَل الله سبحانه إلهـامات وتعريفات ، فلا تعرض على السنة والقرآن ، ولا تعامل إلا بالقبول والإذعان .

فلغير الله لا له سبحانه ما يفتحه عليهم الشيطان من الخيالات والشطحات ، وأنواع

المذيان . وكلما ازدادوا بعدا وإعراضاً عن القرآن وما جاء به الرسول كان هذا الفتح على قلوبهم أعظم .

فصل

ومن أنواع مكايده ومكره : أن يدعو العبد بحسن خلقه وطلاقته وبشره إلى أنواع من الآثام والفجور ، فيلقاه من لا يخلصه من شره إلا تجهُّمه والتعبيس فى وجهه والإعراض عنه ، فيحسن له العدو أن يلقاه ببشره ، وطلاقة وجهه ، وحسن كلامه ، فيتعلق به ، فيروم التخلص منه فيعجز ، فلا يزال العدو يسعى بينهما حتى يصيب حاجته ، فيدخل على العبد بكيده من باب حسن الخلق ، وطلاقة الوجه ، ومن ههنا وصّى أطباء القلوب بالإعراض عن أهل البدع وأن لا يسلم عليهم ، ولا يريهم طلاقة وجهه ، ولا يلقاهم إلا بالعبوس والإعراض .

وكذلك أوصوا عند لقاء من يخاف الفتنة بلقائه من النساء والمردان ، وقالوا : متى كشفت للمرأة أو الصبى بياض أسنانك كشفا لك عما هنا لك ، ومتى لقيتهما بوجه عابس وقيت شرهما .

ومن مكايده : أنه يأمرك أن تلقى المساكين وذوى الحاجات بوجه عبوس ولا تريهم بشراً ولا طلاقة ، فيطمعوا فيك ، ويتجرأوا عليك ، وتسقط هيبتك من قلوبهم ، فيحرمك صالح أدعيتهم ، وميل قلوبهم إليك ، ومحبتهم لك فيأمرك بسوء الخلق ، ومنع البِشر والطلاقة مع هؤلاء ، وبحسن الخلق والبشر مع أولئك ، ليفتح لك باب الشر ، ويغلق عنك باب الخير .

فصل

ومن مكايده أنه يأمرك بإعزاز نفسك وصَوْنها حيث يكون رضى الرب تعالى فى إذلالها وابتذالها ، كجهاد الكفار والمنافقين ، وأمر الفجار والظلمة بالمعروف ونهيهم عن المنكر ، فيخيل إليك أن ذلك تعريض لنفسك إلى مواطن الذل . وتسليط الأعداء وطعنهم فيك ، فيزول جاهك فلا يقبل منك بعد ذلك ولا يُسمع منك .

ويأمرك بإذلالها وامتهانها حيث تكون مصلحتها فى إعزازها وصيانتها، كما يأمرك بالتبذل لذوى الرياسات، وإهانة نفسك لهم، ويخيل إليك أنك تعزها بهم، وترفع قدرها بالذل لهم، ويذكرك قول الشاعر:

أهين لهم نفسى لأرفعها بهم ولن تكرم النفس التى لا تهينها

وغَلِط هذا القائل: فإن ذلك لا يصلح إلا لله وحده؛ فإنه كلما أهان العبد نفسه له أكرمه وأعزّه، بخلاف المخلوق، فإنك كلما أهنت نفسك له ذلت عند الله وعند أوليائه وهنت عليه.

فصل

ومن كيده وخداعه: أنه يأمر الرجل بانقطاعه فى مسجد، أو رباط، أو زاوية، أو تربة، ويحبسه هناك، وينهاه عن الخروج، ويقول له: متى خرجت تبذّلت للناس، وسقطت من أعينهم، وذهبت هيبتك من قلوبهم، وربما ترى فى طريقك منكراً، وللعدو فى ذلك مقاصد خفية يريدها منه: منها الكبر، واحتقار الناس، وحفظ الناموس، وقيام الرياسة، ومخالطة الناس تذهب ذلك، وهو يريد أن يزار ولا يزور، ويقصده الناس ولا يقصدهم، ويفرح بمجىء الأمراء إليه، واجتماع الناس عنده، وتقبيل يده، فيترك من الواجبات والمستحبات والقربات ما يقربه إلى الله، ويتعوّض عنه بما يقرب الناس إليه.

وقد كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يخرج إلى السوق، قال بعض الحفاظ: «وكان يشترى حاجته ويحملها بنفسه» ذكره أبو الفرج ابن الجوزى وغيره.

وكان أبو بكر رضى الله عنه يخرج إلى السوق يحمل الثياب، فيبيع ويشترى.

ومر عبد الله بن سلام رضى الله عنه وعلى رأسه حُزْمة حطب، فقيل له: مايحملك على هذا، وقد أغناك الله عز وجل؟ فقال: أردت أن أدفع به الكبر، فإنى سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول «لايدخل الجنة عبد فى قلبه مثقال ذرة من الكبر»

وكان أبو هريرة رضى الله تعالى عنه يحمل الحطب وغيره من حوائج نفسه وهو أمير على المدينة، ويقول «افسحوا لأميركم افسحوا لأميركم».

وخرج عمر بن الخطاب رضى الله عنه يوما وهو خليفة فى حاجةله ماشيا ، فأعيى ، فرأى غلاما على حمار له ، فقال : ياغلام احملنى فقد أعييت ، فنزل الغلام عن الدابة ، وقال : اركب يا أمير المؤمنين ، فقال : لا ، اركب أنت وأنا خلفك ، فركب خلف الغلام ، حتى دخل المدينة والناس يرونه .

فصـــــل

ومن كيده : أنه يغرى الناس بتقبيل يده ، والتمسح به ، والثناء عليه ، وسؤاله الدعاء ، ونحو ذلك ، حتى يرى نفسه ، ويعجبه شأنها ، فلو قيل له : إنك من أوتاد الأرض ، وبك يدفع البلاء عن الخلق ؛ ظن ذلك حقا ، وربما قيل له : إنه يتوسل به إلى الله تعالى ويُسأل الله تعالى به وبحرمته ، فيقضى حاجتهم ، فيقع ذلك فى قلبه ، ويفرح به ، ويظنه حقا ، وذلك كل الهلاك ، فإذا رأى من أحد من الناس تجافياً عنه ، أو قلة خضوع له ، تذمَّر لذلك ووجد فى باطنه ، وهذا شر من أرباب الكبائر المصرين عليها ، وهم أقرب إلى السلامة منه .

فصـــــل

ومن كيده : أنه يحسن إلى أرباب التخلّى والزهد والرياضة العمل بها جسهم وواقعهم ، دون تحكيم أمر الشارع ، ويقولون : القلب إذا كان محفوظاً مع الله كانت هواجسه وخواطره معصومة من الخطأ ، وهذا من أبلغ كيد العدو فيهم .

فإن الخواطر والهواجس ثلاثة أنواع : رحمانية ، وشيطانية ، ونفسانية ، كالرؤيا ، فلو بلغ العبد من الزهد والعبادة ما بلغ فمعه شيطانه ونفسه لا يفارقانه إلى الموت ، والشيطان يجرى منه مجرى الدم ، والعصمة إنما هى للرسل صلوات الله وسلامه عليهم الذين هم وسائط بين الله عز وجل وبين خلقه ، فى تبليغ أمره ونهيه ووعده ووعيده ، ومن عداهم يصيب ويخطئ ، وليس بحجة على الخلق .

وقد كان سيد المحدثين الملهَمِين : عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، يقول الشىء فيرده عليه

من هو دونه ، فيتبين له الخطأ ، فيرجع إليه وكان يعرض هواجسه وخواطره على الكتاب والسنة ، ولايلتفت إليها ولايحكم بها ولايعمل بها(١)

وهؤلاء الجهال يرى أحدهم أدنى شيء فيُحكِّم هواجسه وخواطره على الكتاب والسنة ، ولايلتفت إليهما ، ويقول : حدثنى قلبي عن ربى ، ونحن أخذنا عن الحى الذى لايموت ، وأنتم أخذتم عن الوسائط ، ونحن أخذنا بالحقائق ، وأنتم اتبعتم الرسوم ، وأمثال ذلك من الكلام الذى هو كفر و إلحاد ، وغاية صاحبه أن يكون جاهلا يعذر بجهله ، حتى قيل لبعض هؤلاء : لا تذهب فتسمع الحديث من عبد الرزاق ؟ فقال : مايصنع بالسماع من عبد الرزاق مَنْ يَسمع من الملك الخلاق ؟

وهذا غاية الجهل ، فإن الذى سمع من الملك الخلاق موسى بن عمران كليم الرحمن . وأما هذا وأمثاله فلم يحصل لهم السماع من بعض ورثة الرسول ، وهو يدعى أنه يسمع الخطاب من مرسله ، فيستغنى به عن ظاهر العلم ، ولعل الذى يخاطبهم هو الشيطان ، أو نفسه الجاهلة ، أو هما مجتمعين ، ومنفردين .

ومن ظن أنه يستغنى عما جاء به الرسول بما يُلْقَى فى قلبه من الخواطر والهواجس فهو من أعظم الناس كفرا . وكذلك إن ظن أنه يكتفى بهذا تارة وبهذا تارة ، فما يلقى فى القلوب لاعبرة به ولا التفات إليه إن لم يعرض على ماجاء به الرسول و يشهد له بالموافقة و إلا فهو من إلقاء النفس والشيطان .

وقد سئل عبد الله بن مسعود عن مسئلة المُفَوِّضَة شهرا ، فقال بعد الشهر « أقول فيها برأيي فإن يكن صوابا فمن الله ، و إن يكن خطأ فمنى ومن الشيطان ، والله برىء

(١) روى أبو يعلى وابن المنذر والزبير بن بكار وابن جرير « أن عمر ركب منبر رسول صلى الله عليه وسلم ثم قال : أيها الناس ! ما إكثاركم فى صدق النساء ، وقد كان رسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه والصدقات فيا بينهم أربعمائة درهم فما دون ذلك ؟ ولو كان الإكثار فى ذلك تقوى عند الله ، أو كرامة ؟ لم تسبقوهم إليها . فلأعرفن مازاد رجل فى صداق امرأة على أربعمائة درهم . قال : ثم نزل . فاعترضته امرأة من قريش . فقالت : يا أمير المؤمنين نهيت الناس أن يزيدوا فى مهر النساء على أربعمائة درهم ؟ قال : نعم . فقالت : أما سمعت ماأنزل الله فى القرآن ؟ قال : وأى ذلك ؟ فقالت : أنا سمعت الله يقول (وآتيتم إحداهن قنطارا ــ الآية) قال فقال : اللهم غفرا . كل الناس أفقه من عمر . ثم رجع فركب المنبر فقال : أيها الناس ، إنى كنت نهيتكم أن تزيدوا فى صدقات النساء على أربعمائة درهم . فمن شاء أن يعطى من ماله ما أحب » قال الحافظ ابن كثير فى تفسير الآية : إسناد أبى يعلى جيد .

منه ورسوله[١] »

وكتب كاتب لعمر رضى الله عنه بين يديه « هذا ما أرى الله عمر ، فقال : لا ، امحُه واكتب : هذا مارأى عمر »

وقال عمر رضى الله عنه أيضا « أيها الناس اتهموا الرأى على الدين ، فلقد رأيتنى يوم أبى جَنْدَل ولو أستطيع أن أردّ أمر رسول الله عليه السلام لرددته[٢] » .

واتهام الصحابة لآرائهم كثير مشهور ، وهم أبَرُّ الأمة قلوبًا ، وأعمقها علمًا ، وأبعدها من الشيطان ، فكانوا أتبع الأمة للسنة ، وأشدهم اتهاما لآرائهم ، وهؤلاء ضد ذلك .

وأهل الاستقامة منهم سلكوا على الجادّة ، ولم يلتفتوا إلى شىء من الخواطر والهواجس والإلهامات ، حتى يقوم عليها شاهدان .

قال الجنيد : قال أبو سليمان الدّارانى « ربما يقع فى قلبى النكتة من نكت القوم أياما ، فلا أقبلها إلا بشاهدين عدلين من الكتاب والسنة » .

وقال أبو يزيد « لو نظرتم إلى رجل أعطى من الكرامات حتى يتربَّع فى الهواء ، فلا تغتروا به ، حتى تنظروا : كيف تجدونه عند الأمر والنهى ، وحفظ الحدود ؟ »

---

(١) روى أبو داود فى باب من تزوج ولم يسمّ صداقا حتى مات : عن عبد الله بن عتبة بن مسعود أن عبد الله بن مسعود أتى فى رجل ، بهذا الخبر . قال : فاختلفوا إليه شهرا ــ أو قال : مرات ــ قال : فإنى أقول فيها : إن لها صداقا كصداق نسائها ، لا وكس ولا شطط . وإن لها الميراث وعليها العدة . فإن يك صوابا فمن الله وإن يك خطأ فمنى ومن الشيطان ، والله ورسول بريئان . فقام أناس من أشجع فيهم الجراح وأبو سنان . فقالوا : يا ابن مسعود نحن نشهد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قضاها فى فينا بروع بنت واشق وزوجها هلال بن مرة الأشجعى كما قضيت . قال : ففرح عبد الله بن مسعود فرحا شديداً حين وافق قضاؤه قضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

(٢) هو أبو جندل بن سهيل بن عمرو أسلم بمكة ، فسجنه أبوه وقيده . فلما كان يوم الحديبية هرب أبو جندل إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم ــ وكان أبوه سهيل هو الذى تولى عن قريش عقد الصلح مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . فبينما يكتبون الصحيفة إذ طلع أبو جندل . فقام إليه أبوه وضرب وجهه وأخذ بتلابيبه يتله وقال : يا محمد قد لجت القضية بينى وبينك قبل أن يأتيك هذا . قال : صدقت . فصاح أبو جندل بأعلى صوته : أيا معشر المسلمين أرد إلى المشركين يفتنونى فى دينى . فقال له النبىّ صلى الله عليه وسلم أبا جندل اصبر واحتسب فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا ، وإنا صالحنا القوم وإنا لانغدر » وكان الناس قد جاءوا مع رسول الله لا يشكون فى الفتح . فلما كان صلح الحديبية حزنوا أشد الحزن وكان أشدهم حزنا عمر رضى الله عنه . إذ قال : ألسنا على الحق وديننا هو الحق . وأليسوا على الباطل ودينهم الباطل . فما بالنا نرضى من الدنية فى ديننا ؟ فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنا رسول الله وظن الناس أن هذا الصلح حيف على المسلمين وهضم لمكانهم والله يعلم أنه الخير . إذ أنزل على رسوله فى مرجعه من هذا الصلح (إنا فتحنا لك فتحاً مبينا ــ السورة) وهذا الذى يعنيه عمر رضى الله عنه .

وقال أيضا « من ترك قراءة القرآن، ولزوم الجماعات، وحضور الجنائز، وعيادة المرضى، وادّعى بهذا الشأن؛ فهو مدع » .

وقال سَرِيٌّ السَّقَطِي « من ادَّعى باطن علم ينقضه ظاهر حكم فهو غالط » .

وقال الجنيد « مذهبنا هذا مقيد بالأصول بالكتاب والسنة، فمن لم يحفظ الكتاب، ويكتب الحديث، ويتفقه؛ لايُقْتَدَى به »

وقال أبو بكر الدّقاق « من ضيّع حدود الأمر والنهى فى الظاهر حُرِم مشاهدة القلب فى الباطن »

وقال أبو الحسين النُّورى « من رأيته يدّعى مع الله حالة تُخرجه عن حد العلم الشرعى فلا تَقْرَبْه، ومن رأيته يدَّعى حالة لايشهد لها حفظُ ظاهره فاتهمه على دينه »

وقال الجريرى «أمرنا هذا كله مجموع على فَصْل واحد: أن تُلزم قلبك المراقبة، ويكون العلم على ظاهرك قائما » .

وقال أبو حفص الكبير الشان « من لم يزن أحواله وأفعاله بالكتاب والسنة ولم يَتَّهم خواطره فلا تَعُدُّوه فى ديوان الرجال » .

وما أحسن ماقال أبو أحمد الشيرازى « كان الصوفية يَسْخَرون من الشيطان، والآن الشيطان يسخر منهم »

ونظير هذا ماقاله بعض أهل العلم «كان الشيطان فيما مضى يهب من الناس، واليوم الرجل الذى يهب من الشيطان » .

فصل

ومن كيده: أمرهم بلزوم زِيٍّ واحد، ولِبْسَة واحدة، وهيئة ومِشْيةمعينة، وشيخ معين، وطريقة مخترعة، ويفرض عليهم لزوم ذلك بحيث يلزمونه كلزوم الفرائض؛ فلا يخرجون عنه ويقدحون فيمن خرج عنه ويذمونه، وربما يلزم أحدهم موضعا معينا للصلاة لايصلى إلا فيه، وقد نهى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم « أن يُوَطِّن الرجل المكان للصلاة

كا بوطن البعير » وكذلك ترى أحدهم لايصلى إلا على سجادة ، ولم يصلّ عليه السلام على سجادة قط ، ولا كانت السجادة تفرش بين يديه ، بل كان يصلى على الأرض ، وربما سجد فى الطين ، وكان يصلى على الحصير ، فيصلى على ما اتفق بسطه ، فإن لم يكن ثمة شىء صلى على الأرض .

وهؤلاء اشتغلوا بحفظ الرسوم عن الشريعة والحقيقة ، فصاروا واقفين مع الرسوم المبتدعة ليسوا مع أهل الفقه ، ولا مع أهل الحقائق ، فصاحب الحقيقة أشد شىء عليه التقيد بالرسوم الوضعية ، وهى من أعظم الحجب بين قلبه و بين الله ، فمتى تقيد بها حبس قلبه عن سيره وكان أخس أحواله الوقوف معها ، ولا وقوف فى السير ، بل إما تقدم و إما تأخر ، كما قال تعالى (« ٧٤ : ٣٧ » لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ) فلا وقوف فى الطريق إنما هو ذهاب وتقدم ، أو رجوع وتأخر .

ومن تأمل هدى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وسيرته وجده مناقضاً لهدى هؤلاء ، فإنه كان يلبس القميص تارة ، والقَباء تارة ، والجبة تارة ، والإزار والرداء تارة ، ويركب البعير وحده ، ومُرْدفاً لغيره ، ويركب الفرس مُسْرَجا وعُرْيانا ، ويركب الحمار ، ويأكل ما حضر ، ويجلس على الأرض تارة ، وعلى الحصير تارة ، وعلى البساط تارة ، ويمشى وحده تارة ، ومع أصحابه تارة ، وهَدْيه عدم التكلف والتقيد بغيرما أمره به ربه ، فبين هديه وهدى هؤلاء بَوْن بعيد .

فصل

ومن كيده الذى بلغ به من الجهال ما بلغ : الوسواس الذى كادهم به فى أمر الطهارة والصلاة عند عقد النية ، حتى ألقاهم فى الآصار والأغلال ، وأخرجهم عن اتباع سنة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وخَيَّل إلى أحدهم أن ما جاءت به السنة لا يكفى حتى يضم إليه غيره ، فجمع لهم بين هذا الظن الفاسد ، والتعب الحاضر ، و بطلان الأجر أو تنقيصه .

ولاريب أن الشيطان هوالداعى إلى الوسواس : فأهله قد أطاعوا الشيطان، ولبّوا دعوته، واتبعوا أمره ، ورغبوا عن اتباع سنة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وطريقته ، حتى إن أحدهم ليرى أنه إذا توضأ وضوء رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، أو اغتسل كاغتساله ؛ لم يطهر ولم يرتفع حَدَثه . ولولا العذر بالجهل لكان هذا مشاقة للرسول ، فقد كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يتوضأ بالمُدّ ، وهو قريب من ثُلثِ رطل بالدِّمَشْقى[١] ، ويغتسل بالصاع وهو نحو رطل وثلث ، والموسوس يرى أن ذلك القدر لا يكفيه لغسل يديه ، وصح عنه عليه السلام أنه توضأ مرة مرة ، ولم يزد على ثلاث ، بل أخبر أن « من زاد عليها فقد أساء وتعدى وظلم[٢] » فالموسوس مسىء متعد ظالم بشهادة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فكيف يتقرب إلى الله بما هو مسىء به متعدّ فيه لحدوده ؟

وصح عنه أنه كان يغتسل هو وعائشة رضى الله عنها من قصعة بينهما فيها أثر العجين ، ولو رأى الموسوس من يفعل هذا لأنكر عليه غاية الإنكار ، وقال : ما يكفى هذا القدر لغسل اثنين ؟ كيف والعجين يحلله الماء فيغيره ؟ هذا والرشاش ينزل فى الماء فينجسه عند بعضهم ، ويفسده عند آخرين ، فلا تصح به الطهارة ، وكان صلى الله تعالى عليه وسلم يفعل ذلك مع غير عائشة ، مثل ميمونة وأم سلمة ، وهذا كله فى الصحيح .

وثبت أيضاً فى الصحيح عن ابن عمر رضى الله عنه أنه قال « كان الرجال والنساء على عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يتوضئون من إناء واحد » والآنية التى كان عليه السلام وأزواجه وأصحابه ونساؤهم يغتسلون منها لم تكن من كبار الآنية ولا كانت لها مادة تمدها ، كأنبوب الحمام ونحوه ، ولم يكونوا يراعون فيضانها حتى يجرى الماء من حافاتها ، كما يراعيه جهال الناس ممن بلى بالوسواس فى جُرْن الحمام[٣]

فهَدْىُ رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى من رغب عنه فقد رغب عن سنته ؛ جواز الاغتسال من الحياض والآنية ، وإن كانت ناقصة غير فائضة ؛ ومن انتظر الحوض حتى

---

(١) المدّ : ربع الصاع . قال فى القاموس : ملء كفى الإنسان المعتدل إذا ملأهما ومد يده بهما . وبه سمى مداً . قال : وقد جربت ذلك فوجدته صحيحاً .

(٢) رواه أحمد وأبو داود والنسائى عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده . وصححه ابن خزيمة وغيره .

(٣) الجرن — بضم الجيم وسكون الراء — حجر منقور يتوضأ منه . كذا فى القاموس .

يفيض ثم استعمله وحده ولم يمكن أحدا أن يشاركه فى استعماله فهو مبتدع مخالف للشريعة .

قال شيخنا : ويستحق التعزير البليغ الذى يزجره وأمثاله عن أن يشرعوا فى الدين مالم يأذن به الله ، ويعبدوا الله بالبدع لا بالاتباع .

ودلت هذه السنن الصحيحة على أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه لم يكونوا يكثرون صبّ المـاء ، ومضى على هذا التابعون لهم بإحسان .

قال سعيد بن المسيِّب « إنى لاستنجى من كوز الحب[١] وأتوضأ وأفضِلُ منه لأهلى »

وقال الإمام أحمد « مِنْ فقهِ الرجل قِلّة ولوعه بالمـاء »

وقال المروزى « وضَّأْت أبا عبد الله بالعسكر ، فسترته من الناس ، لئلا يقولوا إنه لايحسن الوضوء لقلة صَبِّه المـاء »

وكان أحمد يتوضأ فلايكاد يَبُلُّ الثرى .

وثبت عنه صلى الله عليه وسلم فى الصحيح «أنه توضأ من إناء فأدخل يده فيه ثم تمضمض واستنشق » وكذلك كان فى غسله يدخل يده فى الإناء ، ويتناول المـاء منه ، والموسوس لا يجوز ذلك ، ولعله أن يحكم بنجاسة المـاء ويسلبه طهوريته بذلك .

وبالجملة فلا تطاوعه نفسه لاتباع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأن يأتى بمثل ما أتى به أبداً ، وكيف يطاوع الموسوس نفسه أن يغتسل هو وامرأته من إناء واحد قدر الفَرَق قريباً من خمسة أرطال بالدمشقى ، يغمسان أيديهما فيه ، ويفرغان عليهما ؟ فالمسوس يشمل من ذلك كما يشمئز المشرك إذا ذُكر الله وحده .

قال أصحاب الوسواس : إنما حَملنا على ذلك الاحتياط لديننا ، والعمل بقوله صلى الله تعالى عليه وسلم « دع ما يريبك إلى مالا يريبك[٢] » وقوله « من اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه[٣] » وقوله « الإثم ماحاك فى الصدر » .

---

(١) الحب ــ بضم الحاء ــ الجرة ، أو ذات العروتين .

(٢) رواه الإمام أحمد عن أنس . والنسائى والترمذى وقال : حسن صحيح ، وابن حبان عن الحسن بن على رضى الله عنهما .

(٣) رواه البخارى ومسلم وأبو داود ، والترمذى عن النعمان بن بشير فى حديث . « الحلال بين والحرام بين » الطويل .

وقال بعض السلف: الإثم حَوْز القلوب[١]، وقد وَجدَ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم تمرة فقال «لولا أني أخشى أن تكون من الصدقة لأكلتها[٢]» أفلا يرى أنه ترك أكلها احتياطا؟

وقد أفتى مالك رحمه الله فيمن طلق امرأته وشَكَّ : هل هي واحدة أم ثلاث : بأنها ثلاث ، احتياطا للفروج .

وأفتى من حلف بالطلاق : أن في هذه اللوزة حبتين ، وهو لا يعلم ذلك ، فبان الأمر كما حلف عليه : أنه حانث ، لأنه حلف على ما لا يعلم .

وقال فيمن طلق واحدة من نسائه ثم أنسيها : يطلق عليه جميع نسائه احتياطا ، وقطعا للشك .

وقال أصحاب مالك فيمن حلف بيمين ثم نسيها : إنه يلزمه جميع مايُحلف به عادة ، فيلزمه الطلاق ، والعتاق ، والصدقة بثلث المال ، وكفارة الظهار ، وكفارة اليمين بالله تعالى ، والحج ماشيا ، ويقع الطلاق في جميع نسائه ، ويعتق عليه جميع عبيده وإمائه . وهذا أحد القولين عندهم.

ومذهب مالك أيضاً أنه إذا حلف ليفعلنّ كذا : أنه على حنث حتى يفعله ، فيحال بينه وبين امرأته .

ومذهبه أيضاً : أنه إذا قال : إذا جاء رأس الحَوْل فأنت طالق ثلاثاً : أنها تطلق في الحال.

وهذا كله احتياط .

وقال الفقهاء : من خفي عليه موضع النجاسة من الثوب وجب عليه غسله كله .

وقالوا : إذا كان معه ثياب طاهرة وتنجس منها ثياب ، وشك فيها ، صلى في ثوب بعد ثوب ، بعدد النجس ، وزاد صلاة لتيقن براءة ذمته .

وقالوا : إذا اشتبهت الأواني الطاهرة بالنجسة أراق الجميع وتيمم ، وكذلك إذا اشتبهت عليه القبلة ، فلا يدري في أي جهة ، فإنه يصلي أربع صلوات عند بعض الأئمة، لتبرأ ذمته بيقين .

وقالوا : من ترك صلاة من يوم ثم نسيها وجب عليه أن يصلي خمس صلوات .

وقد أمر النبي عليه الصلاة والسلام من شك في صلاته أن يبني على اليقين .

---

(١) أي تحيرها واضطرابها وقلقها .

(٢) رواه البخاري عن أنس موصولا وعلقه عن همام عن أبي هريرة في باب مايتنزه من الشبهات .

وحرم أكل الصيد إذا شك صاحبه هل مات بسهمه أو بغيره ، كما إذا وقع فى الماء .

وحرم أكله إذا خالط كلبه كلبا آخر ، للشك فى تسمية صاحبه عليه .

وهذا باب يطول تتبعه .

فالاحتياط والأخذ باليقين غير مستنكر فى الشرع ، وإن سميتموه وسواسا .

وقد كان عبد الله بن عمر يغسل داخل عينيه فى الطهارة ، حتى عمى

وكان أبو هريرة إذا توضأ أشرع فى العَضُد ، وإذا غسل رجليه أشرع فى الساقين .

فنحن إذا احتطنا لأنفسنا وأخذنا باليقين وتركنا مايَريب إلى مالايريب ، وتركنا المشكوك فيه للمتيقن المعلوم، وتجنبنا محل الاشتباه ، لم نكن بذلك عن الشريعة خارجين ، ولافى البدعة والجين ، وهل هذا إلا خير من التسهيل والاسترسال ؟ حتى لايبالى العبد بدينه ، ولا يحتاط له ، بل يسهل الأشياء ويُمَشِّى حالها ، ولايبالى كيف توضأ ؟ ولا بأى ماء توضأ ؟ ولابأى مكان صلى ؟ ولايبالى ماأصاب ذيله وثوبه . ولايسأل عما عهد بل يتغافل ، ويحسِّن ظنه ، فهو مهمل لدينه لايبالى ماشك فيه . ويحمل الأمور على الطهارة ، وربما كانت أخش النجاسة ، ويدخل بالشك ويخرج بالشك . فأين هذا ممن استقصى فى فعل ماأمر به ، واجتهد فيه ، حتى لايخلّ بشىء منه ، وإن زاد على المأمور فإنما قصده بالزيادة تكميل المأمور ، وأن لاينقص منه شيئاً ؟ .

قالوا : وجماع ما ينكرونه علينا احتياط فى فعل مأمور ، أواحتياط فى اجتناب محظور . وذلك خير وأحسن عاقبة من التهاون بهذين ، فانه يفضى غالباً إلى النقص من الواجب ، والدخول فى المحرم ، وإذا وازنّا بين هذه المفسدة ومفسدة الوسواس كانت مفسدة الوسواس أخفّ ، هذا إن ساعدناكم على تسميته وسواساً ، وإنما نسميه احتياطاً واستظهاراً ، فلستم بأسعد منا بالسنة ، ونحن حولها نُدَنْدِن ، وتكميلها نريد .

وقال أهل الاقتصاد والاتباع : قال الله تعالى (« ٣٣ : ٢١ » لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ) ، وقال تعالى : (« ٣ : ٣١ » قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ) ، وقال تعالى : (« ٧ : ١٥٨ » وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) ، وقال تعالى : (« ٦ : ١٥٣ » وَأَنَّ هٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) .

وهذا الصراط المستقيم الذى وصّانا باتباعه هو الصراط الذى كان عليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وأصحابه ، وهو قَصْد السبيل ، وما خرج عنه فهو من السبل الجائرة ، و إن قاله من قاله ، لـكن الجور قد يكون جوراً عظيما عن الصراط ، وقد يكون يسيراً ، و بين ذلك مراتب لا يحصيها إلا الله وهذا كالطريق الحسّي ، فإن السالك قد يعدل عنه ويجور جوراً فاحشاً ، وقد يجور دون ذلك ، فالميزان الذى يعرف به الاستقامة على الطريق والجور عنه هو ما كان رسول الله وأصحابه عليه ، والجائر عنهُ إما مفرط ظالم ، أو مجتهد متأول ، أو مقلد جاهل . فمنهم المستحق للعقوبة . ومنهم المغفور له . ومنهم المـأجور أجراً واحداً . بحسب نيّاتهم ومقاصدهم واجتهادهم فى طاعة الله تعالى ورسوله . أو تفريطهم .

ونحن نسوق من هَـدْى رسول الله وهدى أصحابه مابيين أى الفريقين أولى باتباعه ، ثم نجيب عما احتجوا به بعون الله وتوفيقه .

ونقدم قبل ذلك ذكر النهى عن الغلوّ ، وتعدى الحدود ، والاسراف وأن الاقتصاد والاعتصام بالسنة عليهما مدار الدين .

قال الله تعالى (« ٤ : ١٧١ » يَا أَهْلَ الْـكِتَابِ لاَتَغْلُوا فى دِينِـكُمْ) وقال تعالى . (« ٦ : ١٤١ » وَلاَ تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَيُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ) وقال تعالى (« ٢ : ٢٢٩» تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا) وقال تعالى : (« ٢ : ١٩٠ » وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لاَيُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ) وقال تعالى (« ٧ : ٥٤ » ادعُوا رَبَّـكُمْ تَضَرُّعاً وَخفْيَةً إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ) .

وقال ابن عباس رضى الله عنهما قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ـ غداة العَقَبَة وهو على ناقتهِ «القُطْ لى حَصًى . فلقطت له سَبْعَ حَصيات من حصى الخَذْف ، فجعل يَنْفُضُهُنَّ فى كَفِّهِ ويقول : أمثالَ هؤلاء فارموا ، ثم قال : أيها الناس . إياكم والغلوَّ فى الدين . فإنما أهلك الذين من قبلكم الغلو فى الدين » رواه الإمام أحمد والنسائى .

وقال أنس رضى الله عنه : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم « لاتُشدّدوا على أنفسكم فيشدد الله عليكم . فإن قوما شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم ، فتلك بقاياهم فى الصَّوامع والدِّيارات : رَهبانِيَّةً ابتدعوها ما كتبناها عليهم[1] » .

---

(١) نقله الحافظ ابن كثير فى تفسير سورة الحديد قال : وقال الحافظ أبو يعلى الموصلى ـ وساق سنده إلى عبد الرحمن بن أبى العمياء ـ « أن سهل بن أبى أمامة حدثه أنه دخل هو وأبوه على أنس بن مالك بالمدينة زمان عمر بن عبد العزيز ، وهو أمير المدينة ، وهو يصلى صلاة خفيفة ـ الحديث » .

فنهى النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن التشديد فى الدين ، وذلك بالزيادة على المشروع وأخبر ، أن تشديد العبد على نفسه هو السبب لتشديد الله عليه ، إما بالقدَر ، وإما بالشرع .

فالتشديد بالشرع : كما يشدد على نفسه بالنذر الثقيل ، فيلزمه الوفاء به ، وبالقدَر كفعل أهل الوسواس . فإنهم شددوا على أنفسهم فشدد عليهم القدَر ، حتى استحكم ذلك وصار صفة لازمة لهم .

قال البخارى « وكره أهل العلم الإسراف فيه ـ يعنى الوضوء ـ وأن يجاوزوا فعل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقال ابن عمر رضى الله عنهما « إسباغ الوضوء : الإنقاء » .

فالفقه كل الفقه الاقتصاد فى الدين ، والاعتصام بالسنة .

قال أبَىّ بن كَعْب «عليكم بالسبيل والسنة ، فإنه ما من عبد على السبيل والسنة ذكر الله عز وجل فاقشعرَّ جلده من خشية الله تعالى إلا تحاتَّتْ عنه خطاياه كما يتحاتُّ عن الشجرة اليابسة ورَقُها ، وإن اقتصاداً فى سبيل وسنةٍ خيرٌ من اجتهاد فى خلاف سبيل وسنة ، فاحرصوا إذا كانت أعمالكم اقتصاداً أن تكون على منهاج الأنبياء وسنتهم » .

قال الشيخ أبو محمد المقدسى فى كتابه ذم الوسواس :

الحمد لله الذى هدانا بنعمته ، وشرفنا بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم وبرسالته ، ووفقنا للاقتداء به والتمسك بسنته ، ومَنّ علينا باتباعه الذى جعله عَلَما على محبته ومغفرته ، وسبباً لكتابة رحمته وحصول هدايته ، فقال سبحانه (« ٣ : ٣١ » قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ) ، وقال تعالى : (« ٧ : ١٥٦ » وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ) ثم قال : (« ٧ : ١٥٨ » فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) .

أما بعد : فإن الله سبحانه جعل الشيطان عدوًّا للانسان ، يقعد له الصراط المستقيم ، ويأتيه من كل جهة وسبيل ، كما أخبر الله تعالى عنه أنه قال (« ٧ : ١٦ » لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ١٧ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ) ، وحذرنا الله عز وجل من متابعته ، وأمرنا بمعاداته ومخالفته ، فقال

سبحانه (« ٣٥ : ٦ » إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا) ، وقال : (« ٧ : ٢٧ » يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ) ؛ وأخبرنا بما صنع بأبوينا تحذيراً لنا من طاعته ، وقطعاً للعذر فى متابعته ، وأمرنا الله سبحانه وتعالى باتباع صراطه المستقيم ونهانا عن اتباع السبل ، فقال سبحانه (« ٦ : ١٥٣ » وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ) ، وسبيل الله وصراطه المستقيم : هو الذى كان عليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وصحابته ، بدليل قوله عز وجل (« ٣٦ : ١ يس وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ٢ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ٣ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) ، وقال (« ٢٢ : ٦٧ » وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُسْتَقِيمٍ) وقال (« ٤٢ : ٥٢ » إِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) فمن اتبع رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فى قوله وفعله فهو على صراط الله المستقيم ، وهو ممن يحبه الله ويغفر له ذنوبه ، ومن خالفه فى قوله أو فعله فهو مبتدع ، متبع لسبيل الشيطان غير داخل فيمن وعد الله بالجنة والمغفرة والإحسان .

فصل

ثم إن طائفة الموسوسين قد تحقق منهم طاعة الشيطان ، حتى اتصفوا بوسوسته ، وقبلوا قوله ، وأطاعوه ، ورغبوا عن اتباع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وصحابته ، حتى إن أحدهم ليرى أنه إذا توضأ وضوء رسول الله عليه الصلاة والسلام ، أو صلى كصلاته ؛ فوضوؤه باطل ، وصلاته غير صحيحة . ويرى أنه إذا فعل مثل فعل رسول الله عليه الصلاة والسلام فى مواكلة الصبيان ، وأكل طعام عامة المسلمين ؛ أنه قد صار نجساً ، يجب عليه تسبيع يده وفمه . كما لو ولغ فيهما كلب أو بال عليهما هرٌّ .

ثم إنه بلغ من استيلاء إبليس عليهم أنهم أجابوه إلى مايشبه الجنون ، ويقارب مذهب السوفسطائية الذين ينكرون حقائق الموجودات ، والأمور المحسوسات ، وعلمُ الإنسان بحال نفسه من الأمور الضروريات اليقينيات ، وهؤلاء يغسل أحدهم عضوه غسلا يشاهده ببصره ويكبّر ، ويقرأ بلسانه ، بحيث تسمعه أذناه ، ويعلمه بقلبه ، بل يعلمه غيره منه ويتيقنه ،

ثم يشك : هل فعل ذلك أم لا ؟ وكذلك يشككه الشيطان فى نيته وقصده التى يعلمها من نفسه يقيناً ، بل يعلمها غيره منه بقرائن أحواله . ومع هذا يقبل قول إبليس فى أنه ما نوى الصلاة ، ولا أرادها ، مكابرة منه لعيانه ، وجحداً ليقين نفسه ، حتى تراه متلدداً متحيراً : كأنه يعالج شيئاً يجتذبه ، أو يجد شيئاً فى باطنه يستخرجه . كل ذلك مبالغة فى طاعة إبليس ، وقبول وسوسته ، ومن انتهت طاعته لإبليس إلى هذا الحد فقد بلغ النهاية فى طاعته .

ثم إنه يقبل قوله فى تعذيب نفسه ويطيعه فى الإضرار بجسده ، تارة بالغوص فى الماء البارد ، وتارة بكثرة استعماله وإطالة العَرْك ، وربما فتح عينيه فى الماء البارد ، وغسل داخلهما حتى يضر ببصره ، وربما أفضى إلى كشف عورته للناس ، وربما صار إلى حال يسخر منه الصبيان ويستهزئ به من يراه .

قلت : ذكر أبو الفرج بن الجوزى عن أبى الوفاء بن عقيل : أن رجلا قال له : أنغمس فى الماء مراراً كثيرة وأشكُّ : هل صحّ [لى] الغسل أم لا ، فما ترى فى ذلك ؟ فقال له الشيخ اذهب ، فقد سقطت عنك الصلاة . قال: وكيف ؟ قال : لأن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « رُفِع القلم عن ثلاثة : المجنون حتى يفيق ، والنائم حتى يستيقظ ، والصبىّ حتى يبلغ[1] » ومن ينغمس فى الماء مراراً ويشك هل أصابه الماء أم لا ، فهو مجنون .

قال[2] : وربما شغله بوسواسه حتى تفوته الجماعة ، وربما فاته الوقت ، ويشغله بوسوسته فى النية حتى تفوته التكبيرة الأولى ، وربما فوّت عليه ركعة أو أكثر ، ومنهم من يحلف أنه لا يزيد على هذا ، ثم يكذب .

قلت : وحكى لى من أثق به عن موسوس عظيم رأيته أنا يكرر عقد النية مراراً عديدة فيشق على المأمومين مشقة كبيرة ، فعرض له أن حلف بالطلاق أنه لا يزيد على تلك المرة ، فلم يدعه إبليس حتى زاد ، ففرق بينه وبين امرأته ، فأصابه لذلك غَمٌّ شديد ، وأقاما متفرقين

---

(١) رواه أحمد وأبو داود والحاكم عن على وعمر رضى الله عنهما .

(٢) يعنى ابن قدامة وما روى عن ابن الجوزى جملة معترضة بين كلامى ابن قدامة . وكذلك حكاية الموسوس العظيم الذى آذى الله ورسوله والمصلين بتنطعه وتقعره .

دهراً طويلا ، حتى تزوجت تلك المرأة برجل آخر ، وجاءه منها ولد ، ثم إنه حنث فى يمين حلفها ففرق بينهما وردت إلى الأول بعد أن كاد يتلف لمفارقتها .

و بلغنى عن آخر أنه كان شديد التنطع فى التلفظ بالنية والتقعُّر فى ذلك ، فاشتد به التنطع والتقعر يوما إلى أن قال : أصلى ، أصلى ، مراراً ، صلاة كذا وكذا . وأراد أن يقول : أداء ، فأعجم الدال ، وقال : أذاء لله . فقطع الصلاة رجل إلى جانبه ، يقال : ولرسوله وملائكته وجماعة المصلين .

قال : ومنهم من يتوسوس فى إخراج الحرف حتى يكرره مرارا .

قال : فرأيت منهم من يقول : الله أ ككـكبر . قال : وقال لى إنسان منهم : قد عجزت عن قول : « السلام عليكم » فقلت له : قل مثل ما قد قلت الآن ، وقد استرحت .

وقد بلغ الشيطان منهم أن عذبهم فى الدنيا قبل الآخرة ، وأخرجهم عن اتباع الرسول ، وأدخلهم فى جملة أهل التنطع والغلو . وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً .

فمن أراد التخلص من هذه البلية فليستشعر أن الحق فى اتباع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى قوله وفعله ، وليعزم على سلوك طريقته عزيمة من لا يشك أنه على الصراط المستقيم ، وأن ماخالفه من تسويل إبليس ووسوسته ، ويوقن أنه عدوّ له لايدعوه إلى خير (إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ) ، وليترك التعريج على كل ماخالف طريقة رسول الله عليه الصلاة والسلام كائناً ما كان ؛ فإنه لايشك أن رسول الله عليه الصلاة والسلام كان على الصراط المستقيم . ومن شك فى هذا فليس بمسلم . ومن علمه فإلى أين العدول عن سنته ؟ وأى شىء يبتغى العبد غير طريقته ؟ ويقول لنفسه : ألست تعلمين أن طريقة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم هى الصراط المستقيم ؟ فاذا قالت له : بلى ، قال لها : فهل كان يفعل هذا ؟ فستقول : لا ، فقل لها : فماذا بعد الحق إلا الضلال ؟ وهل بعد طريق الجنة إلا طريق النار ؟ وهل بعد سبيل الله وسبيل رسوله إلا سبيل الشيطان ؟ فان اتبعتِ

سبيله كنتِ قرينه، وستقولين:(يَالَيْتَ بَيْنِي وَ بَيْنَكَ بُعْدَالْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ) . ولينظر أحوال السلف فى متابعتهم لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فليقتد بهم، وليختر[1] طريقهم قد روينا عن بعضهم أنه قال : « لقد تقدمنى قوم لو لم يجاوزوا بالوضوء الظفر ما تجاوزته » .

قلت : هو إبراهيم النخعى .

وقال زين العابدين يوماً لابنه : « يابنى ، اتخذ لى ثوبا ألبسه عند قضاء الحاجة ، فإنى رأيت الذباب يسقط على الشىء ثم يقع على الثوب ، ثم انتبهَ فقال: ما كان للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه إلا ثوب واحد ، فتركه » .

وكان عمر رضى الله تعالى عنه يهمُّ بالأمر ويعزم عليه ، فإذا قيل له : لم يفعله رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم انتهى، حتى إنه قال : «لقد هممت أن أنهى عن لبس هذه الثياب، فانه قد بلغنى أنها تصبغ ببول العجائز . فقال له أُبَىٌّ : مالك أن تنهى ، فان رسول الله عليه الصلاة والسلام قد لبسها ولُبست فى زمانه ، ولو علم الله أن لبسها حرام لبينه لرسوله صلى الله عليه وسلم . فقال عمر : صدقت » .

ثم ليعلم أن الصحابة ما كان فيهم موسوس . ولو كانت الوسوسة فضيلة لما ادّخرها الله عن رسوله وصحابته ، وهم خير الخلق وأفضلهم ، ولو أدرك رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الموسوسين لمقتهم ، ولو أدركهم عمر رضى الله تعالى عنه لضربهم وأدبهم ، ولو أدركهم الصحابة لبدّعوهم ، وها أنا أذكر ما جاء فى خلاف مذهبهم على ما يسره الله تعالى مفصلا :

الفصل الأول
فى النية فى الطهارة والصلاة

النية هى القصد والعزم على فعل الشىء ، ومحلها القلب ، لا تعلق لها باللسان أصلا ، ولذلك لم ينقل عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ولا عن أصحابه فى النية لفظ بحال ، ولاسمعنا

(١) فى نسخة : وليحتذ .

عنهم ذكر ذلك . وهذه العبارات التى أحدثت عند افتتاح الطهارة والصــلاة قد جعلها الشيطان معتركا لأهل الوسواس ، يحبسهم عندها ويعذبهم فيها ، ويوقعهم فى طلب تصحيحها فترى أحدهم يكررها ويجهد نفسه فى التلفظ بها ، وليست من الصلاة فى شىء ، وإنما النية قصد فعل الشىء ، فكل عازم على فعل فهو ناويه ، لايتصور انفكاك ذلك عن النية فانه حقيقتها ؛ فلا يمكن عدمها فى حال وجودها . ومن قعد ليتوضأ فقد نوى الوضوء ، ومن قام ليصلى فقد نوى الصلاة ، ولا يكاد العاقل يفعل شيئاً من العبادات ولا غيرها بغير نية ؛ فالنية أمر لازم لأفعال الإنسان المقصودة ، لا يحتاج إلى تعب ولا تحصيل . ولو أراد إخلاء أفعاله الاختيارية عن نية لعجز عن ذلك . ولو كلفه الله عزّوجل الصلاة والوضوء بغير نية لكلفه ما لايطيق ، ولا يدخل تحت وسعه . وما كان هكذا فما وجه التعب فى تحصيله . وإن شك فى حصول نيّته فهو نوع جنون . فانّ علم الإنسان بحال نفسه أمر يقينى . فكيف يشك فيه عاقل من نفسه ؟ ومن قام ليصلى صلاة الظهر خلف الإمام فكيف يشك فى ذلك ؟ ولو دعاه داع إلى شغل فى تلك الحال لقال : إنى مشتغل أريد صلاة الظهر ، ولو قال له قائل فى وقت خروجه إلى الصلاة : أين تمضى ؟ لقال : أريد صلاة الظهر مع الإمام ، فكيف يشك عاقل فى هذا من نفسه وهو يعلمه يقيناً ؟

بل أعجب من هذا كله أن غيره يعلم بنيته بقرائن الأحوال ؛ فانه إذا رأى إنساناً جالساً فى الصف فى وقت الصلاة عند اجتماع الناس علم أنه ينتظر الصلاة . وإذا رآه قد قام عند إقامتها ونهوض الناس إليها علم أنه إنما قام ليصلى . فان تقدم بين يدى المأمومين علم أنه يريد إمامتهم . فان رآه فى الصف علم أنه يريد الائتمام .

قال : فاذا كان غيره يعلم نيته الباطنة بما ظهر من قرائن الأحوال ، فكيف يجهلها من نفســــه ، مع اطلاعه هو على باطنه ؟ فقبوله من الشيطان أنه ما نوى تصديق له فى جحد العيان ، وإنكار الحقائق المعلومة يقيناً . ومخالفة للشرع ، ورغبة عن السنة ، وعن طريق الصحابة .

ثم إن النية الحاصلة لا يمكن تحصيلها ، والموجودة لا يمكن إيجادها ، لأن من شرط إيجاد

الشيء كونه معدوما ، فان إيجاد الموجود محال ، وإذا كان كذلك فما يحصل له بوقوفه شيء ، ولو وقف ألف عام .

قال : ومن العجب أنه يتوسوس حال قيامه ، حتى يركع الإمام ، فإذا خشى فوات الركوع كبر سريعاً وأدركه . فمن لم يحصل النية فى الوقوف الطويل حال فراغ باله كيف يحصلها فى الوقت الضيق مع شغل باله بفوات الركعة ؟

ثم مايطلبه إما أن يكون سهلا أو عسيراً ، فان كان سهلا فكيف يعسره ؟ وإن كان عسيراً فكيف تيسر عند ركوع الإمام سواء ؟ وكيف خفى ذلك على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وصحابته من أولهم إلى آخرهم ، والتابعين ومن بعدهم ؟ وكيف لم ينتبه له سوى من استحوذعليه الشيطان، أفيظن بجهله أن الشيطان ناصح له ؟ أما علم أنه لايدعو إلى هدى، ولا يهدى إلى خير ؟ وكيف يقول فى صلاة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وسائر المسلمين الذين لم يفعلوا فعل هذا الموسوس ؟ أهى ناقصة عنده مفضولة ، أم هى التامة الفاضلة ، فما دعاه إلى مخالفتهم والرغبة عن طريقهم ؟

فان قال : هذا مرض بليت به . قلنا : نعم سببه قبولك من الشيطان . ولم يعذر الله تعالى أحداً بذلك . ألا ترى أن آدم وحواء لما وسوس لهما الشيطان فقبلا منه أخرجا من الجنة ، ونودى عليهما بما سمعت ، وهما أقرب إلى العذر ، لأنهما لم يتقدم قبلهما من يعتبران به، وأنت قد سمعت وحذرك الله تعالى من فتنته ، و بيَّن لك عداوته ، وأوضح لك الطريق، فمالك عذر ولا حجة فى ترك السنة والقبول من الشيطان .

قلت : قال شيخنا : ومن هؤلاء من يأتى بعشر بدع لم يفعل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ولا أحد من أصحابه واحدة منها ، فيقول : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . نويت أصلى صلاة الظهر فريضة الوقت ، أداء لله تعالى، إماما أومأموما، أربع ركعات ، مستقبل القبلة، ثم يزعج أعضاءه ويحنى جبهته ويقيم عروق عنقه ، ويصرخ بالتكبير . كأنه يكبر على العدو. ولو مكث أحدهم عمر نوح عليه السلام يفتش : هل فعل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أو أحد من أصحابه شيئاً من ذلك ، لما ظفر به ، إلا أن يجاهر بالكذب البحت . فلو كان

فى هذا خير لسبقونا إليه ، ولدلونا عليه : فإن كان هذا هدى فقد ضلوا عنه ، و إن كان الذى كانوا عليه هو الهدى والحق فماذا بعد الحق إلا الضلال .

قال : ومن أصناف الوسواس مايفسد الصلاة ، مثل تكرير بعض الكلمة ، كقوله فى التحيات : ات ات ، التحى التحى ، وفى السلام :أسْ أسْ . وقوله فى التكبير: أ ككككبر ونحو ذلك ، فهذا الظاهر بطلان الصلاة به ، وربما كان إماما فأفسد صلاة المأمومين، وصارت الصلاة التى هى أكبر الطاعات أعظم إبعاداً له عن الله من الكبائر، وما لم تبطل به الصلاة من ذلك فمكروه وعدول عن السنة ، ورغبة عن طريقة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وهديه ، وما كان عليه أصحابه ، وربما رفع صوته بذلك فآذى سامعيه ، وأغرى الناس بذمه والوقيعة فيه ، فجمع على نفسه طاعة إبليس ومخالفة السنة ، وارتكاب شر الأمور ومحدثاتها ، وتعذيب نفسه و إضاعة الوقت ، والاشتغال بما ينقص أجره ، وفوات ما هو أنفع له ، وتعريض نفسه لطعن الناس فيه ، وتغرير الجاهل بالاقتداء به ، فإنه يقول : لولا أن ذلك فضل لما اختاره لنفسه ، وأساء الظن بما جاءت به السنة ، وأنه لا يكفى وحده ، وانفعال النفس وضعفها للشيطان ، حتى يشتد طمعه فيه وتعريضه نفسه للتشديد عليه بالقَدَر ، عقوبة له ، و إقامته على الجهل ، ورضاه بالخبَل فى العقل ، كما قال أبو حامد الغزالى وغيره : الوسوسة سببها إما جهل بالشرع ، و إما خَبَل فى العقل ، وكلاهما من أعظم النقائص والعيوب .

فهذه نحو خمسة عشر مفسدة فى الوسواس ، ومفاسده أضعاف ذلك بكثير .

وقد روى مسلم فى صحيحه من حديث عثمان بن أبى العاص قال : قلت « يارسول الله ، إن الشيطان قد حال بينى و بين صلاتى يُلبِّسها علىّ ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : ذاك شيطان يقال له خِنْزَب ، فإذا أحسسْته فتعوّذ بالله منه ، واتفُلْ عن يسارك ثلاثا ، ففعلت ذلك ، فأذهبه الله تعالى عنى » .

فأهل الوسواس قرة عين خِنْزَب وأصحابه ، نعوذ بالله عز وجل منه .

فصـــل

ومن ذلك الإسراف فى ماء الوضوء والغسل .

وقد روى أحمد فى مسنده من حديث عبد الله بن عمرو « أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مرّ بسعد وهو يتوضأ ، فقال : لا تسرف ، فقال : يارسول الله ! أو فى الماء إسراف ؟ قال: نعم ؛ و إن كنت على نهر جارٍ » .

وفى جامع الترمذى من حديث أُبَىّ بن كعب : أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال « إن للوضوء شيطاناً يقال له الوَلْهان ، فاتّقوا وسواس الماء » .

وفى المسند والسنن من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال «جاء أعرابى إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يسأله عن الوضوء ، فأراه ثلاثاً ثلاثاً ، وقال : هذا الوضوء فمن زاد على هذا فقد أساء وتَعَدّى وظلم » .

وفى كتاب الشافى لأبى بكر عبد العزيز من حديث أم سعد قالت : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم « يُجزئُ من الوضوء مُدٌّ ، والغسل صاع . وسيأتى قوم يستقلون ذلك ، فأولئك خلاف أهل سنتى ، والآخذ بسنتى فى حَظِيرة القُدُس مُتَنَزَّهِ أهل الجنة » .

وفى سنن الأثرم من حديث سالم بن أبى الجَعْدِ عن جابر بن عبد الله قال « يجزئُ من الوضوء المدُّ ومن الغسل من الجنابة الصاع ، فقال رجل : ما يكفينى ، فغضب جابر حتى تَرَبَّد وجهه ، ثم قال : قد كفى من هو خير منك وأكثر شعراً » .

وقد رواه الإمام أحمد فى مسنده مرفوعاً . ولفظه عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم « يجزئُ من الغسل الصاع ومن الوضوء المد » .

وفى صحيح مسلم عن عائشة رضى الله تعالى عنها « أنها كانت تغتسل هى والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم من إناء واحد يسع ثلاثة أمداد ، أو قريباً من ذلك » .

وفى سنن النسائى عن عبيد بن عمير « أن عائشة رضى الله عنها قالت : لقد رأيتنى اغتسل

أنا ورسول الله من هذا ، فإذا تَوْرٌ(١) موضوع مثل الصاع أو دونه ـ نَشرع فيه جميعاً ، فأفيض بيدى على رأسى ثلاث مرات ، وما أنقض لى شعراً » .

وفى سنن أبى داود والنسائى عن عَبَّاد بن تميم عن أم عُمارة بنت كعب أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم « توضأ ، فأُتِى بماء فى إناء قَدْرِ ثُلُثى المد » .

وقال عبد الرحمٰن بن عطاء : سمعت سعيد بن المسيّب يقول « إن لى رِكْوة(٢) أو قدحًا ، ما يسع إلا نصف المد أو نحوه ، أبول ثم أتوضأ منه ، وأُفْضِل منه فضلا » قال عبد الرحمٰن : فذكرت ذلك لسليمان بن يَسار فقال «وأنا يكفينى مثل ذلك» قال عبدالرحمٰن: فذكرت : ذلك لأبى عبيدة بن محمد بن عَمّار بن ياسر فقال « وهكذا سمعنا من أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم » رواه الأثرم فى سننه .

وقال إبراهيم النخعى « كانوا أشد استيفاء للماء منكم ، وكانوا يرون أن ربع المد يجزئ من الوضوء » .

وهذا مبالغة عظيمة ؛ فإن ربع المد لا يبلغ أوقية ونصفاً بالدمشقى .

وفى الصحيحين عن أنس قال « كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يتوضأ بالمد ويغتسل بالصاع إلى خمسة أمداداً » .

وفى صحيح مسلم عن سَفِينة قال« كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يغسله الصاع من الجنابة ، ويوضّئه المد » .

وتوضأ القاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق بقدر نصف المد أو أزيد بقليل .

وقال إبراهيم النخعى « إنى لأتوضأ من كوز الحِبّ مرتين » .

وقال محمد بن عجلان « الفقه فى دين الله إسباغ الوضوء وقلة إهراق الماء » .

وقال الإمام أحمد « كان يقال : من قلة فقه الرجل ولعُه بالماء » .

وقال الميمونى « كنت أتوضأ بماء كثير ، فقال لى أحمد : يا أبا الحسن ، أترضى أن تكون كذا ؟ فتركته » .

---

(١) التور : إناء من نحاس أو حجارة كالاجانة .

(٢) الركوة : إناء صغير من جلد يشرب فيه الماء .

وقال عبد الله بن أحمد « قلت لأبى : إنى لأكثر الوضوء ، فنهانى عن ذلك ، وقال : يابنى ، يقال : إن للوضوء شيطانا يقال له الولهـان . قال لى ذلك غير مرة ، ينهانى عن كثرة صَبِّ المـاء ، وقال لى : أقلل من هذا المـاء يابنى » .

وقال إسحاق بن منصور : « قلت لأحمد : نزيد على ثلاث فى الوضوء ؟ فقال : لا والله إلا رجل مُبْتَلًى » .

وقال أسود بن سالم ـ الرجلُ الصالح شيخ الإمام أحمد ـ « كنت مبتلى بالوضوء ، فنزلت دِجْلَةَ أتوضأ ، فسمعت هاتفاً يقول : ياأسود ، يحيى عن سعيد «الوضوء ثلاث ، ما كان أكثر لم يُرْفَع ، فالتفتُّ فلم أر أحدا » .

وقد روى أبو داود فى سننه من حديث عبد الله بن مُغَفَّل قال : سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول : « سيكون فى هذه الأمة قوم يعتدون فى الطَّهور والدعاء» .

فإذا قرنت هذا الحديث بقوله تعالى : (« ٧ : ٥٥ » إنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِين) وعلمت أن الله يحب عبادته ، أنتج لك من هذا أن وضوء الموسوس ليس بعبادة يقبلها الله تعالى ، وإن أسقطت الفرض عنه ؛ فلا تفتح أبواب الجنة الثمـانية لوضوئه يدخل من أيها شاء .

ومن مفاسد الوسواس : أنه يشغل ذمته بالزائد على حاجته ، إذا كان المـاء مملوكا لغيره كماء الحمام ، فيخرج منه وهو مرتهن الذمة بمـا زاد على حاجته ، ويتطاول عليه الدين حتى يرتهن من ذلك بشىء كثير جداً يتضرر به فى البرزخ ويوم القيامة .

فصـــل

ومن ذلك الوسواس فى انتقاض الطهارة لا يلتفت إليه .

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه ، قال قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « إذا وجد أحدكم فى بطنه شيئاً فأشكل عليه : أخرج منه شىء أم لا ؟ فلا يخرج من المسجد حتى يسمع صوتاً أو يجد ريحاً » .

وفى الصحيحين عن عبد الله بن زيد قال «شُكِيَ إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : الرجلُ يُخَيَّلُ إليه أنه يجد الشيء فى الصلاة ، قال : لا ينصرف حتى يسمع صوتاً أو يجدَ ريحاً » .

وفى المسند وسنن أبى داود عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال «إن الشيطان يأتى أحدَكم وهو فى الصلاة ، فيأخذ بشعرة من دُبره فيمدها، فيُرَى أنه قد أحدث ، فلا ينصرف حتى يسمع صوتاً أو يجد ريحاً » ولفظ أبى داود « إذا أتى الشيطان أحدكم فقال له : إنك قد أحدثت، فليقل له : كذبت ، إلا ما وجد ريحاً بأنفه ، أو سمع صوتاً بأذنه » .

فأمر عليه الصلاة والسلام بتكذيب الشيطان فيما يحتمل صدقه فيه ، فكيف إذا كان كذبه معلوماً متيقناً ، كقوله للموسوس : لم تفعل كذا ، وقد فعله ؟

قال الشيخ أبو محمد : ويستحب للإنسان أن ينضح فرجه وسراويله بالماء إذا بال ، ليدفع عن نفسه الوسوسة ، فمتى وجد بللا قال : هذا من الماء الذى نضحته ، لما روى أبوداود بإسناده عن سفيان بن الحكم الثَّقَفى، أو الحكم بن سفيان قال « كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم إذا بال توضأ وينتضح » وفى رواية «رأيت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بال ثم نضح فرجه » وكان ابن عمر ينضح فرجه حتى يبل سراويله .

وشكا إلى الإمام أحمد بعض أصحابه أنه يجد البلل بعد الوضوء ، فأمره أن ينضح فرجه إذا بال ، قال : ولا تجعل ذلك من هِمَّتك والْهُ عنه .

وسئل الحسن أو غيره عن مثل هذا فقال « الْهُ عنه » فأعاد عليه المسألة فقال : «أتَسْتَدِرُّه لا أب لك ، الْهُ عنه » .

فصل

ومن هذا ما يفعله كثير من الموسوسين بعد البول وهو عشرة أشياء : السَّلْت ، والنَّتْر ، والنحْنَحَة ، والمشى ، والقفز ، والحبل ، والتفقد ، والوجور ، والحشو ، والعصابة ، والدرجة[1] .

---

(١) الذى عده هنا أحد عشر ، فلعل أحدها داخل مع الآخر .

أما السلت فيسلته من أصله إلى رأسه ، على أنه قد روى فى ذلك حديث غريب لا يثبت ، فنى المسند وسنن ابن ماجه عن عيسى بن داود عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم « إذا بال أحدكم فليمسح ذكره ثلاث مرات » .

وقال جابر بن زيد « إذا بلت فامسح أسفل ذكرك فإنه ينقطع » رواه سعيد[1] عنه .

قالوا : ولأنه بالسلت والنتر يستخرج ما يخشى عوده بعد الاستنجاء .

قالوا : وإن احتاج إلى مشى خطوات لذلك ففعل فقد أحسن ، والنحنحة ليستخرج الفضلة . وكذلك القفز يرتفع عن الأرض شيئاً ثم يجلس بسرعة . والحبل يتخذ بعضهم حبلا يتعلق به حتى يكاد يرتفع، ثم ينخرط منه حتى يقعد ، والتفقد يمسك الذكر ثم ينظر فى المخرج هل بقى فيه شىء أم لا ، والوجور يمسكه ثم يفتح الثقب ويصب فيه الماء ، والحشو يكون معه ميل وقطن يحشوه به كما يحشو الدمل بعد فتحها ، والعصابة يعصبه بخرقة ، والدرجة يصعد فى سلم قليلا ثم ينزل بسرعة ، والمشى يمشى خطوات ثم يعيد الاستجمار .

قال شيخنا : وذلك كله وسواس وبدعة ، فراجعته فى السلت والنتر فلم يره ، وقال : لم يصح الحديث ، قال : والبول كاللبن فى الضرع إن تركته قرّ وإن حلبته درّ .

قال : ومن اعتاد ذلك ابتلى منه بما عوفى منه من لها عنه .

قال: ولوكان هذا سنة لكان أولى الناس به رسول الله عليه الصلاة والسلام وأصحابه وقد قال اليهودى لسلمان « لقد علمكم نبيكم كل شىء حتى الخِرَأة، فقال: أجل[2] » فأين علمنا نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم ذلك أو شيئاً منه ؟ بلى علم المستحاضة أن تتلجّم ، وعلى قياسها من به سَلَس البول أن يتحفظ ، ويشد عليه خرقة .

فصــــل

ومن ذلك أشياء سهل فيها المبعوث بالحنيفية السمحة فشدد فيها هؤلاء .

فمن ذلك المشى حافياً فى الطرقات ، ثم يصلى ولا يغسل رجليه ، فقد روى أبو داود فى

---

(١) سعيد بن منصور فى سننه .

(٢) رواه مسلم وأبو داود والترمذى وتمامه « نهانا أن نستقبل القبلة بغائط أو بول ، وأن نستنجى باليمين ، أو أن يستنجى أحدنا بأقل من ثلاثة أحجار ، أو أن يستنجى برجيع أو بعظم » .

سننه: عن امرأة من بنى عبد الأشهل قالت: « قلت: يارسول الله، إن لنا طريقاً إلى المسجد مُنْتِنَة، فكيف نفعل إذا تطهرنا؟ قال: أوليس بعدها طريق أطيب منها؟ قالت قلت: بلى. قال: فهذه بهذه[1] » .

وقال عبد الله بن مسعود: « كنا لانتوضأ من مَوطِئٍ[2] » .

وعن على رضى الله عنه: أنه خاض فى طين المطر، ثم دخل المسجد فصلى، ولم يغسل رجليه.

وسئل ابن عباس رضى الله عنهما عن الرجل يطأ العَذِرة؟ قال: « إن كانت يابسة فليس بشىء، وإن كانت رطبة غسل ما أصابه » .

وقال حفص[3]: « أقبلت مع عبد الله بن عمر عامدين إلى المسجد. فلما انتهينا عدلت إلى المطهرة لأغسل قدمىّ من شىء أصابهما؛ فقال عبد الله: لا تفعل، فإنك تطأ الموطئ الردىء، ثم تطأ بعده الموطئ الطيب ـ أو قال: النظيف ـ فيكون ذلك طَهوراً، فدخلنا المسجد جميعاً فصلينا » .

وقال أبو الشَّعْثاء: « كان ابن عمر يمشى بمِنًى فى الفُروث والدماء اليابسة حافياً، ثم يدخل المسجد فيصلى فيه، ولا يغسل قدميه ».

وقال عمران بن حُدير: « كنت أمشى مع أبى مِجْلز إلى الجمعة، وفى الطريق عذراتٌ يابسة، فجعل يتخطاها ويقول: ما هذه إلا سَوْدات، ثم جاء حافياً إلى المسجد فصلى، ولم يغسل قدميه » .

وقال عاصم الأحول: «أتينا أبا العالية فدعونا بوَضوء فقال: مالكم، ألستم متوضئين؟ قلنا:

---

(١) وروى أبو داود والترمذى مثله عن أم سلمة

(٢) رواه أبو داود والترمذى. والموطئ: مايوطأ فى الطريق من الأذى. وأصله: الموطوء. قال العراقى: المعنى أنهم كانوا لايغسلون أرجلهم من الطين ونحوه، ويمشون عليه، بناء على أن الأصل فيه الطهارة وحملها البيهقى على النجاسة اليابسة، وأنهم كانو لايغسلون الأرجل من مسها. وقال الترمذى: هو قول غير واحد من أهل العلم، قالوا: إذا وطئ الرجل على المكان القذر: أنه لايجب عليه غسل القدم إلا أن يكون رطباً، فيغسل ما أصابه اهـ.

(٣) لعله حفص بن عنان ـ بكسر العين المهملة، وتونين ـ الحنفى اليمامى.

بلى ، ولكن هذه الأقذار التى مررنا بها . قال : هل وطئتم على شىء رطب تعلَّق بأرجلكم ؟ قلنا : لا . فقال : فكيف بأشد من هذه الأقذار يجفُّ، فيَنْسِفها الريح فى رؤوسكم ولحاكم» ؟

فصـــل

ومن ذلك أن الخفّ والحذاء إذا أصابت النجاسة أسفله أجزأ دَلْكه بالأرض مطلقاً ، وجازت الصلاة فيه بالسنة الثابتة . نص عليه أحمد . واختاره المحققون من أصحابه .

قال أبو البركات : ورواية « أجزأ الدَّلك مطلقاً » هى الصحيحة عندى : لما روى أبو هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال : « إذا وطىء أحدكم بنعله الأذَى فان التراب له طَهور » ، وفى لفظ : « إذا وطىء أحدكم الأذى بخُفَّيه فطهورهما التراب » رواهما أبو داود .

وروى أبو سعيد الخُدْرىُّ أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم : « صلى فخلع نعليه فخلع الناس نعالهم ، فلما انصرف قال : لم خلعتم ؟ قالوا : يارسول الله ، رأيناك خلعت فخلعنا ، فقال : إن جبريل أتانى فأخبرنى أن بهما خبثاً، فاذا جاء أحدكم المسجد فليقْلِبْ نعليه ، ثم لينظر فان رأى خبثاً فليمسحه بالأرض . ثم ليصلِّ فيهما(١) » رواه الامام أحمد .

وتأويل ذلك : على ما يُستقذر من مُخاط أو نحوه من الطاهرات لايصح ، لوجوه :

أحدها : أن ذلك لا يسمى خبثاً .

الثانى : أن ذلك لايؤمر بمسحه(٢) عند الصلاة فانه لا يبطلها .

الثالث : أنه لاتخلع النعل لذلك فى الصلاة ،فانه عمل لغير حاجة ، فأقل أحواله الكراهة .

الرابع : أن الدارقطنى روى فى سننه فى حديث الخلع من رواية ابن عباس : أن النبى عليه الصلاة والسلام قال : « إن جبريل أتانى ، فأخبرنى أن فيهما دَمَ حَلَمَة » والحلم كبار القُراد .

---

(١) ورواه أيضاً أبو داود والحاكم وابن حبان .

(٢) فى نسخة « لايوقت مسحه » .

ولأنه محل يتكرر ملاقاته للنجاسة غالباً ، فأجزأ مسحه بالجامد ، كمحل الاستجمار ، بل أولى . فان محل الاستجمار يلاقى النجاسة فى اليوم مرتين أو ثلاثا .

فصل

وكذلك ذيل المرأة على الصحيح ، وقالت امرأة لأم سلمة : « إنى أطيل ذيلى وأمشى فى المكان القذر . فقالت : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : يطهره مابعده» رواه أحمد وأبو داود .

وقد رخَّص النبى عليه الصلاة والسلام للمرأة أن تُرخِى ذيلها ذراعا(١) ، ومعلوم أنه يصيب القذر ولم يأمرها بغسل ذلك ، بل أفتاهن بأنه تطهره الأرض .

فصل

ومما لا تطيب به قلوب الموسوسين : الصلاة فى النعال . وهى سنة رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وأصحابه ، فعلا منه وأمراً .

فروى أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم « كان يصلى فى نعليه » متفق عليه .

وعن شَدّاد بن أوْسٍ قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم : « خالفوا اليهود ، فانهم لايصلون فى خِفافهم ولا نعالهم » رواه أبو داود .

وقيل للامام أحمد : أيصلى الرجل فى نعليه ؟ فقال « إى والله » .

وترى أهل الوسواس ـ إذا بُلِى أحدهم بصلاة الجنازة فى نعليه ـ قام على عقبيهما كأنه واقف على الجمر ، حتى لايصلى فيهما.

---

(١) روى أبو داود والنسائى « أن أم سلمة قالت لرسول الله ـ حين ذكر الازار وأنه فوق الكعب ـ فالمرأة يارسول الله ؟ قال : ترخى شبرا . قالت أم سلمة : إذن ينكشف عنها . قال : فذراع ، لاتزيد عليه»

وفى حديث أبى سعيد الخدرى : « إذا جاء أحدكم المسجد فلينظر ، فان رأى على نعليه قَذرا فليمسحه ، وليصل فيهما » .

فصـــل

ومن ذلك : أن سنة رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: الصلاة حيث كان ، وفى أىّ مكان اتفق ، سوى ما نهى عنه من المقبرة والحمام وأعطان الإبل ، فصح عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : « جُعلت لى الأرض مسجداً وطَهوراً ؛ فحيثما أدركت رجلا من أمتى الصلاة فليصل[١] » وكان يصلى فى مرابِض الغنم ؛ وأمر بذلك ، ولم يشترط حائلا .

قال ابن المنذر : أجمع كل من يُحفظ عنه من أهل العلم على إباحة الصلاة فى مرابض الغنم ، إلا الشافعى . فانه قال : أكره ذلك ، إلا إذا كان سليما من أبعارها .

وقال أبو هريرة رضى الله عنه : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم : « صلوا فى مرابض الغنم ، ولا تصلوا فى أعطان الإبل » رواه الترمذى وقال: حديث حسن صحيح .

وروى الإمام أحمد من حديث عُقبة بن عامر قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم « صلوا فى مرابض الغنم ولا تصلوا فى أعطان الإبل ، أو مَبارك الإبل » .

وفى المسند أيضاً ، من حديث عبد الله بن المغفَّل قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم «صلوا فى مرابض الغنم ولا تصلوا فى أعطان الإبل ، فإنها خُلقت من الشياطين » .

وفى الباب عن جابر بن سَمُرة ، والبراء بن عازب ، وأُسَيْد بن الحُضَير وذى الغرّة ، كلهم رووا عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم « صلوا فى مرابض الغنم[٢] » وفى بعض ألفاظ الحديث « صلوا فى مرابض الغنم ، فإن فيها بَرَكة »[٣]

---

(١) رواه البخارى ومسلم وغيرهما عن جابر .

(٢) ورواه أيضاً الإمام أحمد وابن ماجه .

(٣) قال الشوكانى : وفى الباب عن جابر بن سمرة عند مسلم ، وعن البراء بن عازب عند أبى داود . وعن عبد الله بن مغفل عند ابن ماجه والنسائى ، وعن أنس عند الشيخين . وعن أسيد بن الحضير عند الطبرانى وعن يعيش الجهنى ــ المعروف بذى الغرة ــ عند أحمد والطبرانى . ورجال إسناده ثقات .

وقال « الأرض كلها مسجد إلا المقبرة والحمام » رواه أهل السنن كلهم ، إلا النسائى .

فأين هذا الهدى من فعل مَنْ لا يصلى إلا على سجادة تفرش فوق البساط فوق الحصير ، ويضع عليها المنديل ، ولا يمشى على الحصير ولا على البساط ، بل يمشى عليها نقراً كالعصفور؟ فما أحق هؤلاء بقول ابن مسعود « لأنتم أهدى من أصحاب محمد أو أنتم على شعبة ضلالة[1] »

وقد صلى النبي عليه الصلاة والسلام على حصير قد اسْوَدَّ من طول ما لُبِس ، فنُضح له بالماء وصلى عليه ، ولم يفرش له فوقه سجادة ولا منديل[2] ، وكان يسجد على التراب تارة ، وعلى الحصى تارة ، وفى الطين تارة ، حتى يرى أثره على جبهته وأنفه[3] .

وقال ابن عمر « كانت الكلاب تُقبل وتدبر وتبول فى المسجد ، ولم يكونوا يرشون شيئاً من ذلك » رواه البخارى ، ولم يقل « وتبول » وهو عند أبى داود باسناد صحيح بهذه الزيادة .

فصل

ومن ذلك : أن الناس فى عصر الصحابة والتابعين ومن بعدهم كانوا يأتون المساجد حُفاة فى الطين وغيره .

قال يحيى بن وَثَّاب « قلت لابن عباس : الرجل يتوضأ ، يخرج إلى المسجد حافياً ؟ قال : لا بأس به» .

وقال كُمَيْلُ بن زياد « رأيت عليا رضى الله عنه يخوض طين المطر ، ثم دخل المسجد ، فصلى ولم يغسل رجليه » .

وقال إبراهيم النخعى « كانوا يخوضون الماء والطين إلى المسجد فيصلون » .

وقال يحيى بن وثاب « كانوا يمشون فى ماء المطر وينتضح عليهم » .

رواها سعيد بن منصور فى سننه .

---

(١) ذكر ذلك ابن مسعود رضى الله عنه فى القوم الذين تحلقوا فى المسجد فى كل حلقة رجل وفى أيديهم حصى فيقول كبروا مائة فيكبرون مائة ، فيقول هللوا مائة فيهللون مائة. ويقول: سبحوا مائة فيسبحون مائة — الحديث رواه الدارمى (ج ١ ص ٦٨) .

(٢) روى ذلك البخارى ومسلم فى قصة صلاته (ص) فى بيت عتبان بن مالك لما عمى . وكان إمام قومه .

(٣) روى ذلك البخارى ومسلم فى صلاته (ص) صبيحة ليلة القدر ، وعندما استسقى للناس يوم الجمعة . فأرسل الله المطر ، وابتلت أرض المسجد .

وقال ابن المنذر : « وطئ ابن عمر بمَنًى وهو حافٍ فى ماء وطين ثم صلى ولم يتوضأ » قال : وممن رأى ذلك علقمة ، والأسود ، وعبد الله بن مُغَفَّل ، وسعيد بن المسيَّب ، والشَّعبى ، والإمام أحمد ، وأبو حنيفة ، ومالك ، وأحد الوجهين للشافعية ، قال : وهو قول عامة أهل العلم ، ولأن تنجيسها فيه مشقة عظيمة منتفية بالشرع ، كما فى أطعمة الكفار وثيابهم ، وثياب الفساق شَرَبة المسكر وغيرهم .

قال أبو البركات ابن تيمية : وهذا كله يقوى طهارة الأرض بالجفاف ، لأن الإنسان فى العادة لا يزال يشاهد النجاسات فى بقعة بقعة من طرقاته التى يكثر فيها تردده إلى سوقه ومسجده وغيرهما ، فلو لم تطهر إذا أذهب الجفاف أثرها للزمه تجنب ما يشاهده من بقاع النجاسة بعد ذهاب أثرها ، ولَمَا جاز له التَّحَفِّى بعد ذلك. وقد عُلِم أن السلف الصالح لم يحترزوا من ذلك . ويُعضده أمره عليه الصلاة والسلام بمسح النعلين بالأرض لمن أتى المسجد ورأى فيهما خَبَثًا ، ولو تنجست الأرضُ بذلك نجاسةً لا تطهر بالجفاف لأمر بصيانة طريق المسجد عن ذلك ، لأنه يسلكه الحافى وغيره .

قلت : وهذا اختيار شيخنا رحمه الله .

وقال أبو قِلابة « جفاف الأرض طَهورها » .

فصـــل

ومن ذلك : أن النبى عليه الصلاة والسلام سُئل عن المَذْى . فأمر بالوضوء منه ، فقال : « كيف ترى بما أصاب ثوبى منه ؟ قال : تأخذ كَفًّا من ماء فتَنْضَحُ به حيث ترى أنه أصابه » رواه أحمد والترمذى والنسائى(١) .

فجوّز نضح ما أصابه المذى ، كما أمر بنضح بول الغلام(٢) .

قال شيخنا : وهذا هو الصواب ، لأن هذه نجاسة يشق الاحتراز منها ، لكثرة ما يصيب ثياب الشاب العزَبِ ، فهى أولى بالتخفيف من بول الغلام ، ومن أسفل الخف والحِذاء .

---

(١) ورواه أبو داود وابن ماجه والترمذى ، وقال : حسن صحيح عن سهل بن حنيف .

(٢) رواه البخارى ومسلم وأصحاب السنن الأربعة عن أم قيس بنت محصن « أنها أتت بابن لها صغير لم يأكل الطعام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبال على ثوبه ، فدعا بماء فنضحه عليه ولم يغسله » .

فصـــل

ومن ذلك : إجماع المسلمين على ما سنّه لهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من جواز الاستجمار بالأحجار فى زمن الشتاء والصيف ، مع أن المحلّ يعرَق ، فينضح على الثوب ولم يأمر بغسله .

ومن ذلك : أنه يعفى عن يسير أرواث البغال والحمير والسباع ، فى إحدى الروايتين عن أحمد ، اختارها شيخنا لمشقة الاحتراز .

قال الوليد بن مسلم : «قلت للأوزاعى : فأبوال الدواب مما لا يؤكل لحمه ، كالبغل والحمار والفرس ؟ فقال : قد كانوا يُبتَلون بذلك فى مغازيهم ، فلا يغسلونه من جسد ولا ثوب » .

ومن ذلك : نص أحمد على أن الوَدْىَ يعفى عن يسيره كالمذى ، وكذلك يعفى عن يسير القىء ، نص عليه أحمد .

وقال شيخنا : لا يجب غسل الثوب ولا الجسد من المدّة والقَيْح والصديد ، قال : ولم يَقُمْ دليل على نجاسته .

وذهب بعض أهل العلم إلى أنه طاهر، حكاه أبو البركات . وكان ابن عمر رضى الله عنهما لا ينصرف منه من الصلاة ، وينصرف من الدم . وعن الحسن نحوه .

وسئل أبو مِجْلَز عن القَيْح يصيب البدن والثوب فقال « ليس بشىء ، إنما ذكر الله الدم ولم يذكر القيح » .

وقال إسحاق بن راهَوَيْه « كل ما كان سوى الدم فهو عندى مثل العرَق المنتن وشبهه ، ولا يوجب وضوءا » .

وسئل أحمد رحمه الله : الدم والقيح عندك سواء ؟ فقال « : لا . الدم لم يختلف الناس فيه ، والقيح قد اختلف الناس فيه » وقال مرة « القيح والصديد والمدة عندى أسهل من الدم »

ومن ذلك : ما قاله أبوحنيفة : أنه لو وقع بَعْرُ الفأر فى حِنطة فطُحنت[1] ، أو فى دُهن مائع جاز أكله مالم يتغير . لأنه لا يمكن صونه عنه . قال : فلو وقع فى الماء نجسه .

(١) فى نسخة « فطبخت » .

وذهب بعض أصحاب الشافعى إلى جواز أكل الحنطة التى أصابها بول الحمير عند الدِّياس من غير غسل . قال : لأن السلف لم يحترزوا من ذلك .

وقالت عائشة رضى الله عنها « كنا نأكل اللحم ، والدمُ خطوطٌ على القِدْر» .

وقد أباح الله عز وجل صيد الـكلب وأطلق ، ولم يأمر بغسل موضع فمه من الصيد ومَعَضّه ولا تقويره ، ولا أمر به رسوله ، ولا أفتى به أحد من الصحابة .

ومن ذلك : ما أفتى به عبد الله بن عمر ، وعطاء بن أبى رَباح ، وسعيد بن المسيَّب وطاوس وسالم ، ومجاهد، والشعبى ، وابراهيم النخعى، والزهرى ، ويحيى بن سعيد الأنصارى ، والحَكَم ، والأوزاعى ، ومالك ، وإسحٰق بن راهويه ، وأبو ثور والامام أحمد فى أصح الروايتين ، وغيرهم « أن الرجل إذا رأى على بدنه أو ثوبه نجاسة بعد الصلاة لم يكن عالما بها ، أو كان يعلمها لـكنه نسيها أو لم ينسها ، لـكنه عجز عن إزالتها : أن صلاته صحيحة . ولا إعادة عليه» .

فصـــل

ومن ذلك : أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم « كان يصلى وهو حامل أُمامة بنت ابنته زينب ، فإذا ركع وضعها . وإذا قام حملها » متفق عليه .

ولأبى داود « أن ذلك كان فى إحدى صلاتى العَشِىّ » .

وهو دليل على جواز الصلاة فى ثياب المربّية والمرضع والحائض والصبى ، مالم يتحقق نجاستها.

وقال أبو هريرة « كنا مع النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فى صلاة العشاء فلما سجد وثب الحسن والحسين على ظهره ، فلما رفع رأسه أخذهما بيديه من خلفه أخذاً رفيقاً ووضعهما على الأرض ، فإذا عاد عادا ، حتى قضى صلاته » رواه الإمام أحمد .

وقال شداد بن الهاد : عن أبيه « خرج علينا رسولُ الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وهو حامل الحسن ، أو الحسين ، فوضعه، ثم كبر للصلاة ، فصلى فسجد بين ظَهْرانَى صلاته سجدة أطالها . فلما قضى الصلاة قال : إن ابنى ارتحلنى فكرهت أن أُعجِله » رواه أحمد والنسائى .

وقالت عائشة رضى الله تعالى عنها « كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يصلى بالليل وأنا إلى جنبه ، وأنا حائض ، وعلىّ مِرْطٌ وعليه بعضُه » رواه أبو داود .

وقالت « كنت أنا ورسولُ الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم نَبِيتُ فى الشِّعار الواحد ، وأنا طامِث ـ حائض ـ فإن أصابه منّى شىء غسل مكانه ، ولم يَعْدُهْ ، وصلى فيه » رواه أبو داود .

فصل

ومن ذلك : أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان يلبس الثياب التى نسجها المشركون ويصلى فيها .

وتقدم قول عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ، وهَمُّه أن يَنْهَى عن ثياب بلغه أنها تصبغ بالبول ، وقول أُبىٍّ له « مالك أن تنهى عنها ، فإن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم لبسها ، ولُبست فى زمانه . ولو علم الله أنها حرام لبيَّنه لرسوله . قال : صدقت» .

قلت : وعلى قياس ذلك : الجوخ ، بل أولى بعدم النجاسة من هذه الثياب ، فتجنبه[1] من باب الوسواس .

ولما قدم عمر بن الخطاب رضى الله عنه الجابية استعار ثوبا من نصرانى فلبسه ، حتى خاطوا له قميصه وغسلوه . وتوضأ من جَرَّة نصرانية .

وصلى سلمان وأبو الدرداء رضى الله عنهما فى بيت نصرانية . فقال لها أبو الدرداء : « هل فى بيتك مكان طاهر ، فنصلى فيه ؟ فقالت : طهرا قلوبكما ، ثم صليا أين أحببتما . فقال له سلمان : خذها من غير فقيه » .

فصل

ومن ذلك : أن الصحابة والتابعين كانوا يتوضئون من الحياض والأوانى المكشوفة ، ولا يسألون : هل أصابتها نجاسة ، أو وردها كلب أو سبع ؟ فى الموطأ عن يحيى بن سعيد : « أن عمر رضى الله عنه خرج فى ركب فيهم عمرو بن العاص ، حتى وردوا حوضا ، فقال عمرو : يا صاحب الحوض ، هل تَرِدُ حوضك السباع ؟ فقال عمر رضى الله عنه : لا تخبرنا . فإنا نَرِد على السباع وتَرد علينا » .

(١) فى نسخة « فتجنيبه » .

وفى سنن ابن ماجه أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم «سئل: أنتوضأ بما أفضلت الحُمُرُ؟ قال: نعم، وبما أفضلت السباع».

ومن ذلك: أنه لو سقط عليه شيء من ميزاب، لا يدرى هل هو ماء أو بول. لم يجب عليه أن يسأل عنه. فلو سأل لم يجب على المسئول أن يجيبه. ولو علم أنه نجس. ولا يجب عليه غسل ذلك.

ومرّ عمر بن الخطاب رضى الله عنه يوما، فسقط عليه شيء من ميزاب، ومعه صاحب له. فقال: «ياصاحب الميزاب ماؤك طاهر أو نجس؟ فقال عمر رضى الله عنه: ياصاحب الميزاب لا تخبرنا، ومضى» ذكره أحمد.

قال شيخنا: وكذلك إذا أصاب رِجْله أو ذيله بالليل شيء رطب ولا يعلم ما هو، لم يجب عليه أن يَشُمَّه ويتعرف ما هو. واحتج بقصة عمر رضى الله عنه فى الميزاب. وهذا هو الفقه فإن الأحكام إنما تترتب على المكلف بعد علمه بأسبابها، وقبل ذلك هى على العفو. فما عفا الله عنه فلا ينبغى البحث عنه.

فصل

ومن ذلك: الصلاة مع يسير الدم، ولا يعيد.

قال البخارى: قال الحسن رحمه الله «ما زال المسلمون يصلون فى جراحاتهم»

قال: وعَصَر ابن عمر رضى الله عنه بَثْرة، فخرج منها دم فلم يتوضأ. وبصق ابن أبى أوْفَى دمًا ومضى فى صلاته. وصلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه وجرحه يَثْعَبُ دما[1] »:

(١) «يثعب» بالعين المهملة مفتوحة يجرى. والأثر عن عمر لم يذكره البخارى مع هذه الآثار فى باب من لم ير الوضوء إلا من المخرجين: القبل والدبر. وقد ذكر البخارى قبل هذا «ويذكر عن جابر: أن النبى صلى الله عليه وسلم كان فى غزوة ذات الرقاع، فرمى رجل بسهم فنزفه الدم فركع وسجد، ومضى فى صلاته» قال الحافظ فى الفتح (ج ١ ص ١٩٧) وصل أثر جابر ابن إسحاق فى المغازى قال: حدثنى صدقة بن يسار عن عقيل بن جابر عن أبيه ـ مطولا ـ وأخرجه أحمد وأبو داود والدارقطنى وابن خزيمة وابن حبان والحاكم كلهم من طريق ابن إسحاق وشيخه صدقة ثقة. وعقيل: بفتح العين لا أعرف راويا عنه غير صدقة. ولهذا لم يجزم به المصنف، ثم ذكر القصة ـ ثم قال: والظاهر أن البخارى كان يرى أن خروج الدم فى الصلاة لا يبطلها بدليل أنه ذكر عقب هذا الحديث أثر الحسن، وهو البصرى، قال «مازال المسلمون يصلون فى جراحاتهم. وقد صح أن عمر صلى وجرحه يثعب دما» اهـ وقد ذكر البخارى بعد أثر الحسن: وقال طاوس ومحمد بن على وعطاء وأهل الحجاز: «ليس فى الدم وضوء» قال الحافظ: أثر طاوس وصله ابن أبى شيبة=

ومن ذلك : أن المراضع ما زلن من عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وإلى الآن يصلين فى ثيابهن ، والرُّضعاء يَتَقَيَّئُون ويسيل لعابهم على ثياب المرضعة وبدنها ، فلا يغسلن شيئاً من ذلك ، لأن ريق الرضيع مطهر لفمه . لأجل الحاجة . كما أن ريق الهرة مطهر لفمها .

وقد قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم « إنها ليست بنجَس ، إنها من الطوافين عليكم والطوافات[1] » « وكان يصغى لها الإناء حتى تشرب[2] » وكذلك فعل أبو قتادة . مع العلم اليقينى أنها تأكل الفأر والحشرات ، والعلم القطعى أنه لم يكن بالمدينة حياض فوق القلتين تردُها السّنانير وكلاهما معلوم قطعا .

ومن ذلك : أن الصحابة ومن بعدهم كانوا يصلون وهم حاملو سيوفهم ، وقد أصابها الدم . وكانوا يمسحونها، ويجتزئون بذلك.

وعلى قياس هذا : مسح المرآة الصقيلة إذا أصابتها النجاسة . فإنه يطهرها .

وقد نص أحمد على طهارة سكّين الجزّار بمسحها .

ومن ذلك: أنه نص على حَبْل الغسال أنه ينشرعليه الثوب النجس ، ثم تُجَفِّفه الشمس ، فينشر عليه الثوب الطاهر . فقال : لا بأس به . وهذا كقول أبى حنيفة : إن الأرض النجسة يطهرها الريح والشمس . وهو وجه لأصحاب أحمد ، حتى إنه يجوز التيمم بها . وحديث ابن عمر رضى الله عنهما كالنص فى ذلك . وهو قوله « كانت الكلاب تُقبِل وتُدبِر وتبول فى المسجد ولم يكونوا يَرُشّون شيئا من ذلك »

= باسناد صحيح . وأثر محمد بن على رويناه موصولا فى فوائد الحافظ أبى بشر المعروف بسمويه ، وأثر عطاء وصله عبد الرزاق عن ابن جريج عنه ، وقد رواه عبد الرزاق من طريق أبى هريرة وسعيد بن جبير وأخرجه ابن أبى شيبة من طريق ابن عمر وسعيد بن المسيب ، وأخرجه إسماعيل القاضى من طريق أبى الزناد عن الفقهاء السبعة من أهل المدينة . وهو قول مالك والشافعى ، وأثر ابن عمر وصله ابن أبى شيبة باسناد صحيح ، وزاد قبل « ولم يتوضأ » : « ثم صلى » وابن أبى أوفى هو عبد الله الصحابى . وأثره هنا وصله سفيان الثورى فى جامعه باسناد صحيح اهـ . ثم ذكر البخارى بعد هذه الآثار : وقال ابن عمر والحسن فيمن يحتجم « ليس عليه إلا غسل محاجمه » .

(١) رواه أحمد وأبو داود والترمذى والنسائى . وقال الترمذى : حسن صحيح . وصححه البخارى والعقيلى وابن خزيمة وابن حبان : عن كبشة بنت كعب بن مالك ــ وكانت تحت ابن أبى قتادة ــ « أن أبا قتادة دخل عليها ، فسكبت له وضوءا ، فجاءت هرة تشرب منه ، فأصغى لها الاناء حتى شربت منه . قالت كبشة : فرآنى أنظر . فقال : أتعجبين يا ابنة أخى ؟ قلت: نعم . فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : إنها ليس بنجس إنها من الطوافين عليكم والطوافات » .

(٢) رواه الدارقطنى عن عائشة « أنه كان يصغى إلى الهرة الإناء حتى تشرب ثم يتوضأ بفضلها » .

وهذا لا يتوجه إلا على القول بطهارة الأرض بالريح والشمس .

ومن ذلك : أن الذى دلّت عليه سنة رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وآثار أصحابه : أن الماء لا ينجس إلا بالتغيُّر ، وإن كان يسيرا .

وهذا قول أهل المدينة وجمهور السلف . وأكثر أهل الحديث . وبه أفتى عطاء بن أبى رباح ، وسعيد بن المسيَّب ، وجابر بن زيد والأوزاعى ، وسفيان الثورى ، ومالك بن أنس ، وعبد الرحمٰن بن مَهْدى واختاره ابن المنذر . وبه قال أهل الظاهر . ونص عليه أحمد فى إحدى روايتيه . واختاره جماعة من أصحابنا ، منهم ابن عقيل فى مفرداته ، وشيخنا أبو العباس ، وشيخه ابن أبى عمر .

وقال ابن عباس رضى الله عنهما : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم « الماء لا ينجسه شىء» رواه الإمام أحمد .

وفى المسند والسنن عن أبى سعيد قال « قيل : يارسول الله أنتوضأ من بِئر بُضاعةَ ، وهى بئر يُلْقى فيها الحِيَضُ ولُحوم الكلاب والنَّتنُ ؟ فقال : الماء طهور ، لا ينجسه شىء » قال الترمذى : هذا حديث حسن وقال الإمام أحمد : حديث بئر بضاعة صحيح .

وفى لفظ للإمام أحمد « إنه يُسْتَقَى لك من بئر بُضاعة، وهى بئر يُطْرَح فيها محايض النساء ، ولحم الكلاب ، وعَذَر الناس ؟ فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : إن الماء طهور لا ينجسه شىء » .

وفى سنن ابن ماجه من حديث أبى أُمامة مرفوعاً « الماء لاينجسه شىء إلا ما غلب على ريحه ، أو طعمه ، أو لونه » .

وفيها من حديث أبى سعيد : أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم « سئل عن الحياض التى بين مكة والمدينة ، تردها السباع والكلاب والحُمُرُ . وعن الطهارة بها ؟ فقال : لها ما حملت فى بطونها ولنا ما غَبَر[1] طهور » .

وإن كان فى إسناد هذين الحديثين مقال . فانا ذكرناهما للاستشهاد لا للاعتماد .

وقال البخارى : قال الزهرى : « لا بأس بالماء مالم يتغير منه طعم أو ريح أو لون »

---

(١) قال فى النهاية : قال الأزهرى : المعروف الكثير : أن الغابر الباقى .

وقال الزهرى أيضاً : « إذا ولغ الكلب فى الإناء ليس له وَضوء غيره يتوضأ به ثم يتيمم» قال سفيان : «هذا الفقه بعينه ، يقول الله تعالى : (« ٥ :٦ » فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا) ، وهذا ماء ، وفى النفس منه شىء يتوضأ به ثم يتيمم» ونص أحمد رحمه الله « فى حُبِّ زيت[1] ولغ فيه كلب فقال : يؤكل» .

فصـــل

ومن ذلك:أن النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم كان يجيب من دعاه ، فيأكل من طعامه وأضافه يهودى بخبز شعير و إهالةٍ سَنِخَة[2] . وكان المسلمون يأكلون من أطعمة أهل الكتاب وشرط عمر رضى الله تعالى عنه عليهم ضيافة من يمرُّ بهم من المسلمين ، وقال : « أطعموهم مما تأكلون » وقد أحلّ الله عزّ وجل ذلك فى كتابه .

ولما قدم عمرُ رضى الله عنه الشام صنع له أهل الكتاب طعاماً . فدعوه ، فقال « اين هو ؟ قالوا : فى الكنيسة ، فكره دخولها ، وقال لعلى رضى الله عنه : اذهبْ بالناس ، فذهب علىّ بالمسلمين . فدخلوا وأكلوا ، وجعل علىٌّ رضى الله عنه : ينظر إلى الصور ، وقال : ما على أمير المؤمنين لو دخلَ فأكل ؟ » .

وكان النبي عليه السلام يُقَبِّل ابنَى ابنته فى أفواههما ، ويشرب من موضع فم عائشة رضى الله عنها ، ويَتعرَّقُ العَرْق ، فيضع فاه على موضع فيها ، وهى حائض[3] .

وحمل أبو بكر رضى الله عنه الحسن على عاتقه ولعابه يسيل عليه .

وأُتى رسول الله عليه السلام بصبى ، فوضعه فى حِجْره ، فبال عليه فدعا بماء ، فنضحه ولم يغسله .

وكان يؤتى بالصبيان فيضعهم فى حِجْره يُبَرِّك عليهم ، ويدعو لهم .

---

(١) الحب : الجرة الكبيرة .

(٢) رواه الامام أحمد عن أنس . والاهالة : الودك . والسنخة : المتغيرة الرائحة . قال أبو البركات ابن تيمية : وقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه توضأ من مزادة امرأة مشركة . وعن عمر : الوضوء من جرة نصرانية .

(٣) رواه أحمد ومسلم وأبو داود والترمذى عن عائشة . والعرق ــ بفتح العين وسكون الراء ــ

وهذا الذى ذكرناه قليل من كثير من السنة ، ومن له اطلاع على ما كان عليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وأصحابه لا يخفى عليه حقيقة الحال .

وقد روى الإمام أحمد فى مسنده عنه صلى الله تعالى عليه وآله وسلم « بعثت بالحنيفيّة السّمْحة » فجمع بين كونها حنيفية وكونها سمحة . فهى حنيفية فى التوحيد ، سَمْحة فى العمل. وضد الأمرين: الشرك ، وتحريم الحلال ، وهما اللذان ذكرهما النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فيما يروى عن ربه تبارك وتعالى أنه قال « إنى خلقت عِبادى حُنَفاء وإنهم أتتهم الشياطين فاجْتالتهم عن دينهم ، وحرّمتْ عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتْهم أن يشركوا بى ما لم أنزل به سلطاناً »

فالشرك وتحريم الحلال قرينان . وهما اللذان عابهما الله تعالى فى كتابه على المشركين فى سورة الأنعام والأعراف .

وقد ذم النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم المتنطعين فى الدين ، وأخبر بهلكتهم حيث يقول « ألا هلك المتنطعون ، ألا هلك المتنطعون ، ألا هلك المتنطعون[(١)] » .

وقال ابن أبى شيبة : حدثنا أبو أسامة عن مسعر قال « أخرج إلىّ مَعْن بن عبد الرحمن كتابا ، وحلف بالله أنه خَطُّ أبيه ، فإذا فيه: قال عبد الله: والله الذى لا إله غيره ما رأيت أحداً كان أشدّ على المتنطعين من رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، ولا رأيت بعده أحدا أشدّ خوفاً عليهم من أبى بكر ، وإنى لأظن عمر رضى الله عنه كان أشد أهل الأرض خوفاً عليهم[(٢)] » .

وكان عليه الصلاة والسلام يبغض المتعمّقين ، حتى إنه لما واصل بهم ورأى الهلال . قال : « لو تأخر الهلال لواصلت وِصالا يدعُ المتعمقون تعمقهم ، كالمنَكّل بهم[(٣)] ».

---

(١) رواه أحمد ومسلم وأبو داود عن ابن مسعود .

(٢) رواه الدارمى فى سننه فى باب من هاب الفتيا .

(٣) روى البخارى عن أبى هريرة قال « نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الوصال فى الصوم . فقال رجل من المسلمين : إنك تواصل يارسول الله ، قال : وأيكم مثلى ؟ إنى أبيت يطعمنى ربى ويسقين . فلما أبوا أن ينتهوا عن الوصال أقبل بهم يوما ثم يوما ، ثم رأوا الهلال . فقال : لو تأخر لزدتكم ، كالتنكيل لهم حين أبوا أن ينتهوا » ورواه مسلم وأبو داود والترمذى .

وكان الصحابة أقلّ الأمة تكلفا ، اقتداء بنبيهم صلى الله تعالى عليه وسلم . قال الله تعالى (« ٣٨ : ٨٦ » قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ[1]) .

وقال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه « من كان منكم مُستنًّا فليستنّ بمن قد مات . فإن الحيّ لاتؤمن عليه الفتنة ، أولئك أصحابُ محمد ، كانوا أفضل هذه الأمة: أبرّها قلوبا ، وأعمقها علما ، وأقلها تكلفا . اختارهم الله تعالى لصحبة نبيِّه ، ولإقامة دينه ، فاعرفوا لهم فضلهم ، واتبعوهم على أثرهم وسيرتهم ، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم[2] » .

وقال أنس رضى الله عنه : « كنا عند عمر رضى الله عنه ، فسمعته يقول : نُهينا عن التكلف » .

وقال مالك قال عمر بن عبد العزيز : « سنّ رسولُ الله صلى الله تعالى عليه وسلم وولاة الأمور بعده سُنَناً ، الأخذُ بها تصديق لكتاب الله ، واستكمال لطاعة الله ، وقوة على دين الله ، ليس لأحد تبديلها ولا تغييرها ، ولا النظر فيما خالفها . من اقتدى بها فهو مهتدٍ ، ومن استنصر بها فهو منصور ، ومن خالفها واتّبع غير سبيل المؤمنين وَلاّه الله ما تولّى وأصْلاه جهنم وساءت مصيرا » .

وقال مالك : بلغنى أن عمر بن الخطاب كان يقول : « سُنّتْ لكم السنن ، وفرضت لكم الفرائض ، وتُركتم على الواضحة ، إلا أن تميلوا بالناس يميناً وشمالا » .

وقال صلى الله تعالى عليه وسلم : « يحمل هذا العلم من كل خَلَفٍ عُدوله . ينْفُون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين» .

فأخبر أن الغالين يُحَرِّفون ماجاء به . والمبطلون ينتحلون بباطلهم غير ما كان عليه . والجاهلون يتأوّلونه على غير تأويله . وفساد الإسلام من هؤلاء الطوائف الثلاثة . فلولا أن الله تعالى يقيم لدينه من ينفى عنه ذلك لجرى عليه ماجرى على أديان الأنبياء قبله من هؤلاء .

---

(١) روى الدارمى عن مسروق عن عبد الله بن مسعود قال : « من علم منكم علما فليقل به ، ومن لم يعلم فليقل لما لايعلم : الله أعلم . فان العالم إذا سئل عما لايعلم قال: الله أعلم، وقد قال الله لرسوله (قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين) » .

(٢) رواه الإمام أحمد .

فصـــل

ومن ذلك الوسوسة فى مخارج الحروف والتنطع فيها .

ونحن نذكر ماذكره العلماء بألفاظهم :

قال أبو الفرج بن الجوزى : قد لَبَّس إبليس على بعض المصلين فى مخارج الحروف ، نتراه يقول : الحمد ، الحمد . فيخرج بإعادة الكلمة عن قانون أدب الصلاة . وتارة يُلبِّس عليه فى تحقيق التشديد فى إخراج ضاد « المغضوب » قال : ولقد رأيت من يخرج بُصاقه مع إخراج الضاد لقوة تشديده . والمراد تحقيق الحرف حَسْبُ . و إبليس يُخرج هؤلاء بالزيادة عن حد التحقيق ، و يَشْغلهم بالمبالغة فى الحروف عن فهم التلاوة . وكل هذه الوساوس من إبليس .

وقال محمد بن قتيبة فى مشكل القرآن : وقد كان الناس يقرؤن القرآن بلغاتهم ، ثم خَلَف من بعدهم قوم من أهل الأمصار وأبناء العجم ليس لهم طبع اللغة ، ولا علم التكلف ، فهفوا فى كثير من الحروف . وذلّوا فأخلوا . ومنهم رجل ستر الله عليه عند العوام بالصلاح[1] ، وقرّبه من القلوب بالدين . فلم أر فيمن تتبعت فى وجوه قراءته أكثر تخليطا ولا أشد اضطرابا منه . لأنه يستعمل فى الحرف ما يدعه فى نظيره . ثم يؤصّل أصلا و يخالف إلى غيره بغير علة ، و يختار فى كثير من الحروف مالا مخرج له إلا على طلب الحيلة الضعيفة ، هذا إلى نَبْذِه فى قراءته مذاهب العرب وأهل الحجاز ، بإفراطه فى المدّ والهمز والإشـــباع ، و إفحاشه فى الإضْجاع والادغام ، وحَمْلِهِ المتعلمين على المذهب الصَّعْب ، وتَعْسيره على الأمة مايَسَّره الله تعالى ، وتضييقه مافَسَحه . ومن العجب أنه يقرئ الناس بهذه المذاهب ، ويكره الصلاة بها . ففى أىّ موضع يستعمل هذه القراءة ، إن كانت الصلاة لا تجوز بها ؟ وكان ابن عُيَينة يرى لمن قرأ فى صلاته بحرفه، أوائْـتَمَّ بإمام يقرأ بقراءته أن يعيد ، ووافقه على ذلك كثير من خيار المسلمين ، منهم بِشْر بنُ الحارث ، والإمام أحمد بن حنبل ، وقد شُغِف بقراءته عوام الناس وسُوقتهم . وليس ذلك إلا لما يرونه من مَشَقَّتها وصعو بتها ، وطول اختلاف المتعلم إلى المقرئ فيها . فإذا رأوه قد اختلف فى أمّ الكتاب عشرا . وفى مائة آية شهراً ، وفى السبع الطِّوال حَولاً . ورأوه

(١) لعله ــ والله أعلم يريد حمزة فانه أثر عن الامام أحمد وعن ابن الجوزى فى تلبيس إبليس كلام فيه .

عند قراءته مائِلَ الشِّدْقين ، دارَّ الوَريدين ، راشِحَ الجبين ، توهموا أن ذلك لفضله فى القراءة وحِذْقه بها ، وليس هكذا كانت قراءة رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، ولا خِيارِ السلف ولا التابعين ، ولا القُرّاء العالمين ، بل كانت سهلة رِسْلَة[١] .

وقال الخلاّل فى الجامع : عن أبى عبد الله ، إنه قال : « لا أحب قراءة فلان » يعنى هذا الذى أشار إليـــه ابن قتيبة ، وكرهها كراهية شديدة ، وجعل يَعْجب من قراءته ، وقال : « لايعجبنى . فإن كان رجلٌ يقبلُ منك فانْهَه » .

وحكى عن ابن المبارك عن الرّبيع بن أنس : أنه نهاه عنها .

وقال الفضلُ بن زياد : إن رجلا قال لأبى عبد الله : فما أتركُ من قراءته ؟ قال : « الإدغام ، والكسر ليس يُعرف فى لغة من لغات العرب » .

وسأله عبد الله ابنه عنها فقال « أكره الكسر الشديد والإضْجاع » .

وقال فى موضع آخر « إن لم يُدْغم ولم يُضْجِــع ذلك الإضجاع فلا بأس به » .

وسأله الحسن بن محمد بن الحارث : أتكره أن يتعلم الرجل تلك القراءة ؟ قال « أكرهه أشد كراهة ، إنما هى قراءة مُحْدَثة . وكرهها شديدا حتى غضب » .

وروى عنه ابن سُنَيْد أنه سئل عنها فقال : « أكرهها أشد الكراهة » . قيل له : ما تكره منها ؟ قال : « هى قراءة مُحْدَثة . ماقرأ بها أحد » .

وروى جعفر بن محمد عنه أنه سئل عنها فكرهها . وقال : « كرهها ابن إدريس » وأراه قال : « وعبد الرحمن بن مَهْدى » . وقال : « ما أدرى ، إيْشْ هذه القراءة ؟ » ثم قال : « وقراءتهم ليست تشبه كلام العرب » .

وقال عبد الرحمن بن مهدى : « لو صليتُ خلف من يقرأ بها لأعدتُ الصلاة » .

---

(١) الرسلة ـ بكسر الراء وسكون السين ـ الهينة والتأنى . وترسل الرجل فى كلامه ومشيه، إذا تأنى ولم يعجل ، ورفق بنفسه ولم يزعجها . والترسيل هو والترتيل سواء . والمراد : أنها لم تكن متكلفة كما يتكلف الناس اليوم فى قراءتهم حتى يكاد الواحد منهم يختنق وتنقطع عنقه من شدة مايجهد نفسه . وحتى خرجوا بالقرآن عن الذكر الذى تطمئن به القلوب إلى الغناء والالحان ، وكل ذلك لينالوا من الناس كلمة «أحسنت» ويزدادالثمن القليل الذى يبيعون به القرآن فى المآتم ونحوها. هداهم الله وعفا عنهم . ولا حول ولا قوة إلا بالله .

ونصَّ أحمد رحمه الله على أنه يُعيد . وعنه رواية أخرى : أنه لايعيد .

والمقصود : أن الأئمة كرهوا التنطُّع والغُلُوَّ فى النطق بالحرف .

ومن تأمَّلَ هَدْىَ رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ، و إقراره أهل كل لسان على قراءتهم تبيَّن له أن التنطع والتشَدُّق والوسوسة فى إخراج الحُروف ليس من سنّته .

فصـــل

فى الجواب عما احتج به أهل الوسواس

أما قولهم : إن ما نفعله احتياط لاوسواس .

قلنا : سموه ماشئتم . فنحن نسألكم : هل هو موافق لفعل رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وأمره ، وما كان عليه أصحابه ، أو مخالف ؟

فان زعمتم أنه موافق ، فبَهْتٌ وكذب صريح . فإذن لابد من الإقرار بعدم موافقته ، وأنه مخالف له ، فلا ينفعكم تسمية ذلك احتياطا . وهذا نظير مَن ارتكب محظوراً وسماه بغير اسمه ، كما يسمى الخمر بغير اسمها[1] ، والرِّبا معاملةً ، والتحليل الذى لعن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فاعله: نكاحا ، ونَقْرَ الصلاة الذى أخبر رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم أن فاعله لم يصلِّ[2] ، وأنه لا تجزيه صلاته ولايقبلها الله تعالى منه : تخفيفا . فهكذا تسمية الغلو فى الدين والتنطع : احتياطا .

و ينبغى أن يُعلم أن الاحتياط الذى ينفع صاحبه و يثيبه الله عليه : الاحتياط فى موافقة السنة ، وتركُ مخالفتها . فالاحتياط كل الاحتياط فى ذلك ، و إلا فما احتاط لنفسه من خرج عن السنة ، بل تركُ حقيقة الاحتياط فى ذلك .

وكذلك المتسرعون إلى وقوع الطلاق فى موارد النزاع الذى اختلف فيه الأئمة ، كطلاق

(١) كما يسمونها فى مصر « بوظة » و « بيرة » وأمثال ذلك من الأسماء التى لاتغير حقيقة مافيها مما حرمت من أجله : من تخمير العقل وإذهابه وتخدير الحواس وإيقاع الشيطان العداوة والبغضاء .

(٢) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والنسائى من حديث أبى هريرة فى الرجل المسىء صلاته الذى قال له « ارجع فصلِّ فإنك لم تصل » كررها ثلاثا .

المكرَه ، وطلاق السكران ، والبَتّة ، وجمع الثلاث ، والطلاق بمجرد النية ، والطلاق المؤجل المعلوم مجيء أجله ، واليمين بالطلاق ، وغير ذلك مما تنازع فيه العلماء إذا أوقعه المفتى تقليداً بغير برهان ، وقال : ذلك احتياط للفروج . فقد ترك معنى الاحتياط . فإنه يُحرِّم الفرج على هذا ، ويُبيحه لغيره . فأين الاحتياط هٰهنا ؟ بل لو أبقاه على حاله حتى تُجمع الأمة على تحريمه وإخراجه عمن هو حلال له ، أو يأتى برهان من الله ورسوله على ذلك ، لكان قد عمل بالاحتياط . ونص على مثل ذلك الإمام أحمد فى طلاق السكران .

فقال فى رواية أبى طالب : « والذى لا يأمر بالطلاق فإنما أتى خصلة واحدة . والذى يأمر بالطلاق فقد أتى خصلتين : حرمها عليه ، وأحلها لغيره » فهذا خير من هذا ، فلا يمكن الاحتياط فى وقوع الطلاق إلا حيث أجمعت الأمة . أو كان هناك نص عن الله ورسوله يجب المصير إليه .

قال شيخنا : والاحتياط حسن ، مالم يفض بصاحبه إلى مخالفة السنة . فإذا أفضى إلى ذلك فالاحتياط ترك هذا الاحتياط .

وبهذا خرج الجواب عن احتجاجهم بقوله صلى الله عليه وسلم : « من ترك الشبهات فقد استبرأ لدِينِه وعِرضِه » وقوله « دَعْ ما يَرِيبُك إلى ما لا يريبك » وقوله « الإثم ما حاك فى الصَّدر » فهذا كله من أقوى الحجج على بطلان الوسواس .

فإن الشبهات مايشتبه فيه الحق بالباطل ، والحلال بالحرام ، على وجه لا يكون فيه دليل على أحد الجانبين ، ، أو تتعارض الأمارتان عنده ، فلا تترجح فى ظنه إحداهما ، فيشتبه عليه هذا بهذا ، فأرشده النبى صلى الله تعالى عليه وسلم إلى ترك المشتبه والعدول إلى الواضح الجلى .

ومعلوم أن غاية الوسواس أن يشتبه على صاحبه : هل هو طاعة وقربة ، أم معصية وبدعة ؟ هذا أحسن أحواله ، والواضح الجلى هو اتباع طريق رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وما سَنَّهُ للأمة قولا وعملا ، فمن أراد ترك الشبهات عدل عن ذلك المشتبه إلى هذا الواضح . فكيف ، ولا شبهة بحمد الله هناك ؟ إذ قد ثبت بالسنة أنه تَنَطُّع وغلوّ ، فالمصير إليه تركٌ للسنة ، وأخذ بالبدعة ، وترك لما يحبه الله تعالى ويرضاه ، وأخذٌ بما يكرهه ويبغضه ، ولا يُتقَرَّب به إليه ألبتة ، فإنه لا يُتقَرَّب إليه إلا بما شرع ، لا بما يهواه العبد ويفعله من تلقاء

نفسه . فهذا هو الذى يحيك فى الصدر ويتردد فى القلب ، وهو حَوَّازُ القلوب[١] .

وأما التمرة التى ترك رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أكلها ، وقال : « أخشى أن تكون من الصدقة » فذلك من باب اتّقاء الشُّبهات ، وترك ما اشتبه فيه الحلال بالحرام ، فإن التمرة كانت قد وجدها فى بيته ، وكان يؤتَى بتمْر الصدقة ، يقسمه على من تحلّ له الصدقة ، ويدخل بيتَه تمرٌ يقتات منه أهله ، فكان فى بيته النوعان ، فلما وجد تلك التمرة لم يدرِ ، عليه الصلاة والسلام ، من أىّ النوعين هى ، فأمسك عن أكلها . فهذا الحديث أصل فى الورع واتقاء الشبهات ، فما لأهل الوسواس وماله ؟

وأما قولُكم : إن مالكاً أفتى فيمن طلق ولم يَدْرِ : أواحدةً طلّق أم ثلاثاً : إنها ثلاث احتياطا ، فنعم ، هذا قول مالك ، فكان ماذا ؟ أفَحُجّةٌ هو على الشافعى ، وأبى حنيفةَ ، وأحمد ، وعلى كُلّ من خالفه فى هذه المسألة ؟ حتى يجب عليهم أن يتركوا قولَهم لقوله ؛ وهذا القول مما يُحتجُّ له ، لا مما يحتج به ، على أن هذا ليس من باب الوسواس فى شىء ، وإنما حجة هذا القول : أن الطلاق يوجب تحريم الزوجة . والرّجْعَةُ ترفع ذلك التحريم ، فهو يقول : قد تَيَقّن[٢] سببَ التحريم ، وهو الطلاق ، وشكّ فى رَفْعِه بالرجعة ، فإنه يحتمل أن يكون رجعيًا فتَرْفَعُه الرجعة ، ويحتمل أن يكون ثلاثا ، فلا ترفعه الرجعة ، فقد تَيقّن سبب التحريم ، وشكّ فيما يرفعه .

والجمهور يقولون : النكاح متيقن . والقاطع له المزيل لحلّ الفرج مشكوك فيه ، فإنه يحتمل أن يكون المأتىُّ به رجعيًا فلا يزيل النكاح . ويحتمل أن يكون بائناً فيزيله . فقد تيقنّا يقين النكاح ، وشككنا فيما يزيله . فالأصل بقاء النكاح حتى يتَيَقّن بما يرفعه .

فإن قلتم : فقد تيقن التحريم وشك فى التحليل ، قلنا : الرجعية ليست بحرام عندكم ، ولهذا تجوّزون وطأها ، ويكون رجعةً ، إذا نوى به الرجعة .

فان قلتم : بل هى حرام ، والرجعة حصلت بالنية حال الوطء . قلنا : لا ينفعكم ذلك أيضاً.

---

(١) قال ابن الأثير : الحز : القطع فى الشىء من غير إبانة . يقال : حززت العود أحزه حزا . ومنه حديث ابن مسعود « الاثم حواز القلوب » وهى الأمور التى تحز فيها : أى تؤثر كما يؤثر الحز فى الشىء وهو مايخطر فيها من أن تكون معاصى يفقد الطمأنينة إليها . وهى بتشديد الزاى جمع حاز . ورواه تحوز بتشديد الواو ، أى يحوزها ويتملكها ويغلب عليها . ويروى « الاثم حزاز القلوب » بزاءين ، الأولى مشددة ، وهى فعال ، من الحز .

(٢) فى نسخة « قد تبين » .

فانه إنما تيقن تحريماً يزول بالرجعة ، ولم يتيقن تحريما لاتؤثر فيه الرجعة .

وليس المقصود تقرير هذه المسئلة . والمقصود أنه لاراحة فى ذلك لأهل الوسواس .

فصـــل

وأما من حلف بالطلاق : أن فى هذه اللَّوْزة حَبَّتين ، ونحو ذلك ، مما لايتيقنه الحالف ، فبان كما حلف عليه .

فهذا لايحنث عند الأكثرين . وكذلك لو لم يتبين الحال واستمر مجهولا . فإن النكاح ثابت بيقين ، فلا يزيله بالشك .

ولمالكٍ أصل نازعه فيه غيره . وهو إيقاع الطلاق بالشك فى الحنث ، وإيقاعه بالشك فى عدده كما تقدم . وإيقاعه بالشك فى المطلقة . كما لو طلق واحدة من نسائه ثم أنسيها ، ووقف الحال مدة الإيلاء ولم يتبين ، طلق عليه الجميع .

وكما لو حلف أن هذا فلان أو حيوان ، وهو غير متيقن له ، بل هو شاك حال الحلف ، فتبين أن الأمر كما حلف عليه. فإنه يحنث عنده ، وتطلق امرأته. فمن حلف على رجل أنه زيد فتبيّن أنه غيره ، أو لم يتبين : أهو المحلوف عليه أم لا ، حنث عنده ، وإن تبين أنه المحلوف عليه ــ وكان حال اليمين لا يعلم حقيقته ، ولا يغلب على ظنه . ولا طريق له إلى العلم به فى العادة ــ فإنه يحنث عنده لشكه حال الحلف . فالحالف يحنث بالمخالفة لما حلف عليه . أما فى الطلب فبأن يفعل ما حلف على تركه ، وأما فى الخبر فبأن يتبين كذبه ، وعند مالك يحنث بأمر آخر ، وهو الشك حال اليمين ، سواء تبين صدقه أم لا .

وأبلغ من هذا : أنه يحنِّث من حلف بالطلاق على إنسان إلى جانبه إنسان أو حجر : أنه حجر ، ونحو ذلك مما لاشك فيه .

وعمدته فى الموضعين : أن الحالف هازل . فإن من قال : أنت طالق إذ لم تكونى امرأة ، أو إن لم أكن رجلا ، لا معنى لكلامه إلا الهزل ، فإن هذا مما لاغرض للعقلاء فيه .

قالوا : وإن لم يكن هذا هزلا فإن الهزل لاحقيقة له .

وربما عللوا الحنث بأنه أراد أن يجزم الطلاق ، ثم ندم ، فوصله بما لايفيد ليرفعه .

وأما فى القسم الأول : فأصله فيه : تغليب الحنث بالشك ، كمن حلف . ثم شك : هل حنث أم لا ، فإنهم يأمرونه بفراق زوجته ، وهل هو للوجوب أم للاستحباب ؟ على قولين ، الأول : لابن القاسم ، والثانى : لمالك .

فمالك يراعى بقاء النكاح ، وقد شككنا فى زواله ، والأصل البقاء . وابن القاسم يقول: قد صار حلّ الوطء مشكوكا فيه ، فيجب عليه مفارقتها . والأكثرون يقولون : لا يجب عليه مفارقتها ، ولا يستحب له ، فإن قاعدة الشريعة : أن الشك لا يقوى على إزالة الأصل المعلوم ، ولايزول اليقين إلابيقين أقوى منه ، أو مساوٍ له .

فصل

وأما من طلق واحدة من نسائه ثم أنسيها ، أو طلق واحدة مبهمة ولم يعينها ، فقد اختلف الفقهاء فى حكم هذه المسألة على أقوال :

فقال أبو حنيفة ، والشافعى ، والثورى ، وحماد : يختار أيتهن شاء ، فيوقع عليها الطلاق فى المبهمة . وأما فى المنسية فيُمسك عنهن وينفق عليهن ، حتى ينكشف الأمر. فإن مات الزوج قبل أن يقرع ، فقال أبو حنيفة : يقسم بينهن كلهن ميراث امرأة .

وقال الشافعى : يوقف ميراث امرأة حتى يصطلحن .

وقالت المالكية : إذا طلق واحدة منهن غير معلومة عنده ، بأن قال : أنت طالق ، ولا يدرى مَنْ هى . طلق الجميع . وإن طلق واحدة معلومة ، ثم أنسيها . وقف عنهن حتى يتذكر . فإن طال ذلك ضُرب له مدة المُوْلِى . فإن تذكَّر فيها وإلا طَلُق عليه الجميع . ولو قال : إحداكن طالق ، ولم يعينها بالنية . طلق الجميع .

وقال أحمد : يقرع بينهن فى الصورتين ، نص على ذلك فى رواية جماعة من أصحابه ، وحكاه عن علىّ وابن عباس .

وظاهر المذهب الذى عليه جُلُّ الأصحاب : أنه لا فرق بين المبهة والمنسية .

وقال صاحب المغنى : يخرج المبهمة بالقرعة ؛ وأما المنسية فإنه يحرم عليه الجميع حتى تتبين المطلقة ، ويؤخذ بنفقة الجميع ، فإن مات أقرع بينهن للميراث ، قال : وقد روى إسماعيل ابن سعيد عن أحمد ما يدل على أن القرعة لا تستعمل فى المنسية لمعرفة الحِلّ ، وإنما تستعمل لمعرفة الميراث . فإنه قال : سألت أحمد عن الرجل يطلّق امرأة من نسائه ولا يعلم أيّتهن طلق . قال : «أكره أن أقول فى الطلاق بالقرعة . قلت : أفرأيتَ إن مات هذا ؟ قال:أقول بالقرعة وذلك لأنه تصير القرعة على المال .قال : وجماعة من روى عنه القرعة فى المطلقة المنسية إنما هو فى التوريث . وأما فى الحل فلا ينبغى أن تثبت القرعة . قال : وهذا قول أكثر أهل العلم».

واحتج الشيخ لصحة قوله : بأنه اشتبهت عليه زوجته بأجنبية ، فلم تحلّ له إحداها بالقرعة كما لو اشتبهت عليه بأجنبية لم يكن له عليها عقد ، ولأن القرعة لا تزيل التحريم من المطلقة ، فلا ترفع الطلاق عمن وقع عليها، ولاحتمال كون للطلقة غير من خرجت عليها القرعة . ولهذا لو ذكر أن المطلقة غيرها حرمت عليه.ولو ارتفع التحريم أو زال بالطلاق لما عاد بالذكر.فيجب بقاء التحريم بعد القرعة ، كما كان قبلها .

قال : وقد قال الخِرَقى فيمن طلق امرأته فلم يدر ، أواحدة طلق أم ثلاثا ، ومن حلف بالطلاق لا يأكل تمرة ، فوقعت فى تمر ، فأكل منه واحدة : لا تحل له امرأته حتى يعلم أنها ليست التى وقعت اليمين عليها . فحرمها ، مع أن الأصل بقاء النكاح ، ولم يعارضه يقين التحريم(١) ، فههنا أولى .

قال : وهكذا الحكم فى كل موضع أوقع الطلاق على امرأة بعينها ، ثم اشتبهت بغيرها . مثل أن يرى امرأة فى رَوْزَنة ،أو مُوَلِّية ، فيقول : أنت طالق،ولايعلم عينها من نسائه.وكذلك إذا أوقع الطلاق على واحدة من نسائه فى مسألة الطائر وشبهها ، فانه يحرم عليه جميع نسائه حتى تتبين المطلقة . ويؤخذ بنفقة الجميع ؛ لأنهن محبوسات عليه ، وإن أقرع بينهن لم تفد القرعة شيئاً . ولايحل لمن وقعت عليها القرعة التزويج؛لأنها يجوز أن تكون غيرالمطلقة ولايحل للزوج غيرها لاحتمال أن تكون المطلقة .

وقال أصحابنا : إذا أقرع بينهن فخرجت القرعة على إحداهن . ثبت حكم الطلاق فيها

(١) فى نسخة « نفس التحريم » .

لحل لها النكاح بعد انقضاء عدتها . وحلّ للزوج مَنْ سواها . كما لو كان الطلاق فى واحدة غير معينة .

وقال شيخنا : الصحيح استعمال القرعة فى الصورتين .

قلت : وهو منصوص أحمد فى رواية الجماعة . وأما رواية الشالَنْجِي فانه توقّف ، وكَرِه أن يقول فى الطلاق بالقرعة ، ولم يعين المنسية ، ولا المبهمة ، وأكثر نصوصه على القرعة فى الصورتين .

قال فى رواية الميمونى ، فيمن له أربع نسوة طلّق واحدة منهن ، ولم يَدْرِ : يقرع بينهن ، وكذلك فى الأعْبُدِ . فإن أقرع بينهن ، فوقعت القرعة على واحدة ، ثم ذكر التى طلق . رجعت هذه التى وقعت عليها القرعة . ويقع الطلاق على التى ذكر . فإن تزوجت ، فذاك شىء قد مَرّ .

وكذلك نقل أبو الحٰرث عنه فى رجل له أربع نسوة طلّق إحداهن ، ولم يكن له نِيّة فى واحدة بعينها . يقرع بينهن . فأيّتهن أصابتها القرعة فهى المطلقة ، وكذلك إن قصد إلى واحدة بعينها ونسيها .

فنص على القرعة فى الصورتين ، مسوّيا بينهما .

والذى أفتى به علىّ رضى الله عنه هو فى المنسية . وبه احتج أحمد رحمه الله .

قال وَكيع : سمعت عبد الله قال : سألت أبا جعفر عن رجل كان له أربع نسوة ، وطلق إحداهن ، لا يدرى أيتهن طلق ، فقال قال على رضى الله عنه « يقرع بينهن » .

والأدلة الدالة على القرعة تتناول الصورتين ، والمنسية قد صارت كالمجهولة شرعا ، فلا فرق بينها وبين المبهمة المجهولة ، ولأن فى الإيقاف والإمساك حتى يتذكر ، وتحريم الجميع عليه ، وإيجاب النفقة على الجميع عدةَ مفاسد له وللزوجات مندفعة شرعا ، ولأن القرعة أقرب إلى مقاصد الشرع ، ومصلحة الزوج والزوجات من تركهن معلقات ، لاذوات زوج ولا أيامى ، وتركه هو معلقا ، لاذا زوج ولا عَزَبا ، وليس فى الشريعة نظيرِ ذلك ، بل ليس فيها وقف الأحكام ، بل الفصل وقطع الخصومات بأقرب الطرق ، فإذا ضاقت الطرق ، ولم يبق إلا القرعة ، تعينت طريقاً ، كما عينها الشارع فى عدة قضايا ، حيث لم يكن هناك غيرها ، ولم

يوقف الأمر إلى وقت الانكشاف ، فإنه إذا علم أنه لاسبيل له إلى انكشاف الحال ، كان إيقاف الأمر إلى آخر العمر من أعظم المفاسد التى لاتأتى بها الشريعة ، وغاية ما يقدّر أن القرعة تصيب التى لم يقع عليها الطلاق وتخطئ المطلقة . وهذا لايضرها هٰهنا ، فإنها لما جهل كونها هى التى وقع عليها الطلاق صار المجهول كالمعدوم ، وكلّ مايقدّر من المفسدة فى ذلك فمثلها فى العتق سواء . وقد دلت سنة رسول الله عليه الصلاة والسلام الصحيحة الصريحة على إخراج المعتق من غيره بالقرعة[1] ، وقد نص أحمد على حِلِّ البُضْع بالقرعة .

فقال ـ فى رواية ابن منصور وحنبل ـ « إذا زوّجها الوليان من رجلين ، ولم يعلم السابق منهما أقرع بينهما ، فمن خرجت له القرعة حكم أنه الأول » .

فإذا قويت القرعة على تعيين الزوج فى حل البُضع له فلَأَن تقوى على تعيين المطلقة فى تحريم بُضْعها عنه أولى . فإن الطلاق مبنى على التغليب والسّراية ، وهو أسرع نفوذاً وثبوتاً من النكاح من وجوه كثيرة .

وقول الشيخ أبى محمد ـ قدس الله تعالى روحه ـ : إنه اشتبهت عليه زوجته بأجنبية فلم تحل له إحداهما بالقرعة ، كما لو اشتبهت بأجنبية لم يكن عليها عقد .

جوابه : بالفرق بين حالتى الدوام والابتداء ، فإنه هناك شكّ فى هذه الأجنبية ، هل حصل عقد أم لا ؟ والأصل فيها التحريم ، فإذا اشتبهت بها الزوجة لم يقدم على واحدة منهما. وهٰهنا ثبت الحل والنكاح . وحصل الشك بعده ، هل يزول فى هذه أو فى هذه[2] . فإما أن يحرّما جميعاً أو يحلا جميعاً ، أو يقال له : اختر من ينزل عليه التحريم ، أو يوقف الأمر أبداً . أو يستعمل القرعة ؟ والأقسام الأربعة الأول باطلة ، لا أصل لها فى السنة ، ولم يعتبرها الشارع بخلاف القرعة .

وبالجملة فلا يصح إلحاق إحدى الصورتين بالأخرى ، إذ هناك تحريم متيقن ، ونحن

---

(١) عن عمران بن حصين رضى الله عنه « أن رجلا أعتق ستة مماليك له عند موته ، لم يكن له مال غيرهم فدعا بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فجزأهم أثلاثا ثم أقرع بينهم . فأعتق اثنين وأرق أربعة ، وقال له قولا شديدا » رواه مسلم . ورواه أبو داود والنسائى وبينا القول الشديد ، وهو قوله « لو شهدته قبل أن يدفن لم يدفن فى مقابر المسلمين » .

(٢) فى نسخة : « هل ترك التحريم فى هذه أو فى هذه » .

نشك فى حله ، وهنا حل متيقن نشك فى تحريمه بالنسبة إلى كل واحدة .

قوله : ولأن القرعة لا تزيل التحريم من المطلقة ، ولا ترفع الطلاق على من وقع عليه .

فيقال : إذا جهلت المطلقة . ولم يكن له سبيل إلى تعيينها[1] قامت القرعة مقام الشاهد والمخبر بأنها المطلقة للضرورة ، حيث تعينت طريقاً ، فالمطلقة المجهولة قد صار طلاقها بعينها كالمعدوم ، ولو كانت مطلقة فى نفس الأمر . فإن الشارع لم يكلفنا بما فى نفس الأمر ، بل بما ظهر وبدا . ولهذا لو نسى الطلاق بالكلية وأقام على وطئها حتى تُوفى . كانت أحكامه أحكام الزوج ، والنسب لاحق به ، والميراث ثابت ، وهى مطلقة فى نفس الأمر ، ولكن ليست مطلقة فى حكم الله ، كما لو طلع الهلال فى نفس الأمر ولم يَرَهُ أحد من الناس ، أو كان الهلال تحت الغَيم ، فإنه لا يترتب عليه حكم الشهر ، ولا يكون طالعاً فى حكم الله تعالى ، وإن كان طالعاً فى نفس الأمر ، ونظائر هذا كثيرة جداً .

فغاية الأمر : أن هذه مطلقة فى نفس الأمر ، ولا علم له بطلاقها ، فلا تكون مطلقة فى الحكم ، كما لو نسى طلاقها .

قوله : ولهذا لو ذكر أن المطلقة غيرها حرمت عليه ، ولو ارتفع التحريم أو زال الطلاق لما عاد بالذكر .

جوابه : أن القرعة إنما عملت مع استمرار النسيان ، فاذا زال النسيان بطل عمل القرعة ، كما أن المتيمم إذا قدر على استعمال الماء بطل حكم تيممه . فان التراب إنما يعمل عند العجز عن الماء ، فإذا قدر عليه بطل حكمه . ونظائر ذلك كثيرة .

منها : أن الاجتهاد إنما يعمل به عند عدم النص ، فإذا تبين النص ، فلا اجتهاد إلا فى إبطال ماخالفه .

قوله : وقد قال الخرقى فيمن طلق امرأته ولم يَدرِ أواحدة طلق أم ثلاثاً ، يلزمه الثلاث، ومن حلف بالطلاق أن لا يأكل تمرة ، فوقعت فى تمر ، فأكل منه واحدة . لا تحل له امرأته حتى يعلم

---

(١) فى النسخة الخطية « إلى تيقنها » وبهامشها مانصه : تقدم قول صاحب المغنى . وصورته : فلا ترفع الطلاق عمن وقع عليه .

أنها ليست التى وقعت اليمين عليها ، لحرمها ، مع أن الأصل بقاء النكاح ، ولم يعارضه يقين التحريم . فههٰنا أولى .

فيقال : الخرقى نص على المسئلتين مفرقا بينهما فى مختصره ، فقال : و إذا طلق واحدة من نسائه وأنسيها أخرجت بالقرعة.وقال:ماحكاه الشيخ عنه فى الموضعين . فأما من شك : هل طلق واحدة أم ثلاثا ، فأكثر النصوص أنه إنما يلزمه واحدة ، وهو ظاهر المذهب . والخرقى اختار الرواية الأخرى . وهى مذهب مالك ، وقد تقدم مأخذ القولين و بيان الراجح منهما .

وعلى القول بلزوم الثلاث فالفرق بين ذلك ، و بين إخراج المنسية بالقرعة : أن المجهول فى الشرع كالمعدوم . فقد جهلنا وقوع الطلاق بأى الزوجتين ، فلم يتحقق تحريم إحداهما . ولم يكن لنا سبيل إلى تحريمهما ولا إباحتهما . والوقف مفسدة ظاهرة فتعينت القرعة ، بخلاف من أوقع على زوجته طلاقا وشك فى عدده ، فانه قد شك: هل يرتفع ذلك الطلاق بالرجعة أولا يرتفع بها؟ فألزمه بالثلاث . فظهر الفرق بينهما على هذا القول .

وأما على المشهور من المذهب فلا إشكال .

وأما من حلف بالطلاق لايأكل تمرة فوقعت فى تمر ، فأكل منه واحدة . فقد قال الخرقى: إنه يمنع من وطء زوجته حتى يتيقن . وهـذا يحتمل الكراهة والتحريم . ومذهب الشافعى وأبى حنيفة : أنه لايحنث، ولايحرم عليه وطء زوجته . هواختيار أبى الخطاب. وهوالصحيح . و إن أراد به التحريم فهو يشبه ماقاله هو ومالك فيمن طلق وشك ، هل طلق واحدة أم ثلاثا ؟

فصل

وأما من حلف على يمين ثم نسيها . وقولهم : يلزمه جميع مايحلف به فقول شاذ جداً. وليس عن مالك . إنما قاله بعض أصحابه . وسائر أهل العلم على خلافه . وأنه لايلزمه شىء حتى يتيقن، كما لوشك : هل حلف أو لا ؟

فإن قيل: فينبغى أن يلزمه كفارة يمين، لأنها الأقل .

قيل : موجب الأيمان مختلف . فما من يمين إلا وهى مشكوك فيها ، هل حلف بها أم لا ؟

وعلى قول شيخنا : يلزمه كفارة يمينٍ حَسْبُ . لأن ذلك موجَبُ الأيمان كلها عنده[١]

[فصـــــل]

وأما من حلف ليفعلنّ كذا وَلم يُعَيِّنْ وقتاً . فعند الجمهور هو على التراخى إلى آخر عمره ، إلا أن يعين بنيَّتِه وقتا ، فيتقيد به . فان عزم على الترك بالكلية حنث حالةَ عَزْمه . نصَّ عليه أحمد .

وقال مالك : هو على حنثٍ حتى يفعل ، فيُحالَ بينه و بين امرأته إلى أن يأتى بالمحلوف عليه وهذا صحيح على أصله فى سَدِّ الذرائع . فانه إذا كان على التراخى إلى وقت الموت لم يكن لليمين فائدة ، وصار لافرق بين الحلف وعدمه ، والحملُ فى ذلك على القرينة والعرف ، إن لم تكن نِيَّة . ولا يكاد اليمين يتجرَّد عن هذه الثلاثة .

[فصـــــل]

وأما تعليق الطلاق بوقت يجيء لامحالة ، كرأس الشهر والسنة ، وآخر النهار . ونحوه . فللفقهاء فى ذلك أربعة أقوال :

أحدها : أنها لاتطلق بحال ، وهذا مذهب ابن حَزْمٍ ، واختيار أبى عبد الرحمن الشافعى ، وهو من أجل أصحاب الوجوه .

وحجتهم : أن الطلاق لايقبل التعليق بالشرط ، كما لايقبله النكاح والبيع والإجارة والإبراء .

قالوا : والطلاق لايقع فى الحال ، ولا عند مجيء الوقت . أما فى الحال فلأنه لم يوقعه مُنَجَّزا . وأما عند مجيء الوقت فلأنه لم يصدر منه طلاق حينئذ ، ولم يتجدد سوى مجيء الزمان . ومجيء الزمان لا يكون طلاقا .

وقابلَ هذا القول آخرون ، وقالوا : يقع الطلاق في الحال ، وهذا مذهب مالك ، وجماعة من التابعين .

---

(١) يعنى ولا يلزمه طلاق بهذا اليمين . وهــذا هو الحق الذى قام عليه الدليل من الكتاب والسنة . وستعرف هذا إن شاء الله فيما سيأتى من كلام العلامة ابن القيم رحمه الله فى فصول هذا الكتاب .

وحجتهم : أن قالوا : لو لم يقع فى الحال لحصل منه استباحة وطء مؤقت ، وذلك غير جائز فى الشرع ، لأن استباحة الوطء فيه لاتكون إلا مطلقا غير مؤقت ، ولهذا حرم نكاح المتعة لدخول الأجل فيه ، وكذلك وطء المكاتبة . ألا ترى أنه لوعُرّى من الأجل ، بأن يقول : إن جئتنى بألف درهم فأنتِ حُرّة ، لم يمنع ذلك الوطء .

قال الموقعون عند الأجل : لايجوز أن يؤخذ حكم الدوام من حكم الابتداء ، فإن الشريعة فرّقت بينهما فى مواضع كثيرة ، فإن ابتداء عقد النكاح فى الإحرام فاسد ، دون دوامه ، وابتداء عقده على المعتدة فاسد ، دون دوامه ، وابتداء عقده على الأمَة مع الطَّوْلِ وعدم خوف العَنَت[1] فاسد ، دون دوامه ، وابتداء عقده على الزانية فاسد عند أحمد ومن وافقه[2] دون دوامه . ونظائر ذلك كثيرة جداً .

قالوا : والمعنى الذى حرم لأجله نكاح المتعة : كون العقد مؤقتاً من أصله ، وهذا العقد مطلق ، وإنما عرض له ما يبطله ويقطعه ، فلا يبطل ، كما لو علّق الطلاق بشرط ، وهو يعلم أنها تفعله ، أو يفعله هو . ولا بُدّ ، ولكن يجوز تخلفه .

والقول الثالث : أنه إن كان الطلاق المعلق بمجئ الوقت المعلوم ثلاثا وقع فى الحال . وإن كان رجعيا لم يقع قبل مجيئه ، وهذا إحدى الروايتين عن الإمام أحمد . نص عليه فى رواية مهنّا . « إذا قال : أنت طالق ثلاثا قبل موتى بشهر : هى طالق الساعة . كان سعيد ابن المسيِّب والزُّهْرِى لا يوقتون فى الطلاق » . قال مهنا : قلت له : أفتزوج هذه التى قال لها : أنت طالق ثلاثا قبل موتى بشهر ؟ قال « لا: ولكن يمسك عن الوطء أبداً حتى يموت » هذا لفظه .

وهو فى غاية الإشكال ، فإنه قد أوقع عليها الطلاق منجزا ، فكيف يمنعها من التزويج ؟

---

(١) لقوله تعالى (٤ : ٢٥ ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات ـ إلى أن قال ـ : ذلك لمن خشى العنت منكم وأن تصبروا خير لكم) والطول : الفضل من المال الذى يمكنه من زواج الحرائر ، قال ابن عباس « من ملك ثلاثمائة درهم فقد وجب عليه الحج وحرم عليه نكاح الاماء » والعنت : الضر والمشقة والاثم الذى يخافه من الوقوع فى الزنا أو الضرر فى صحته ، من مرض ونحوه .

(٢) محتجين بقوله تعالى (٢٤ : ٣) الزانى لاينكح إلا زانية أومشركة والزانية لاينكحها إلا زان أومشرك حرّم ذلك على المؤمنين) .

وقوله : « يمسك عن الوطء أبدا » يدل على أنها زوجته إلا أنه لا يطؤها ، وهذا لا يكون مع وقوع الطلاق . فإن الطلاق إذا وقع زالت أحكام الزوجية كلها .

فقد يقال : أخذ بالاحتياط فأوقع الطلاق ، ومنعها من التزويج للخلاف فى ذلك ، فحرم وطأها وهو أثر الطلاق ، ومنعها من التزويج لأن النكاح لم ينقطع بإجماع ولا نص .

ووجه هذا : أنه إذا كان الطلاق ثلاثا لم يحل وطؤها بعد الأجل . فيصير حال الوطء مؤقتا ، و إن كان رجعياً جاز له وطؤها بعد الأجل . فلا يصير الحال مؤقتا ، وهذا أفقه من القول الأول .

والقول الرابع:أنها لاتطلق إلاعند مجيء الأجل ، وهو قول الجمهور . و إنما تنازعوا ، هل هو مطلق فى الحال ، ومجيء الوقت شرط لنفوذ الطلاق ، كما لو وكّله فى الحال . وقال : لاتتصرف إلى رأس الشهر . فمجيء رأس الشهر شرط لنفوذ تصرفه، لالحصول الوكالة ، بخلاف ما إذا قال : إذا جاء رأس الشهر فقد وكلتك . ولهذا يفرق الشافعى بينهما . فيصحح الأولى و يبطل الثانية ، أو يقال : ليس مطلّقا فى الحال . و إنما هو مطلق عند مجيء الأجل ، فيقدر حينئذ أنه قال : أنت طالق . فيكون حصول الشرط وتقدير حصول : أنت طالق ، معا . فعلى التقدير الأول : السبب تقدم ، وتأخر شرطُ تأثيره ، وعلى التقدير الثانى : نفس السبب تأخر تقديراً إلى مجيء الوقت . وكأنه قال : إذا جاء رأس الشهر فحينئذ أنا قائل لك : أنت طالق . فإذا جاء رأس الشهر قدر قائلا لذلك اللفظ المتقدم .

فمذهب الحنفية : أن الشرط يمتنع به وجود العلة . فإذا وجد الشرط وجدت العلة فيصير وجودها مضافا إلى الشرط ، وقبل تحققه لم يكن المعلق عليه علة ، بخلاف الوجوب . فانه ثابت قبل مجيء الشرط ، فاذا قال : إن دخلت الدار فأنت طالق ، فالعلة للوقوع :التلفظ بالطلاق ، والشرط الدخول ، وتأثيره فى امتناع وجود العلة قبله ، فاذا وجد وجدت .

وأصحاب الشافعى يقولون : أثرالشرط فى تراخى الحكم ، والعلة قد وجدت ، و إنما تراخى تأثيرها إلى وقت مجيء الشرط ، فالمتقدم علة قد تأخر تأثيرها إلى مجيء الشرط .

فصـــل

وأما ماأفتى به الحسن وإبراهيم النخعى ومالك ، فى إحدى الروايتين عنه : أن من شكّ هل انتقض وضوءه أم لا ؟ وجب عليه أن يتوضأ احتياطا ، ولا يدخل فى الصلاة بطهارة مشكوك فيها .

فهذه مسألة نزاع بين الفقهاء .

وقد قال الجمهور ـ منهم الشافعى ، وأحمد ، وأبو حنيفة ، وأصحابهم ، ومالك فى الرواية الأخرى عنه ـ إنه لايجب عليه الوضوء ، وله أن يصلى بذلك الوضوء الذى تيقنه ، وشك فى انتقاضه .

واحتجوا بما رواه مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم : « إذا وجد أحدكم فى بطنه شيئا فأشكل عليه : أَخَرجَ منه شىء أم لا ؟ فلا يخرج من المسجد حتى يسمع صوتاً أو يجد ريحاً » وهذا يَعُمُّ المصلى وغيره .

وأصحاب القول الأول يقولون : الصلاة ثابتة فى ذمته بيقين ، وهو يشك فى براءة الذمة منها بهذا الوضوء ، فإنه على تقدير بقائه هى صحيحة، وعلى تقدير انتقاضه باطلة ، فلم يتيقن براءة ذمته ، ولأنه شك فى شرط الصلاة : هل هو باقٍ أم لا ؟ فلا يدخل فيها بالشك .

والآخرون يجيبون عن هذا بأنها صلاة مستندة إلى طهارة معلومة قد شك فى بطلانها ، فلا يلتفت إلى الشك ، ولا يزيل اليقين به ، كما لو شكّ : هل أصاب ثوبه أو بدنه نجاسة ؟ فإنه لا يجب عليه غسله ، وقد دخل فى الصلاة بالشك .

ففرقوا بينهما بفرقين .

أحدهما : أن اجتناب النجاســة ليس بشرط . ولهذا لا يجب نيته ، وإنما هومانع ، والأصل عدمه ، بخلاف الوضوء ، فإنه شرط ، وقد شك فى ثبوته ، فأين هذا من هذا ؟.

الثانى : أنه قد كان قبل الوضوء محدثاً ، وهو الأصل فيه . فاذا شك فى بقائه كان ذلك رجوعا إلى الأصل . وليس الأصل فيه النجاسة ، حتى تقول : إذا شك فى حصوله رجعنا إلى أصل النجاسة ، فهنا يرجع إلى أصل الطهارة ، وهناك يرجع إلى أصل الحدث .

قال الآخرون : أصل الحدث قد زال بيقين الطهارة ، فصارت هى الأصل ، فإذا شككنا فى الحدث رجعنا إليه ، فأين هذا من الوسواس المذموم شرعا ، وعقلا وعرفا ؟ .

فصــــل

وأما قولكم : إن من خفى عليه موضع النجاسة من الثوب وجب عليه غسله كله : فليس هذا من باب الوسواس ، و إنما ذلك من باب ما لا يَتِمُّ الواجب إلا به. فانه قد وجب عليه غسل جزء من ثوبه ولا يعلمه بعينه ، ولاسبيل إلى العلم بأداء هذا الواجب إلا بغسل جميعه .

فصــــل

وأما مسألة الثياب التى اشتبه الطاهر منها بالنجس ، فهذه مسألة نزاع .

فذهب مالك ، فى رواية عنه ، وأحمد : إلى أنه يصلى فى ثوب بعد ثوب ، حتى يتيقن أنه صلى فى ثوب طاهر .

وقال الجمهور ــ ومنهم أبو حنيفة ، والشافعى ، ومالك ، فى الرواية الأخرى ــ إنه يتحرّى فيصلى فى واحد منها صلاة واحدة ، كما يتحرى فى القبلة .

وقال المزنى وأبو ثَوْر : بل يصلى عرياناً ولا يصلى فى شىء منها ، لأن الثوب النجس فى الشرع كالمعدوم ، والصلاة فيه حرام ، وقد عجز عن السترة بثوب طاهر ، فسقط فرض السترة ، وهذا أضعف الأقوال .

والقول بالتحرى هو الراجح الظاهر ، سواء كثر عدد الثياب الطاهرة أو قَلّ . وهو اختيار شيخنا . وابنُ عقيل يفصِّل . فيقول : إن كثر عدد الثياب تحرّى دفعا للمشقة ، و إن قلّ عمل باليقين .

قال شيخنا : اجتناب النجاسة من باب المحظور ، فإذا تحرّى وغلب على ظنه طهارة ثوب منها فصلَّى فيه . لم يحكم ببطلان صلاته بالشك ، فإن الأصل عدم النجاسة ، وقد شكّ فيها فى هذا الثوب ، فيصلى فيه ، كما لو استعار ثوباً أو اشتراه ولا يعلم حاله .

وقول أبى ثور فى غاية الفساد . فإنه لو تَيقَّن نجاسة الثوب لكانت صلاته فيه خيراً وأحبَّ إلى الله من صلاته مُتجرداً ، بادِىَ السَّوءة للناظرين .

وبكل حال فليس هذا من الوسواس المذموم .

فصل

وأما مسألة اشتباه الأوانى . فكذلك ليست من باب الوسواس .

وقد اختلف فيها الفقهاء اختلافا متبايناً .

فقال أحمد : يتيمم ويتركها ، وقال مَرّةً يريقها ويتيمم ، ليكون عادما للماء الطَّهور بيقين .

وقال أبو حنيفة : إن كان عدد الأوانى الطاهرة أكثر ، تحرَّى ، وإن تساوت أو كثرت النجسة ، لم يتحرَّ . وهذا اختيار أبى بكر وابنِ شاقِلاَّ والنَّجَّاد(١) من أصحاب أحمد .

وقال الشافعى وبعض المالكية : يتحرى بكل حال .

وقال عبد الملك بن الماجِشُون : يتوضأ بكل واحد منها وضوءاً ويصلى .

وقال محمد بن مَسْلَمَة من المالكية : يتوضأ من أحدها ويصلى ، ثم يغسل ما أصابه منه ثم يتوضأ من الآخر ويصلى .

وقالت طائفة ــ منهم شيخنا ــ يتوضأ من أيِّها شاء ، بناء على أن الماء لا ينجُس إلا بالتغير ، فتستحيل المسألة ، وليس هذا موضع ذكر حُجج هذه الأقوال وترجيح راجحها .

فصل

وأما إذا اشتبهت عليه القِبْلة ، فالذى عليه أهل العلم كلهم : أنه يجتهد ويصلى صلاة واحدة .

---

(١) النجاد : هو أحمد بن سليمان بن الحسن العالم الناسك الورع ، ممن اتسعت رواياته عن الامام أحمد وانتشرت أحاديثه ومصنفاته . مات فى ذى الحجة سنة ثمان وأربعين وخمسمائة .

وشذَّ بعض الناس فقال : يصلى أربع صلوات إلى أربع جهات ، وهذا قول شاذ مخالف للسنة ، وإنما التزمه قائله فى مسألة اشتباه الثياب ، وهذا ونحوه من وجوه الالتزامات عند المضايق ؛ طرداً لِدليل المستدل ـ : مما لا يلتفت إليها ، ولا يعول عليها .

ونظيره : التزام من التزم اشتراط النية لإزالة النجاسة ، لَمَّا ألزمهم أصحاب أبى حنيفة بذلك ، قال بعضهم : نقول به .

ونظيره : إدراك الجمعة بإدراك تكبيرة مع الإمام ، لَمَّا ألزمت الحنفية من نازعها فى ذلك بالتسوية بين الجمعة والجماعة التزمه بعضهم ، وقال : نقول به .

فصـــل

وأما من ترك صلاةً من يوم لا يعلم عينها ، فاختلف الفقهاء فى هذه المسئلة على أقوال .

أحدها : أنه يلزمه خمس صـــلوات . نص عليه أحمد ، وهو قول مالك ، والشافعى ، وأبى حنيفة وإسحٰق ، لأنه لاسبيل له إلى العلم ببراءة ذمته يقينا إلا بذلك .

القول الثانى : أنه يصلى رباعية ينوى بها ماعليه . ويجلس عقيب الثانية والثالثه والرابعة . وهذا قول الأوزاعى ، وزُفَر بن الهُذَيل ، ومحمد بن مقاتل من الحنفية ، بناء على أنه يخرج من الصلاة بدون الصلاة على النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ، وبدون السلام ، وأنَّ نية الفرضيَّة تكفى من غير تعيين ، كما فى الزكاة ، ولا يضرُّ جلوسه عقيب الثالثة ، إن كانت المنسية رباعية ، لأنه زيادة من جنس الصلاة ، لاعلى وجه العَمْدِ .

القول الثالث : أنه يجزيه أن يصلى فجراً ، ومغربا ، ورباعية ينوى ماعليه . وهذا قول سفيان الثورى ، ومحمد بن الحسن .

ويُخرَّج على المذهب إذا قلنا بأن نية المكتوبة تكفى من غير تعيين .

وقد قال عبد الله بن أحمد : سمعت أبى يُسأل : ما تقول فى رجل ذكر أن عليه صلاة لم يعينها ، فصلى ركعتين وجلس وتشهد ، ونوى بها الغَداة ولم يسلم ، ثم قام فأتى بركعة وجلس فتشهد ونوى بها المغرب ، وقام ولم يسلم ، وأتى برابعة ثم جلس ، فتشهد ونوى بها ظهراً أوعصراً أو عشاء الآخرة ثم سلم ؟ فقال له أبى « هذا يجزيه ، ويَقضِى عنه ، على مذهب العراقيين .

لأنهم اعتمدوا فى التشهد على خبر ابن مسعود : « إذا قلت هذا فقد تمت صلاتك[١] » وأما على مذهب صاحبنا أبى عبد الله الشافعى ، ومذهبنا ، لا يُجزئ عنه ؛ لأنا نذهب إلى قوله : صلى الله تعالى عليه وآله وسلم « تحريمها التكبير وتحليلها التسليم[٢] » ونذهب إلى الصلاة على رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فيها » هذا لفظه .

قال أبو البركات : هذا من أحمد : يبين أن قضاء الواحدة لايجزيه ، لتعذر التحليل المعتبر لا لفوات نية التعيين ، فاذا قضى ثلاثاً ـ كما قال الثورى ـ اندفع المفسد . و بكل حال فليس فى هذا راحة للموسوسين .

فصـــل

وأما من شك فى صلاته ، فانه يبنى على اليقين . لأنه لا تبرأ ذمته منه بالشك .

وأما تحريم أكل الصيد إذا شك صاحبه : هل مات بالجرح أو بالماء ؟ وتحريم أكله

---

(١) قال الحافظ الزيلعى فى تخريج أحاديث الهداية : احتج به المصنف على عدم فرضية الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم فى التشهد . وقد تقدم أن أبا داود أخرجه فى سننه . قال الخطابى : (معالم السنن ج ١ ص ٢٢٩) وقد اختلفو فى هذه الزيادة هل هى من كلام النبىّ صلى الله عليه وسلم ، أو من كلام ابن مسعود وأدرجت فى الحديث ؟ فإن صح مرفوعا إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم ففيه دلالة على أن الصلاة على النبىّ فى التشهد ليست بواجبة اهـ .

وقال البيهقى (ج ٢ ص ١٧٤) وقد بينه شبابة بن سوّار فى روايته عن زهير بن معاوية . وفصل كلام ابن مسعود من كلام النبىّ صلى الله عليه وسلم . وكذلك رواه عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان عن الحسن ابن الحرّ مفصلا مبينا . وقال ابن حبان ـ بعد أن أخرج الحديث فى صحيحه فى النوع الحادى والعشرين من القسم الأول ، بلفظ السنن ـ : وقد أوهم هذا الحديث من لم يحكم الصناعة أن الصلاة على النبىّ صلى الله عليه وسلم فى التشهد ليست بفرض . فإن قوله « إذا قلت الخ » هذه زيادة أدرجها زهير بن معاوية فى الخبر عن الحسن بن الحرّ . وقال : ذكر ابن ثوبان أن هذه الزيادة من قول ابن مسعود ، لا من قول النبىّ صلى الله عليه وسلم ، وأن زهيراً أدرجه فى الحديث . وكذلك نقل الزيلعى عن الدارقطنى أن بعضهم أدرجها فى الحديث عن زهير ، ووصلة بكلام النبىّ صلى الله عليه وسلم وفصله شبابة عن زهير ، فجعله من كلام ابن مسعود وهو أشبه بالصواب . ثم بين وجه ذلك (انظر نصب الراية ج ١ ص ٤٢٤) والتعليق عليه .

(٢) رواه الإمام أحمد ، وأبو داود ، والترمذى ، وابن ماجه . والشافعى ، والحاكم وصححه ، كلهم عن على ابن أبى طالب . قال الترمذى : هذا أصح شىء فى هذا الباب وأحسن . وقال أبو نعيم : تفرد به ابن عقيل عن ابن الحنفية عن على . وقال البزار : لانعلمه إلا من هذا الوجه . وقال العقيلى : فى إسناده لين .

إذا خالط كلابه كلباً من غيره . فهو الذى أمر به رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم لأنه قد شك فى سبب الحلّ والأصلُ فى الحيوان التحريم . فلايُستباح بالشك فى شرط حله ، بخلاف ما إذا كان الأصل فيه الحل . فإنه لايحرم بالشك فى سبب تحريمه ، كما لو اشترى ماء أوطعاما ، أو ثوبا لايعلم حاله . جاز شربه وأكله ولبسه . وإن شك : هل تنجس أم لا ؟ فان الشرط متى شكّ اعتباره ، أوكان الأصل عدمَ المانع ، لم يُلتفت إلى ذلك .

فالأول : كما إذا أتى بلحم لا يعلم : هل سُمّى عليه ذابحه أم لا ؟ . وهل ذكّاه فى الحلق واللَّبّة ، واستوفى شروط الذكاة أم لا ؟ لم يحرم أكله ، لمشقة التفتيش عن ذلك ، وقد قالت عائشة رضى الله عنها : «يا رسول الله ، إن ناسا من الأعراب يأتوننا باللحم ، لاندرى أذكروا اسم الله عليه أم لا ؟ فقال : سموا أنتم وكلوا » مع أنه قد نهى عن أكل مالم يذكر عليه اسم الله تعالى .

والثانى كما ذكرنا من الماء والطعام واللباس . فان الأصل فيها الطهارة ، وقد شك فى وجود المنجس ، فلا يلتفت إليه .

فصـــل

وأما ماذكرتموه عن ابن عمر ، وأبى هريرة رضى الله عنهما فشىء تفرّدا به ، دون الصحابة ولم يوافق ابنَ عمرعلى ذلك أحدٌ منهم ، وكان ابن عمر رضى الله عنهما يقول : «إن بى وسواسا فلا تقتدوا بى » .

وظاهر مذهب الشافعى وأحمد : أن غسل داخل العينين فى الوضوء لا يستحب ، وإن أمِنَ الضررَ . لأنه لم يُنقل عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أنه فعله قط ، ولا أمر به ، وقد نقل وضوءه جماعة ، كعثمان ، وعلى ، وعبد الله بن زيد ، والرُّبَيِّع بنت مُعَوِّذ وغيرهم ، فلم يقل أحد منهم : إنه غسل داخل عينيه ، وفى وجوبه فى الجنابة روايتان عن أحمد . أصحهما أنه لايجب . وهو قول الجمهور . وعلى هذا فلا يجب غسلهما من النجاسة ، وأولى . لأن المضرة به أغلب ، لزيادة التكرار والمعالجة .

وقالت الشافعية والحنفية : يجب . لأن إصابة النجاسة لهما تَنْدُر ، فلا يشق غسلهما منها . وغلا بعض الفقهاء من أصحاب أحمد ، فأوجب غسلهما في الوضوء . وهو قولٌ لا يُلتفت إليه ولا يعرّج عليه . والصحيح أنه لا يجب غسلهما في وضوء ولا جنابة ولا من نجاسة .

وأما فعل أبي هريرة رضي الله عنه فهو شيء تأوّله ، وخالفه فيه غيره ، وكانوا ينكرونه عليه ، وهذه المسئلة تُلَقَّب بمسئلة إطالة الغُرّة[1] ، وإن كانت الغرة في الوجه خاصة .

وقد اختلف الفقهاء في ذلك ، وفيها روايتان عن الإمام أحمد .

إحداهما : يستحب إطالتها ، وبها قال أبو حنيفة والشافعي ، واختارها أبو البركات ابن تيمية وغيره .

والثانية : لا يستحب . وهي مذهب مالك ، وهي اختيار شيخنا أبي العباس .

فالمستحبون يحتجون بحديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم « أنتم الغرُّ المحجَّلون يوم القيامة من أثر الوضوء ، فمن استطاع منكم فليُطِلْ غُرّته وتحجيله » متفق عليه ، ولأن الحِلية تبلغ من المؤمن حيث يبلغ الوضوء .

قال النافون للاستحباب : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم « إن الله حدّ حدوداً فلا تعتدوها[2] » والله سبحانه قد حدّ المرفقين والكعبين ، فلا ينبغي تعديهما ، ولأن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم لم يَنقُل مَنْ نقل عنه وضوءه أنه تعدّاهما ، ولأن ذلك أصل الوسواس ومادّته ، ولأن فاعله إنما يفعله قُربة وعبادة ، والعبادات مَبْناها على الاتباع ولأن ذلك ذريعة إلى الغسل إلى الفخذ ، وإلى الكتف . وهذا مما يعلم أن النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وأصحابه لم يفعلوه ولا مرّةً وحدةً ، ولأن هذا من الغلوّ ، وقد قال صلى الله تعالى عليه وسلم « إياكم والغلوّ في الدين[3] » ولأنه تعمق ، وهو منهي عنه ، ولأنه عضو من أعضاء الطهارة ، فكره مجاوزته كالوجه .

---

(١) الغرة : البياض في وجه الفرس . وهي هنا نور المؤمن وحليته على أعضاء الوضوء يوم القيامة .

(٢) رواه الإمام أحمد والدارقطني عن أبي ثعلبة الخشني . قال النووي : حسن .

(٣) رواه أحمد والنسائي وابن ماجه والحاكم عن ابن عباس رضي الله عنهما . وتمامه « فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو في الدين » .

وأما الحديث فراويه عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه نُعيم المُجْمِر. وقد قال : « لاأدرى قوله : فمن استطاع منكم أن يطيل غُرته فليفعل ، من قول رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ، أو من قول أبى هريرة رضى الله عنه » روى ذلك عنه الإمام أحمد فى المسند .

وأما حديث الحلية ، فالحلية المزيّنة ما كان فى محله ، فإذا جاوز محله لم يكن زينة .

فصـــل

وأما قولكم : إن الوسواس خير مما عليه أهل التفريط والاسترسال ، و تمشية الأمر كيف اتفق ـ إلى آخره .

فلعمرُ الله ، إنهما لطرفا إفراط وتفريط ، وغلو وتقصير ، وزيادة ونقصان ، وقد نهى الله سبحانه وتعالى عن الأمرين فى غير موضع . كقوله : (« ١٧: ٢٩ » وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ) وقوله : (« ١٧: ٢٦ » وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيراً) وقوله : (« ٢٥ : ٦٧ » وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذٰلِكَ قَوَامًا) وقوله : (« ٧ : ٣١ » وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَيُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ) .

فدين الله بين الغالى فيه والجافى عنه . وخير الناس النَّمَط الأوسط ، الذين ارتفعوا عن تقصيرالمفرطين ، ولم يلحقوا بِغُلُوِّ المعتدين ، وقد جعل الله سبحانه هذه الأمة وَسَطا ، وهى الخيار العدل ، لتوسطها بين الطرفين المذمومين ، والعدلُ هو الوسط بين طرفَى الجَوْرِ والتفريط . والآفاتُ إنما تتطرّق إلى الأطراف ، والأوساط محمية بأطرافها . فخيار الأمور أوساطها . قال الشاعر :

كانت هى الوسط المحمِىُّ ، فاكتنفتْ بهـــا الحوادثُ حتى أصبحت طرفًا

فصـــل

ومن أعظم مكايده التى كاد بها أكثر الناس ، وما نجا منها إلا من لم يرد الله تعالى فتنته : ما أوحاه قديمًا وحديثًا إلى حزبه وأوليائه من الفتنة بالقبور . حتى آل الأمر فيها إلى

أن عُبد أربابُها من دون الله ، وعُبدتْ قبورهم ، واتُّخذت أوثانا ، وبُنيت عليها الهيا كل ، وصُوِّرت صورُ أربابها فيها ، ثم جُعلت تلك الصور أجساداً لها ظل ، ثم جُعلت أصناما ، وعبدت مع الله تعالى .

وكان أولُ هذا الداء العظيم فى قوم نوح ، كما أخبر سبحانه عنهم فى كتابه ، حيث يقول : (« ٧١ : ٢١ » قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَاراً «٢٢» وَمَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً «٢٣» وَقَالُوا لاَ تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلاَ تَذَرُنَّ وَدًّا وَلاَ سُوَاعًا وَلاَ يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً «٢٤» وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا) .

قال ابن جرير : « وكان من خبرهؤلاء ـ فيما بلغنا ـ : ماحدثنا به ابن حُميد حدثنا مهْران عن سفيان عن موسى عن محمد بن قيس : أن يَغوثَ ويَعوق ونَسرا كانوا قوما صالحين من بنى آدم . وكان لهم أتباع يقتدون بهم ، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم : لو صوّرناهم كان أشوقَ لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم . فصوّروهم ، فلما ماتوا وجاء آخرون دَبَّ إليهم إبليس ، فقال : إنما كانوا يعبدونهم ، وبهم يُسقون المطر،فعبدوهم» قال سفيان عن أبيه عن عِكرمة قال : « كان بين آدم ونوح عليهما السلام عشرة قرون ، كلهم على الإسلام » حدثنا ابن عبد الأعلى حدثنا عبد الرزاق[1] عن مَعْمر عن قتادة فى هذه الآية قال : « كانت آلهةً يعبدها قوم نوح ، ثم عبدتها العرب بعد ذلك . فكان وَدٌّ لـكَلْبٍ بِدَوْمَة الجَنْدَل ، وكان سُواع لهُذَيل . وكان يَغوث لبَنِى غُطَيف من مُراد . وكان يَعوقُ لِهَمْدَان . وكان نَسر لذى الـكُلاع من حِمْير» . وقال الوالِبِى، عن ابن عباس «هذه أصنام كانت تعبد فى زمان نوح عليه السلام » .

وقال البخارى : حدثنا إبراهيم بن موسى حدثنا هشام عن ابن جُرَيج قال : قال عطاء عن ابن عباس « صارت الأوثان التى كانت فى قوم نوح فى العرب بعدُ . أما وَدّ فكانت لكلب بدُومَة الجَنْدل . وأماسُواع فكانت لهذيل . وأما يَغُوث فكانت لمراد ، ثم لبنى غُطَيف بالجُرْف عند سَبأ . وأما يعوق فكانت لهمْدان . وأما نَسْر فكانت لحمير لآل ذى الكلاع ؛

(١) كذا فى الأصول . والذى فى تفسير ابن جرير ــ الطبعة الأميرية ــ حدثنا ابن عبد الأعلى قال حدثنا ابن ثور عن معمر عن قتادة .

أسماء رجال صالحين من قوم نوح . فلما هلكوا أوحى الشيطانُ إلى قومهم : أن انصبُوا إلى مجالسهم التى كانو يجلسون أنصابا ، وسمُّوها بأسمائهم ، فعلوا ، فلم تُعبد ، حتى إذا هلك أولئك ، ونُسِي العلمُ ، عُبدت » .

وقال غير واحد من السلف : « كان هؤلاء قوما صالحين فى قوم نوح عليه السلام ، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ، ثم صوّروا تماثيلهم ، ثم طال عليهم الأمَدُ فعبدوهم » .

فهؤلاء جمعوا بين الفتنتين : فتنة القبور ، وفتنة التماثيل . وهما الفتنتان اللتان أشار إليهما رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فى الحديث المتفق على صحته عن عائشة رضى الله عنها « أن أمّ سَلَمَة رضى الله عنها ذكرت لرسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم كَنِيسة رأتها بأرضِ الحبَشة ، يقال لها : مارِيَة . فذكرتْ له ما رأت فيها من الصور . فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم : أولئكِ قوم إذا مات فيهم العبد الصالح ، أو الرجل الصالح ، بنَوْا على قَبره مَسْجداً ، وصوّروا فيه تلك الصور ، أولئكِ شِرار الخلق عند الله تعالى » .

وفى لفظ آخر فى الصحيحين : « أن أم حَبيبة وأم سَلَمَة ذكرتا كنيسة رأينها » .

فجمع فى هذا الحديث بين التماثيل والقبور . وهذا كان سبب عبادة اللّاتَ .

فروى ابن جرير باسناده عن سفيان عن منصور عن مجاهد (« ٥٣ : ١٩ » أفرأيتُمُ اللاتَ وَالْعُزّى) قال « كان يَلُتُّ لهم السّويق . فمات ، فعكفوا على قبره » ، وكذلك قال أبو الجَوْزاء عن ابن عباس رضى الله عنهما : « كان يلتُّ السويق للحاجّ » .

فقد رأيتَ أن سبب عبادة وَدّ ، و يغوث و يَعوق ونَسْراً واللات إنما كانت من تعظيم قبورهم ثم اتخذوا لها التماثيل وعبدوها . كما أشار إليه النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم .

قال شيخنا : وهذه العلة التى لأجلها نهى الشارع عن اتخاذ المساجد على القبور هى التى أوقعت كثيرًا من الأمم إما فى الشرك الأكبر ، أو فيما دونه من الشرك . فان النفوس قد أشركت بتماثيل القوم الصالحين ، وتماثيل يزعمون أنها طلاسم للكواكب ونحو ذلك . فان الشرك بقبر الرجل الذى يُعتقد صلاحه أقربُ إلى النفوس من الشرك بخشَبة أو حَجَر . ولهذا نجد أهل الشرك كثيرًا يتضرّعون عندها ، ويخشعون ويخضعون ، و يعبدونهم بقلوبهم عبادة

لا يفعلونها فى بيوت الله ، ولا وقت السَّحَر . ومنهم من يسجد لها . وأكثرهم يرجون من بركة الصلاة عندها والدعاء ما لا يرجونه فى المساجد . فلأجل هذه المفسدة حَسَم النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم مادّتها ، حتى نهى عن الصلاة فى المقبرة مطلقاً ، وإن لم يقصد المصلى بَرَكة البقعة بصلاته ، كما يقصد بصلاته بركة المساجد ، كما نهى عن الصلاة وقت طلوع الشمس وغروبها ، لأنها أوقات يقصد المشركون الصلاة فيها للشمس . فنهى أمته عن الصلاة حينئذ ، وإن لم يقصد المصلى ماقصده المشركون ، سَدًّا للذّريعة .

قال : وأما إذا قصد الرجل الصلاة عند القبور متبركا بالصلاة فى تلك البقعة . فهذا عين المحادّة لله ولرسوله ، والمخالفةِ لدينه ، وابتداع دين لم يأذن به الله تعالى . فإن المسلمين قد أجمعوا على ماعلموه بالاضطرار من دين رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم أن الصلاة عند القبور منهيٌّ عنها ، وأنه لَعن من اتّخذها مساجد . فمِنْ أعظمِ المحدَثاتِ وأسباب الشِّرك : الصلاةُ عندها ، واتخاذها مساجد ، و بناء المساجد عليها ، وقد تواترت النصوص عن النبي عليه الصلاة والسلام بالنهى عن ذلك والتغليظ فيه . فقد صرّح عامّة الطوائف بالنهى عن بناء المساجد عليها ، متابعة منهم للسنة الصحيحة الصريحة . وصرح أصحاب أحمد وغيرهم من أصحاب مالك والشافعى بتحريم ذلك . وطائفة أطلقت الكراهة . والذى ينبغى أن تُحمل على كراهة التحريم ، إحساناً للظن بالعلماء ، وأن لا يُظَنّ بهم أن يُجوّزوا فعل ما تواتر عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم لعنُ فاعله ، والنهى عنه . ففى صحيح مسلم عن جُندَب ابن عبد الله البَجَلى قال : سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قبل أن يموت بخمس وهو يقول « إنى أبرأُ إلى الله أن يكون لى منكم خليل . فإن الله تعالى قد اتخذنى خليلا ؛ كما اتخذ إبراهيم خليلا ، ولو كنت مُتخذا من أمتى خليلا لا تّخذت أبا بكر خليلا ، ألا و إنّ مَنْ كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد ، فإنى أنهاكم عن ذلك » .

وعن عائشة وعبد الله بن عباس قالا : « لما نُزِل برسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم طَفِقَ يَطرحُ خَميصة له على وجهه . فاذا اغتَمّ كشفها فقال ، وهو كذلك : لعنةُ الله على اليهود

والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ، يُحذِّر ماصنعوا » متفق عليه .

وفى الصحيحين أيضاً عن أبى هريرة رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال : « قاتَلَ الله اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » .

وفى رواية مسلم « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » .

فقد نهى عن اتخاذ القبور مساجد فى آخر حياته ، ثم إنه لعن وهو فى السِّياق[1] مَنْ فعل ذلك من أهل الكتاب ، ليُحذِّر أمته أن يفعلوا ذلك .

قالت عائشة رضى الله عنها : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فى مرضه الذى لم يقم منه : « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ، ولولا ذلك لأُبْرِزَ قبرُه ، غير أنه خُشى أن يُتَّخذ مسجدًا » متفق عليه

وقولها : « خشى » هو بضم الخاء تعليلا لمنع إبراز قبره

وروى الإمام أحمد فى مسنده باسناد جيد عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أن النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال : « إن من شِرار الناس من تُدرِكهم الساعة وهم أحياء، والذين يتخذون القبور مساجد » .

وعن زيد بن ثابت أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال : « لعن الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » . رواه الإمام أحمد .

وعن ابن عباس قال : « لعن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسُرُج » . رواه الإمام أحمد وأهل السنن .

وفى صحيح البخارى « أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه رأى أنس بن مالك يصلى عند قبر ، فقال : القبرَ ، القبرَ » وهذا يدل على أنه كان من المستقر عند الصحابة رضى الله عنهم مانهاهم عنه نبيهم من الصلاة عند القبور . وفعلُ أنس رضى الله عنه لايدل على اعتقاده جوازه . فإنه لعله لم يَرَه ، أو لم يعلم أنه قبر ، أو ذُهِل عنه . فلما نبهه عمر رضى الله تعالى عنه تنبه .

وقال أبو سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم : « الأرضُ كلُّها مسجد إلا المقبرة والحمام» رواه الإمام أحمد وأهل السنن الأربعة ، وصححه أبو حاتم بن حبّان .

(١) سياق الموت . حالة الاحتضار والنزع .

والفتن التي تعرض على القلوب هي أسباب
مرضها، وهي فتن الشهوات وفتن الشبهات
فتن الغي والضلال، فتن المعاصي والبدع،
فتن الظلم والجهل، فالأولى توجب
فساد القصد والإرادة، والثانية توجب
فساد العلم والاعتقاد.

وأبلغ من هذا : أنه نهى عن الصلاة إلى القبر ، فلا يكون القبر بين المصلى و بين القِبلة .

فروى مسلم فى صحيحه عن أبى مَرْثَد الغَنَوىّ رحمه الله أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال : « لا تجلسوا على القبور ، ولا تصلوا إليها » .

وفى هذا إبطال قول من زعم أن النهى عن الصلاة فيها لأجل النجاسة ، فهذا أبعد شىء عن مقاصد الرسول صلى الله عليه وسلم . وهو باطل من عِدّة أوجه :

منها : أن الأحاديث كلها ليس فيها فرق بين المقبرة الحديثة والمنبُوشة ، كما يقوله للطلون بالنجاسة .

ومنها : أنه صلى الله تعالى عليه وآله وسلم لعن اليهود والنصارى على اتخاذ قبور أنبيائهم مساجد . ومعلوم قطعاً أن هذا ليس لأجل النجاسة . فان ذلك لايختص بقبور الأنبياء ،ولأن قبور الأنبياء من أطهر البقاع ، وليس للنجاسة عليها طريق ألبتة ، فإن الله حرم على الأرض أن تأكل أجسادهم ، فهم فى قبورهم طرِيّون .

ومنها : أنه نهى عن الصلاة إليها .

ومنها: أنه أخبرأن الأرض كلها مسجد ، إلا المقبرة والحمام . ولوكان ذلك لأجل النجاسة لكان ذكر الحُشوش والمجازر ونحوها أولى من ذكر القبور .

ومنها : أن موضع مسجده صلى الله تعالى عليه وآله وسلم كان مقبرة للمشركين ، فنَبَش قبورَهم وسَوّاها واتخذه مسجدًا . ولم ينقل ذلك الترابَ ، بل سوّى الأرض ومَهّدها ، وصلى فيه ، كما ثبت فى الصحيحين عن أنس بن مالك قال : « لما قدم النبىُّ صلى الله تعالى عليه وآله وسلم المدينة ، فنزل بأعلى المدينة فى حَيٍّ يقال لهم : بنو عمرو بن عَوْف ، فأقام النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فيهم أربع عشرة ليلة ، ثم أرسل إلى ملأ بنى النَّجار ، فجاءوا مُتَقلّدِى السيوفَ ، وكأنى أنظر إلى النبى صلى الله عليه وسلم على راحلته ، وأبو بكر رِدْفَه ، وملأُ بَنِي النجّار حولَه ، حتى ألقَى بفِناء أبى أيّوب . وكان يُحبُّ أن يصلى حيث أدركته الصلاة ، ويصلى فى مَرابِض الغنم ، وأنه أمَرَ ببناء المسجد : فأرسل إلى ملأ بنى النجار ، فقال : يابنى النجار ، ثامِنُونى بحائطكم هذا . قالوا : لا والله ، ما نطلبُ ثمنه إلا إلى الله .

فكان فيه ما أقول لكم : قبور المشركين . وفيه خَرِب . وفيه نخل . فأمر النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم بقبور المشركين فنُبِشت ،ثم بالخَرِب فسُوِّيت . وبالنخل فقطع . فصفُّوا النخل قِبْلَةَ المسجد ، وجعلوا عِضادَتيه الحجارة وجعلوا ينقلون الصخر . وهم يَرْتجزون — وذكر الحديث » .

ومنها : أن فتنة الشرك بالصلاة فى القبور ومشابهة عُبَّاد الأوثان أعظم بكثير من مفسدة الصلاة بعد العصر والفجر . فإذا نهى عن ذلك سَدًّا لِذَريعة التشبه التى لا تكاد تخطر ببال المصلى ، فكيف بهذه الذريعة القريبة التى كثيرًا ما تدعو صاحبها إلى الشرك ودعاء الموتى ، واستغاثتهم ، وطلب الحوائج منهم ، واعتقاد أن الصلاة عند قبورهم أفضل منها فى المساجد . وغير ذلك ، مما هو محادّة ظاهرة لله ورسوله . فأين التعليل بنجاسة البقعة من هذه المفسدة ؟ . ومما يدل على أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم قصد منع هذه الأمة من الفتنة بالقبور كما افتتن بها قوم نوح ومن بعدهم .

ومنها : أنه لعن المتخذين عليها المساجد . ولو كان ذلك لأجل النجاسة لأمكن أن يتخذ عليها المسجد مع تطيينها بطين طاهر . فتزول اللعنة . وهو باطل قطعا .

ومنها : أنه قرن فى اللعن بين متخذى المساجد عليها وموقدى السرُج عليها . فهما فى اللعنة قرينان . وفى ارتكاب الكبيرة صِنوان . فإن كل مالعن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فهو من الكبائر ، ومعلوم أن إيقاد السرج عليها إنما لعن فاعله لكونه وسيلة إلى تعظيمها ، وجعلها نُصُبا يُوفِضُ إليه المشركون ، كما هو الواقع ، فهكذا اتخاذ المساجد عليها. ولهذا قرن بينهما . فإن اتخاذ المساجد عليها تعظيم لها ، وتعريض للفتنة بها . ولهذا حكى الله سبحانه وتعالى عن المتغلبين على أمر أصحاب الكهف أنهم قالوا : (« ١٨ : ٢١ » لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا) .

ومنها : أنه صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال : « اللهم لا تجعل قبرى وثناً يُعبد . اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » فذكره ذلك عقيب قوله : « اللهم لا تجعل قبرى وثناً يعبد » تنبيه منه على سبب لحوق اللعن لهم . وهو توصلهم بذلك إلى أن تصير أوثاناً تعبد .

وبالجملة . فمن له معرفة بالشرك وأسبابه وذرائعه ، وفهم عن الرسول صلى الله تعالى عليه وآله وسلم مقاصده ، جزم جزما لايحتمل النقيض أن هذه المبالغة منه باللعن والنهى بصيغتيه : صيغة « لا تفعلوا » وصيغة «إنى أنهاكم » ليس لأجل النجاسة ، بل هو لأجل نجاسة الشرك اللاحقة بمن عصاه ، وارتكب ماعنه نهاه . واتبع هواه ، ولم يخش ربه ومولاه ، وقلّ نصيبه أو عدم فى تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله . فان هذا وأمثاله من النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم صيانةٌ لِحِمَى التوحيد أن يلحقه الشرك ويغشاه ، وتجريدٌ له وغضب لربه أن يُعدَل به سواه . فأبى المشركون إلا معصية لأمره وارتكابا لنهيه ، وغرّهم الشيطان . فقال : بل هذا تعظيم لقبور المشايخ والصالحين . وكلما كنتم أشد لها تعظيما ، وأشد فيهم غلوا ، كنتم بقربهم أسعد ، ومن أعدائهم أبعد .

ولعمر الله ، مِنْ هذا الباب بعينه دخل على عُباد يغوث ويعوق ونسر ، ومنه دخل على عباد الأصنام منذ كانوا إلى يوم القيامة . فجمع المشركون بين الغلو فيهم . والطعن فى طريقتهم وهَدَى الله أهل التوحيد لسلوك طريقتهم ، وإنزالهم منازلهم التى أنزلهم الله إياها : من العبودية وسلب خصائص الإلهية عنهم . وهذا غاية تعظيمهم وطاعتهم .

فأما المشركون فعصَوا أمرهم ، وتنقصوهم فى صورة التعظيم لهم . قال الشافعى : «أكره أن يُعظَّم مخلوق حتى يُجعل قبرُه مسجدا ، مخافة الفتنة عليه وعلى من بعده من الناس » .

وممن علَّل بالشرك ومشابهة اليهود والنصارى : الأثرَم فى كتاب ناسخ الحديث ومنسوخه فقال ــ بعد أن ذكر حديث أبى سعيد « أن النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال : جعلت لى الأرض مسجدا إلا المقبرة والحمام » وحديث زيد بن جُبير عن داود بن الحُصين عن نافع عن ابن عمر : أن النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم « نهى عن الصلاة فى سبع مواطن ــ وذكر منها المقبرة » ــ قال الأثرم : إنما كُرهت الصلاة فى المقبرة للتشبه بأهل الكتاب ، لأنهم يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد » .

فصـــل

ومن ذلك اتخاذها عيدا .

والعيد : مايعتاد مجيئه وقصده : من مكان وزمان .

فأما الزمان ، فكقوله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم « يومُ عرفة ويوم النحر وأيامُ مِنًى : عيدنا أهل الإسلام » رواه أبو داود وغيره .

وأما المكان ، فكما روى أبو داود فى سننه أن رجلا قال : «يارسول الله ، إنى نذرت أن أنحرَ إبلاً بِبُوَانَةَ ، فقال : أبِها وَثَنٌ من أوثان المشركين ، أو عيد من أعيادهم ؟ قالا : لا . قال : فأوف بنذرك[1] » وكقوله : « لا تجعلوا قبرى عيداً » .

والعيد : مأخوذ من المعاودة ، والاعتياد ، فإذا كان اسماً للمكان فهو المكان الذى يُقصد الاجتماع فيه وانْتِيابُه للعبادة ، أو لغيرها ، كما أن السجد الحرام ، ومنًى ، ومُزْدَلِفَةَ ، وعرفة ، والمشاعِرَ ، جعلها الله تعالى عيداً للحُنفاء ، ومثابة ، كما جعل أيام التعبد فيها عيداً .

وكان للمشركين أعياد زمانية ومكانية فلما جاء الله بالإسلام أبطلها ، وعوّض الحنفاء منها عيدَ الفِطْر ، وعيدَ النَّحر ، وأيام منًى ، كما عوّضهم عن أعياد المشركين المكانية بالكعبة البيت الحرام ، وعرفة ، ومنى ، والمشاعر .

---

(١) الرجل هو كردم بن سفيان الثقفى. ولفظ الحديث عند أبى داود: عن ميمونة بنت كردم قالت «خرجت مع أبى فى حجة رسول الله صلى الله عليه وسلم . فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسمعت الناس يقولون : رسول الله . فجعلت أبدّه بصرى . فدنا إليه أبى ، وهو على ناقة له ، معه درة كدرة الكتاب . فسمعت الأعراب والناس يقولون : الطبطبية الطبطبية . فدنا إليه أبى فأخذ بقدمه . قالت : فأقر له ووقف فاستمع منه . فقال : يارسول الله ، إنى نذرت إن ولد لى ولد ذكر أن أنحر على رأس بوانة فى عقبة من الثنايا عدة من الغنم ــ قال : لا أعلم إلا أنها قالت : خمسين ــ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل بها من الأوثان شىء ؟ قال : لا . قال : فأوف بما نذرت لله . قالت : فجمعها ، فجعل يذبحها . فانفلتت منه شاة ، فطلبها وهو يقول : اللهم أوف عنى نذرى . فظفرها فذبحها » قال فى عون المعبود (٣ : ٢٣٧) وأخرجه ابن ماجه فى الكفارات بمعناه ، وأخرجه الإمام أحمد فى المسند وابن أبى شيبة والبغوى . و « بوانة » هضبة من وراء ينبع . و « أبده بصرى » أى أمد بصرى إليه . و « الطبطبية » حكاية عن وقع الأقدام . فانها تحكى صوت طب طب .

فاتخاذ القبور عيداً هو من أعياد المشركين التى كانوا عليها قبل الإسلام ، وقد نهى عنه رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فى سَيِّدِ القبور ، منبهاً به على غيره .

قال أبو داود : حدثنا أحمد بن صالح قال : قرأت على عبد الله بن نافع أخبرنى ابن أبى ذِئب عن سعيد المَقْبُرى، عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم « لا تجعلوا بيوتكم قبوراً ، ولا تجعلوا قبرى عيدا ، وصلوا علىّ ، فإن صلاتكم تبلغنى حيث كنتم » صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ، وهذا إسناد حسن ، رواته كلهم ثقات مشاهير .

وقال أبو يَعْلَى الموصلى ، فى مسنده : حدثنا أبو بكر بن أبى شَيبة حدثنا زيد بن الحُباب حدثنا جعفر بن إبراهيم ـ من ولَد ذى الجناحين ـ حدثنا على بن عُمر عن أبيه عن على ابن الحسين « أنه رأى رجلا يجىء إلى فُرْجَة كانت عند قبر النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فيدخل فيها ، فيدعو . فنهاه ، وقال : ألا أحدِّثكم حديثاً سمعته من أبى عن جَدِّى عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ؟ قال : لاتتخذوا قبرى عيداً ، ولا بيوتكم قبوراً ، فإن تسليمكم يَبلُغنى أينَما كنتم » رواه أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد المقدسى فى مختاراته .

وقال سعيد بن منصور فى السنن : حدثنا حِبَّان بن على حدثنى محمد بن عجلان عن أبى سعيد مولى المُهْرى قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم « لاتتخذوا قَبرى[1] عيداً ، ولا بيوتكم قبوراً ، وصلوا علىّ ، حيثما كنتم ، فإن صلاتكم تبلغنى » .

وقال سعيد : حدثنا عبد العزيز بن محمد أخبرنى سهيل بن أبى سهيل قال « رآنى الحسن ابن الحسن بن على بن أبى طالب عند القبر ، فنادانى ، وهو فى بيت فاطمة يَتعشَّى ، فقال : هَلُمَّ إلى العشاء ، فقلت : لا أريده ، فقال : مالى رأيتك عند القبر ؟ فقلت : سلَّمت على النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ، فقال : إذا دخلت المسجد فسلم . ثم قال : إن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال : لا تتخذوا بيتى عيداً ، ولا تتخذوا بيوتكم مقابر ، لعن

(١) فى نسخة « بيتى » .

الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، وصلوا علىّ فإن صلاتكم تبلغنى حيثما كنتم. ما أنتم ومن بالأندلس إلا سواء » .

فهذان المرسلان من هذين الوجهين المختلفين يدلان على ثبوت الحديث ، لا سيا وقد احتج به من أرسله ، وذلك يقتضى ثبوته عنده ، هذا لو لم يكن روى من وجوه مسندة غير هذين ، فكيف وقد تقدَّم مسنداً ؟ .

قال شيخ الإسلام قدس الله روحه : ووجه الدلالة : أن قبرَ رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم أفضل قبر على وجه الأرض ، وقد نَهى عن اتخاذه عيداً ، فقبر غيره أولى بالنهى كائناً من كان ، ثم إنه قرن ذلك بقوله « ولا تتخذوا بيوتكم قبوراً » أى لاتعطلوها من الصلاة فيها ، والدعاء والقراءة ، فتكون بمنزلة القبور . فأمر بتحرّى النافلة فى البيوت ، ونهى عن تحرّى العبادة عند القبور ، وهذا ضدّ ما عليه المشركون من النصارى وأشباههم ، ثم إنه عقَّب النهى عن اتخاذه عيداً بقوله « وصلوا علىّ فإن صلاتكم تبلغنى حيث كنتم » يشير بذلك إلى أن ما ينالنى منكم من الصلاة والسلام يحصل مع قربكم من قبرى و بعدكم . فلا حاجة بكم إلى اتخاذه عيداً .

وقد حرّف هذه الأحاديث بعض من أخذ شبهاً من النصارى بالشرك ، وشَبهاً من اليهود بالتحريف ، فقال : هذا أمرٌ بملازمة قبره ، والعُكوف عنده ، واعتياد قصده وانتيابه ، ونهىٌ أن يُجعل كالعيد الذى إنما يكون فى العام مرة أو مرتين ، فكأنه قال : لا تجعلوه بمنزلة العيد الذى يكون من الحَوْل إلى الحول ، واقصدوه كل ساعة وكل وقت .

وهذا مراغمة ومحادّة لله ومناقضة لما قصده الرسول صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ، وقَلْبٌ للحقائق ، ونسبة الرسول صلى الله تعالى عليه وآله وسلم إلى التدليس والتلبيس ، بعد التناقض. فقاتل الله أهل الباطل أنّى يُؤفَكون . ولا ريب أن من أمَر الناس باعتياد أمر وملازمته ، وكثرة انتيابه بقوله : « لاتجعلوه عيدا » فهو إلى التلبيس وضدِّ البيان أقرب منه إلى الدلالة والبيان . فإن لم يكن هذا تنقيصاً فليس للتنقيص حقيقة فينا ، كمن يرمى أنصار الرسول صلى الله عليه وسلم وحزبه بدائهِ ومُصابهِ ويَنْسَلّ كأنه برىء ، ولا ريب أن ارتكاب كل كبيرة ، بعد الشرك ، أسهلُ إثماً ، وأخف عقوبة من تعاطى مثل ذلك فى دينه وسنته . وهكذا

غُيِّرتْ دياناتُ الرسل . ولولا أن الله أقام لدينه الأنصارَ والأعوان الذَّابِّين عنه ، لجرَى عليه ماجرى على الأديان قبله .

ولو أراد رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ماقاله هؤلاء الضُّلاّل لم يَنْهَ عن اتخاذ قبور الأنبياء مساجد ، ويلعنْ فاعلَ ذلك . فإنه إذا لَعن من اتخذها مساجد ، يُعبدُ اللهفيها ، فكيف يأمر بملازمتها والعكوف عندها ، وأن يُعتاد قصدُهاوانتيابها ، ولا تُجعل كالعيد الذى يجئ من الحَوْل إلى الحول ؟ وكيف يسألُ ربَّه أن لايجعلَ قبره وثناً يعبد ؟ وكيف يقول أعلم الخلق بذلك « ولولا ذلك لأُبرِز قبرُه ، ولكن خُشِي أن يُتَّخذ مسجداً » ؟ وكيف يقول : « لا تجعلوا قبرى عيداً ، وصلوا علىّ حيثما كنتم » ؟ وكيف لم يفهم أصحابه وأهلُ بيته من ذلك مافهمه هؤلاء الضُّلال ، الذين جمعوا بين الشرك والتحريف ؟

وهذا أفضلُ التابعين من أهل بيته علىُّ بن الحسين رضى الله عنهما نهى ذلك الرجلَ أن يتحرّى الدعاء عند قبره صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ، واستدل بالحديث . وهو الذى رواه وسمعه من أبيه الحسين عن جده علىٍّ رضى الله عنه ، وهو أعلم بمعناه من هؤلاء الضلال . وكذلك ابنُ عمه الحسن بن الحسن ، شيخُ أهل بيته ، كَرِه أن يقصد الرجل القبر إذا لم يكن يريد المسجد ، ورأى أن ذلك من اتخاذه عيدا .

قال شيخنا : فانظر هذه السنّة ، كيف مخرجُها من أهل المدينة وأهل البيت ، الذين لهم من رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قُربُ النسب ، وقرب الدار؟ لأنهم إلى ذلك أحوج من غيرهم ، فكانوا له أضبطَ .

فصل

ثم إن فى اتخاذ القبور أعياداً من المفاسد العظيمة التى لا يعلمها إلا الله تعالى ما يغضبُ لأجله كلُّ من فى قلبه وَقارٌ لله تعالى ، وغَيْرة على التوحيد ، وتَهجين وتقبيح للشرك .

* ولكن ما لِجُرْحٍ بميتٍ إيلامُ *

فمن مفاسد اتخاذها أعياداً : الصلاة إليها ، والطواف بها ، وتقبيلها واستلامها ، وتَعفير الخدود على تُرابها ، وعبادة أصحابها ، والاستغاثة بهم ، وسؤالهم النصرَ والرزق والعافية ، وقضاءَ الديون ، وتفريج الكربات ، و إغاثة اللهفات ، وغير ذلك من أنواع الطلبات ، التى كان عُبَّاد الأوثان يسألونها أوثانهم .

فلو رأيتَ غُلاة المتخذين لها عيداً ، وقد نزلوا عن الأكْوار والدواب إذا رأوها من مكان بعيد ، فوضعوا لها الجباه ، وقبَّلوا الأرض وكشفوا الرءوس ، وارتفعت أصواتهم بالضجيج ، وتباكوا حتى تسمع لهم النَّشيج ، ورأوا أنهم قد أرْبَوا فى الرِّبح على الحجيج ، فاستغاثوا بمن لا يُبدِى ولا يُعيد ، ونادَوا ولكن من مكان بعيد ، حتى إذا دنوا منها صلوا عند القبر ركعتين ، ورأوا أنهم قد أحرزوا من الأجر ولا أجرَ من صلى إلى القبلتين ، فتراهم حول القبر رُكَّعا سُجَّدا يَبتغون فضلاً من الميت ورضواناً ، وقد مَلئوا أكفهم خَيبة وخسراناً ، فلغير الله ، بل للشيطان مايُراقُ هناك من العَبَرات ، ويرتفع من الأصوات ، ويُطلب من الميت من الحاجات ويُسأل من تفريج الكرُبات ، و إغناء ذوى الفاقات ، ومعافاة أُولى العاهات والبليات ، ثم أنثنَوا بعد ذلك حولَ القبر طائفين ، تشبيهاً له بالبيت الحرام ، الذى جعله الله مباركا وهُدًى للعالمين ، ثم أخذوا فى التقبيل والاستلام ، أرأيتَ الحجَرَ الأسود وما يَفعل به وَفْدُ البيت الحرام ثم عَفَّروا لَدَيْه تلك الجباه والخدود ، التى يعلم الله أنها لم تُعفَّر كذلك بين يديه فى السجود . ثم كَمَّلوا مناسك حج القبر بالتقصير هناك والحِلاق ، واستمتعوا بخَلاقهم من ذلك الوثن إذ لم يكن لهم عند الله من خَلاق ، وقرَّبوا لذلك الوثَن القرابين . وكانت صلاتُهم ونُسُكهم وقُربانهم لغير الله رب العالمين ، فلو رأيتهم يُهَنِّئُ بعضهم بعضاً ويقول : أجزل الله لنا ولكم أجراً وافراً وحَظًّا ، فإذا رجعوا سألهم غلاة المتخلفين أن يبيعَ أحدُهم ثواب حجة القبر بحج المتخلف إلى البيت الحرام ، فيقول : لا ، ولو بحجك كل عام .

هذا ولم نتجاوز فيما حكيناه عنهم ، ولا استقصينا جميع بِدَعهم وضلالهم : إذ هى فوق مايخطر بالبال ، أو يدور فى الخيال . وهذا كان مبدأ عبادة الأصنام فى قوم نوح ، كما تقدم .

وكلُّ من شَمَّ أدنى رائحة من العلم والفقه يعلم أن من أهَمِّ الأمور سَدُّ الذريعة إلى هذا المحذور ،

وأن صاحب الشرع أعلم بعاقبة مانهى عنه لما يؤول إليه ، وأحكم فى نَهْيه عنه وتوعده عليه. وأن الخير والهدَى فى اتباعه وطاعته ، والشرّ والضلال فى معصيته ومخالفته .

ورأيتُ لأبى الوفاء بن عَقيل فى ذلك فصلا حسنا ، فذكرته بلفظه ، قال :

لما صعُبت التكاليف على الجهّال والطَّغام ، عدلوا عن أوضاع الشرع إلى تعظيم أوضاعٍ وضعوها لأنفسهم ، فسهلت عليهم، إذلم يدخلوا بهاتحت أمر غيرهم . قال : وهم عندى كفار بهذه الأوضاع مثل تعظيم القبور و إكرامها بما نهى عنه الشرع :من إيقادالنيران.وتقبيلها وتخليقها[1] .وخطاب الموتى بالحوائج ، وكَتْبِ الرِّقاع فيها:يامولاى افعل بى كذاوكذا . وأخذ تربتها تَبَرُّكا ، و إفاضة الطيب على القبور . وشدِّ الرّحال إليها ، و إلقاء الخِرَق على الشجر ، اقتداء بمن عبدَ اللاّت والعزّى ، والويلُ عندهم لمن لم يقبل مَشْهَد الكفّ ، ولم يتمسّح بآجُرّة مسجد الملموسة يوم الأربعاء . ولم يقل الحالون على جنازته : الصديق أبو بكر ، أو محمد وعلى ، أو لم يعقد على قبر أبيه أزْجًا بالجِصّ والآجرّ ، ولم يُخرّق ثيابه إلى الذيل ، ولم يُرق ماء الورد على القبر . انتهى .

ومن جمع بين سُنة رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فى القبور ، وما أمر به ونهى عنه وما كان عليه أصحابه ، و بين ما عليه أكثر الناس اليوم رأى أحدهما مضاداً للآخر ، مناقضاً له ، بحيث لا يجتمعان أبداً .

فنهى رسولُ الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم عن الصلاة إلى القبور ، وهؤلاء يصلون عندها .

ونهى عن اتخاذها مساجد، وهؤلاء يبنون عليها المساجد ، و يسمونها مَشاهد ، مضاهاةً لبيوت الله تعالى .

ونهى عن إيقاد السرُج عليها ، وهؤلاء يوقفون الوقوف على إيقاد القناديل عليها .

ونهى أن تتخذ عيداً، وهؤلاء يتخذونها أعيادا ومناسك ، ويجتمعون لها كاجتماعهم للعيد أو أكثر .

وأمر بتسويتها ، كما روى مسلم فى صحيحه عن أبى الهَيَّاج الأسَدِىّ قال : قال علىّ

(١) التخليق ، دهنها بالخلوق ـ بفتح الخاء ـ وهو الطيب .

ابن أبى طالب رضى الله عنه « ألا أبعثُك على مابعثنى عليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم أن لا تدَعَ تمثالا إلا طَمَسْته ، ولا قبرا مُشْرِفا إلا سَوَّيْتَه » ، وفى صحيحه أيضاً عن ثُمامة بن شُفَيّ قال : « كُنَّا مع فَضالة بن عُبيد بأرض الروم برُودِس فتوفِّى صاحب لنا ، فأمر فَضالة بقبره فسُوِّى ، ثم قال : سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يأمر بتسويتها » ، وهٰؤلاء يبالغون فى مخالفة هٰذين الحديثين . ويرفعونها عن الأرض كالبيت ، ويعقدون عليها القِباب .

ونهى عن تَجْصيص القبر والبناء عليه ، كما روى مسلم فى صحيحه عن جابر قال « نهى رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم عن تجصيص القبر ، وأن يُقعد عليه ، وأن يُبنى عليه بناء » .

ونهى عن الكتابة عليها ، كما روى أبو داود والترمذيُّ فى سُنتهما عن جابر رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم « نهى أن تجصص القبور ، وأن يكتب عليها» قال الترمذى : حديث حسن صحيح ، وهٰؤلاء يتخذون عليها الألواح ، ويكتبون عليها القرآن وغيره .

ونهى أن يُزاد عليها غير ترابها ، كما روى أبو داود من حديث جابر أيضاً أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم « نهى أن يُجَصَّصَ القبر ، أو يكتب عليه ، أو يزاد عليه » وهٰؤلاء يزيدون عليه سوى التراب الآجُرَّ والأحجار والجِصَّ .

ونهى عمر بن عبد العزيز أن يُبنَى القبر بآجر ، وأوصى أن لا يُفعل ذلك بقبره .

وأوصى الأسود بن يزيد « أن لاتجعلوا على قبرى آجرا » .

وقال إبراهيم النخعى « كانوا يكرهون الآجرَّ على قبورهم » .

وأوصى أبو هريرة حين حضرته الوفاةُ : أن « لاتضرِبوا علىّ فُسْطاطا » .

وكره الإمام أحمد أن يُضربَ على القبر فسطاط .

والمقصود : أن هؤلاء المعظِّمين للقبور ، المتخذينها أعيادا ، الموقدين عليها السرُج، الذين يبنون عليها المساجد والقباب . مناقضون لما أمر به رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ،

محادّون لما جاء به . وأعظمُ ذلك اتخاذُها مساجد ، و إيقاد السرج عليها . وهو من الكبائر. وقد صرّح الفقهاء من أصحاب أحمد وغيرهم بتحريمه

قال أبو محمد المقدسى : ولو أبيح اتخاذ السرج عليها لم يَلْعَنِ النبيُّ صلى الله تعالى عليه مَنْ فعله . ولأنَّ فيه تضييعا للمال فى غير فائدة ، و إفراطا فى تعظيم القبور ، أشبه تعظيم الأصنام . قال : ولا يجوز اتخاذ المساجد على القبور لهذا الخبر . ولأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال « لعن الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ، يُحذِّر ماصنعوا » متفق عليه . وقالت عائشة « إنما لم يبرز قبرُ رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم لئلا يتخذ مسجدا » لأن تخصيص القبور بالصلاة عندها يشبه تعظيم الأصنام بالسجود لها والتقرب إليها . وقد روينا أن ابتداء عبادة الأصنام تعظيم الأموات باتخاذ صورهم ، والتمسح بها ،والصلاة عندها . إنتهى.

وقد آل الأمر بهؤلاء الضلال المشركين إلى أن شرعوا للقبور حَجًّا ، ووضعوا له مناسك، حتى صنّف بعضُ غُلاتهم فى ذلك كتابا وسماه « مناسك حج المشاهد » مضاهاة منه بالقبور للبيت الحرام . ولايخفى أن هذا مفارقة لدين الاسلام ، ودخول فى دين عُبَّاد الأصنام .

فانظر إلى هذا التباين العظيم بين ماشرعه رسول اللهصلى الله تعالى عليه وسلموقَصدَه : من النهى عما تقدم ذكره فى القبور ، و بين ماشرعه هؤلاء وقصدوه . ولاريب أن فى ذلك من المفاسد مايعجز العبد عن حَصْرِه .

فمنها: تعظيمها الموقِع فى الافتتانبها .ومنها : اتخاذها عيدا . ومنها: السفرإليها.ومنها:مشابهة عبادة الأصنام بما يفعلعندها : من العكوف عليها ، والمجاورة عندها . وتعليق الستور عليها وسُداتها ، وعُبَّادُها يُرَجِّحون المجاورة عندها على المجاورة عند المسجد الحرام ، ويرون سِدانتها أفضلَ من خدمة المساجد ، والويل عندهم لقَيِّمها ليلة يطفىء القنديل المعلقعليها . ومنها : النذر لها ولسدنتها . ومنها : اعتقاد المشركين بها أن بها يكشف البلاء ، وينصر على الاعداء . ويستنزل غيث السماء . وتفرج الكروب ، وتقضى الحوائج .وينصر المظلوم. ويجار الخائف . إلى غير ذلك . ومنها : الدخول فى لعنة الله تعالى ورسوله باتخاذ المساجد عليها، وايقاد السرج عليها . ومنها : الشرك الأكبرالذى يُفعل عندها . ومنها: إيذاء أصحابها بما يفعله المشركون بقبورهم ، فإنهم يؤذيهم مايُفعل عند قبورهم . ويكرهونه غاية الكراهة . كما أن المسيح يكره

ما يفعله النصارى عند قبره . وكذلك غيره من الأنبياء والأولياء والمشايخ يؤذيهم مايفعله أشباه النصارى عند قبورهم . ويوم القيامة يتبرءون منهم . كما قال تعالى : (« ٢٥ : ١٧ ـ ١٩ » وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ؟ قالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا) قال الله للمشركين : (فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا) ٱلآية ، وقال تعالى : (« ٥ : ١١٦ » وَإِذْ قَالَ ٱللهُ يَاعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِنْ دُونِ ٱللهِ ؟ قال سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَالَيْسَ لِي بِحَقٍّ) الآية ، وقال تعالى : (« ٣٤ : ٤٠ ، ٤١ » وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ؟ قَالُوا سُبْحَانَكَ ، أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ ، بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ) .

ومنها : مشابهة اليهود والنصارى فى اتخاذ المساجد والسرج عليها ومنها: محادَّة الله ورسوله ومناقضة ماشرعه فيها . ومنها: التعب العظيم مع الوِزْر الكثير ، والإثم العظيم . ومنها : إماتة السنن وإحياء البدع .

ومنها : تفضيلها على خير البقاع وأحبها إلى الله . فان عُبَّاد القبور يعطونها من التعظيم والاحترام والخشوع ورقة القلب والعكوف بالهمَّة على الموتى مالا يفعلونه فى المساجد . ولايحصل لهم فيها نظيره ولاقريب منه . ومنها: أن ذلك يتضمن عمارة المشاهد وخراب المساجد . ودينُ الله الذى بعث به رسوله بضد ذلك . ولهذا لما كانت الرافضة من أبعد الناس عن العلم والدين ، عمروا المشاهد ، وأخربوا المساجد .

ومنها: أن الذى شرعه الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم عند زيارة القبور : إنما هوتذَكُّرُ الآخرةِ ، والإحسانُ إلى المزور بالدعاء له ، والترحُّم عليه ، والاستغفار له ، وسؤال العافية له. فيكون الزائرُ محسنا إلى نفسه وإلى الميت ، فقلَبَ هؤلاء المشركون الأمر ، وعكسوا الدين وجعلوا المقصود بالزيارة الشركَ بالميت ، ودعاءه والدعاء به ، وسؤاله حوائجهم ، واستنزال البركات منه ، ونصره لهم على الأعداء . ونحو ذلك . فصاروا مسيئين إلى نفوسهم وإلى الميت

ولو لم يكن إلا بحرمانه بَرَكَةَ ماشرعه الله تعالى من الدعاء له والترحم عليه والاستغفار له .

فاسمع الآن زيارة أهل الإيمان التى شرعها الله تعالى على لسان رسوله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ، ثم وازِنْ بينها و بين زيارة أهل الإشراك ، التى شرعها لهم الشيطان ، وأُختَرْ لنفسك .

قالت عائشة رضى الله عنها : « كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم كُلَّما كان ليلتُها منه يخرج من آخر الليل إلى البَقِيع ، فيقول : السلام عليكم دارَ قوم مؤمنين ، وأتاكم ما تُوعدون غدا مؤجلون ، و إنَّا إن شاء الله بكم لاحقون . اللهم اغفر لأهل بَقيع الغَرْقد[١] » رواه مسلم .

وفى صحيحه عنها أيضاً : « أن جبريل أتاه ، فقال : إن ربَّك يأمرك أن تأتى أهل البقيع ، فتستغفرَ لهم . قالت قلت : كيف أقول لهم يا رسول الله ؟ قال : قولى : السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين ، و يرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين ، و إنا إن شاء الله بكم للاحقون[٢] » .

وفى صحيحه أيضاً عن سليمان بن بُريدةَ عن أبيه قال : « كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يعلمهم إذا خرجوا إلى المقابر أن يقولوا : السلام على أهل الديار — وفى لفظ[٣] السلام عليكم أهلَ الديار من المؤمنين والمسلمين ، و إنَّا إن شاء الله بكم لاحقون . نسأل الله لنا ولكم العافية » .

وعن بُريدة قال : قال رسولُ الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم « كنتُ نهيتكم عن زيارة القبور ، فمن أراد أن يزور فليَزُرْ ، ولا تقولوا هُجْراً » رواه أحمد والنسائى[٤]

---

(١) فى صحيح مسلم فى باب مايقال عند دخول القبور قال النووى : « دار » منصوب على النداء . أى يا أهل دار . فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه . وقيل : منصوب على الاختصاص . قال صاحب المطالع : ويجوز جره على البدل من الضمير فى « عليكم » والبقيع : مدفن أهل المدينة سمى بقيع الفرقد ، لغرقد كان فيه . والفرقد : ماعظم من العوسج .

(٢) فى حديث طويل هذا آخره . انظره (ج ٧ ص ٤٣ ، ٤٤)

(٣) هى رواية زهير بن حرب ، كما فى مسلم .

(٤) ورواه مسلم فى حديث زيارة النبي (ص) قبر أمه واستئذانه ربه أن يستغفر لها فلم يأذن له فاستأذنه أن يزور قبرها فأذن له . وفى آخره ، « فزوروا القبور فانها تذكر الموت » قال النووى : وربما كتب فى الحاشية : رواه أبو داود فى سننه عن محمد بن سليمان الانبارى عن محمد بن عبيد بهذا الاسناد : ورواه النسائى عن قتيبة عن محمد بن عبيد . ورواه ابن ماجه عن أبى بكر بن أبى شيبة عن محمد بن عبيد ، وهؤلاء كلهم ثقات . فهو حديث صحيح بلا شك .

وكان رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قد نهى الرجال عن زيارة القبور ، سدًّا للذريعة ، فلما تمكّن التوحيدُ فى قلوبهم أذن لهم فى زيارتها على الوجه الذى شرعه ، ونهاهم أن يقولوا هُجْراً ، فمن زارها على غير الوجه المشروع الذى يحبه الله ورسوله فإن زيارته غير مأذون فيها ، ومن أعظم الهجر: الشرك عندها قولا وفعلا .

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم « زوروا القبور ، فإنها تُذكِّر الموت » .

وعن على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه : أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال « إنى كنتُ نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فانها تذكركم الآخرة » رواه الإمام أحمد.

وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال :« مَرَّ رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم بقبور المدينة ، فأقبلَ عليهم بوجْهه ، فقال: السلام عليكم يا أهل القبور ، يغفر الله لنا ولكم ، ونحن بالأثَر » رواه أحمد، والترمذى وحَسَّنه .

وعن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال « كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروا القبور ، فإنها تُزَهِّد فى الدنيا ، وتُذكِّرُ الآخرة » رواه ابن ماجَهْ .

وروى الإمام أحمد عن أبى سعيد رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم « كنت نهيتكم عن زيارة القبور ، فزوروها فإن فيها عِبْرة » .

فهذه الزيارة التى شرعها رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم لأمته، وعلَّمهم إياها ، هل تجد فيها شيئاً مما يعتمده أهل الشرك والبدع ؟ أم تجدها مُضادّة لما هم عليه من كل وجه ؟ .

وما أحسنَ ما قال مالكُ بن أنس رحمه الله « لن يصلِح آخرَ هذه الأمة إلا ما أصلح أوَّلها » ولكن كلما ضعف تمسك الأمم بعهود أنبيائهم ، ونَقَصَ إيمانهم ، عُوِّضوا عن ذلك بما أحدثوه من البدع والشرك .

ولقد جرَّد السلف الصالح التوحيد ، وحَمَوْا جانبه ، حتى كان أحدُهم إذا سلَّم على

النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ، ثم أراد الدعاء ، استقبل القبلة ، وجعل ظهره إلى جِدار القبر ، ثم دعا .

فقال سَلَمة بن وَرْدان « رأيتُ أنس بن مالك رضى الله عنه يُسَلِّم على النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ، ثم يُسْنِد ظَهْره إلى جِدار القبر ، ثم يدعو » .

ونص على ذلك الأئمةُ الأربعةُ : أنه يستقبل القِبْلة وقت الدعاء ، حتى لا يدعو عند القبر ، فإن الدعاء عبادة .

وفى الترمذى وغيره مرفوعا « الدعاء هو العبادة »

فجرد السلف العبادة لله ، ولم يفعلوا عند القبور منها إلا ما أذن فيه رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم : من السلام على أصحابها والاستغفار لهم ، والترحُّم عليهم .

وبالجملة . فالميت قد انقطع عمله ، فهو محتاج إلى من يدعو له ويشفع له . ولهذا شُرع فى الصلاة عليه من الدعاء له ، وجوبا واستحبابا ، مالم يشرع مثله فى الدعاء للحىّ .

قال عوف بن مالك « صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم على جَنازة ، فحفظتُ من دعائه وهو يقول : اللهم اغفر له وارحمه ، وعافِه واعفُ عنه ، وأكرم نُزُله ، ووَسِّع مَدْخَله ، واغسله بالماء والثلج والبَرَد ، ونَقِّه من الخطايا كما نقَّيت الثوب الأبيض من الدَّنَس ، وأبْدِلْه داراً خيراً من داره ، وأهلا خيراً من أهله ، وزوجاً خيراً من زوجه . وأدخله الجنة ، وأعِذْه من عذاب القبر ـ أومن عذاب النار ـ حتى تمنَّيتُ أنْ أكون أنا الميت ، لدعاء رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم على ذلك الميت » رواه مسلم .

وقال أبو هريرة رضى الله تعالى عنه : سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول فى صلاته على الجنازة « اللهم أنت ربُّها. وأنت خلقتها ، وأنت هديتها للاسلام ، وأنت قبضت روحها ، وأنت أعلم بسِرِّها وعلانيتها ، جئنا شُفعاء فاغفر له » رواه الامام أحمد .

وفى سنن أبى داود عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال « إذا صليتم على الميت فأخلِصوا له الدعاء » .

وقالت عائشة، وأنس عن النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم «مامن ميت يصلِّى عليه أُمّة من المسلمين يَبْلُغون مائةً كلُهم يشفعون له، إلا شُفِّعوا فيه » رواه مسلم .

وعن ابن عباس رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول « مامِنْ رجل مسلم يموت فيقوم على جَنازته أربعون رجلا ، لايُشركون بالله شيئا ، إلا شَفَّعهم الله فيه » رواه مسلم .

فهذا مقصود الصلاة على الميت ، وهو الدعاء له والاستغفار ، والشفاعة فيه .

ومعلوم أنه فى قبره أشدُّ حاجة منه على نعشه . فانه حينئذ مُعرّض للسؤال وغيره .

وقد كان النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يقف على القبر بعد الدفن فيقول « سلوا له التَّثبيتَ ، فانه الآن يُسأل[1] » .

فعلم أنه أحوج إلى الدعاء له بعد الدفن ، فإذا كنا على جنازته ندعو له ، لا ندعو به ، ونشفع له ، لانشفع به . فبعد الدفن أولى وأحْرَى .

فبدَّل أهل البدع والشرك قولاً غــير الذى قيل لهم : بدلوا الدعاء له بدعائه نفسه ، والشفاعة له بالاستشفاع به. وقصدوا بالزيارة التى شرعها رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم إحسانا إلى الميت و إحسانا إلى الزائر ، وتذكيرا بالآخرة : سؤال الميت ، والإقسامَ به على الله ، وتخصيص تلك البقعة بالدعاء الذى هو مُخُّ العبادة ، وحضور القلب عندها ، وخشوعه أعظم منه فى المساجد ، وأوقات الأسحار .

ومن المحال أن يكون دعاء الموتى ، أوالدعاء بهم ، أوالدعاء عندهم ، مشروعا وعملا صالحا ، ويُصرفَ عنه القرونُ الثلاثة المفضَّلة بنصٍّ رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ، ثم يُرْزَقُه الخلوف الذين يقولون ما لايفعلون ، ويفعلون مالايؤمرون .

فهذه سُنَّة رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فى أهل القبور بِضْعاً وعشرين سَنَة ، حتى توفاه الله تعالى ، وهذه سُنَّة خلفائه الراشدين ، وهذه طريقة جميع الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، هل يمكن بَشَر على وجه الأرض أن يأتىَ عن أحد منهم بنقل صحيح ، أو حسن أو ضعيف ، أو منقطع : أنهم كانوا إذا كان لهم حاجة قصدوا القبور فدعوا عندها ، وتمسّحوا بها ، فضلا أن يُصلُّوا عندها ، أو يسألوا الله بأصحابها ، أو يسألوهم حوائجهم. فَلْيُوقِفونا على أثر واحد ، أو حرف واحد فى ذلك ، بلى،يمكنهم أن يأتوا عن الخُلوف التى خلفت بعدهم بكثير من ذلك ، وكلما تأخر الزمان وطال العهد ، كان ذلك أكثر ، حتى لقد وُجد فى ذلك عِدَّة

(١) رواه أبو داود والحاكم ــ وصححه ــ عن عثمان بن عفان .

مُصنفات ليس فيها عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ، ولا عن خلفائه الراشدين ، ولا عن أصحابه حرف واحد من ذلك ، بَلَى ، فيها من خلاف ذلك كثير . كما قدمناه من الأحاديث المرفوعة .

وأما آثار الصحابة فأكثر من أن يُحاط بها . وقد ذكرنا إنكار عمر رضى الله عنه على أنس رضى الله عنه صلاته عند القبر . وقوله له « القبرَ القبرَ » .

وقد ذكر محمد بن اسحاق فى مغازيه من زيادات يونس بن بُكير عن أبى خلَدة خالد بن دينار قال : حدثنا أبو العالية قال « لما فتحنا تُسْتَر وجدنا فى بيتِ مالِ الهُرْمُزان سريراً عليه رجل ميت ، عند رأسه مصحف له ، فأخذنا المصحف ، فحملناه إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فدعا له كَعْبا ، فنسخه بالعربية . فأنا أولُ رجل من العرب قرأه، قرأته مثل ماأقرأ القرآن . فقلت لأبى العالية : ما كان فيه ؟ قال سيرتُكم وأموركم ولحُون كلامكم ، وماهو كائن بعدُ . قلت : فما صنعتم بالرجل ؟ قال : حفَرنا بالنهار ثلاثة عشر قبرا متفرقة ، فلما كان الليلُ دفنّاه وسَوّينا القبور كلها ، لنعَمِّيه على الناس لا يَنْبُشونه ، فقلت : ومايرجون منه ؟ قال : كانت السماء إذا حُبست عنهم أبرزوا السرير فيُمْطرون . فقلت : من كنتم تظنون الرجل ؟ قال : رجل يقال له : دانيال ، فقلت: مُذْ كَمْ وجدتموه مات؟ قال : مذثلاثمائة سنة ، قلت : ما كان تغير منه شيء ؟ قال : لا إلا شُعيرات من قَفاه ، إن لحوم الأنبياء لا تُبليها الأرض ، ولا تأكلها السباع [1] » ففى هذه القصة مافعله المهاجرون والأنصار من تعمية قبره

(١) قال أبو عبيد القاسم بن سلام فى كتاب الأموال (ص ٣٤٣ رقم ٨٧٦) عن قتادة « لما فتحت السوس ــ وعليهم أبو موسى الأشعرى ــ وجدوا دانيال فى إبرن . وإذا إلى جنبه مال موضوع وكتاب فيه : من شاء أتى فاستقرض منه إلى أجل ، فإن أتى به إلى ذلك الأجل وإلابرص . قال : فالتزمه أبو موسى وقبله . وقال : داينال ، ورب الكعبة . ثم كتب فى شأنه إلى عمر : فكتب إليه عمر : أن كفنه وحنطه وصل عليه ، ثم ادفنه كما دفنت الانبياء . صلوات الله عليهم . وانظر ماله ، فاجعله فى بيت مال المسلمين . قال : فكفنه فى قباطى بيض وصلى عليه ودفنه » وفى تاريخ الطبرى (ج ٤ ص ٢٢٠) فى حوادث السنة السابعة عشرة قصة جسد دانيال على غير هذا النحو ، وانظرها أيضا فى فتوح البلدان للبلاذرى (ص ٣٧١) فى فتح كور الأهواز . وفيه « ورأى أبو موسى فى قلعتهم بيتاً وعليه ستر . فسأل عنه . فقيل : إن فيه جثة دانيال النبى ، فانهم كانوا أقحطوا فسألوا أهل بابل دفعه إليهم ليستسقوا به . ففعلوا . وكان بختنصرسبي دانيال وأتى به بابل ، فقبض بها . فسكرأبوموسى نهراحتى إذا انقطع الماء دفنه . ثم أجرى الماء عليه

لئلا يفتتن به الناس ، ولم يبرزوه للدعاء عنده والتبرك به ، ولو ظفر به المستأخرون لجالدوا عليه بالسيوف ، ولعبدوه من دون الله ، فهم قد اتخذوا من القبور أوثاناً مَنْ لا يُدانِى هذا ولا يقاربه وأقاموا لها سَدَنة ، وجعلوها معابد أعظم من المساجد

فلو كان الدعاء عند القبور والصلاة عندها والتبرك بها فضيلةً أو سنة أو مباحا ، لنصب المهاجرون والأنصارهذا القبر عَلَما لذلك ، ودعوا عنده ، وسَنُّوا ذلك لمن بعدهم ، ولـكن كانوا أعلم بالله ورسوله ودينه من الخُلوف التى خلفت بعدهم ، وكذلك التابعون لهم باحسان راحوا على هذا السبيل ، وقد كان عندهم من قبور أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم بالأمصار عدد كثير ، وهم متوافرون . فما منهم من استغاث عند قبر صاحب ، ولادعاه ، ولا دعا به ، ولا دعا عنده ، ولا استشفى به ، ولا استسقى به ، ولا استنصر به ، ومن المعلوم أن مثل هذا مما تتوفَّر الهِمَم والدَّواعى على نقله ، بل على نقل ماهو دونه .

وحينئذ ، فلا يخلو ، إما أن يكون الدعاء عندها والدعاء بأربابها أفضل منه فى غير تلك البقعة،أولا يكون ، فإن كان أفضل ، فـكيف خفى علماً وعملا على الصحابة والتابعين وتابعيهم ؟ فتكون القرون الثلاثة الفاضلة جاهلةً بهذا الفضل العظيم . وتظفر به الخُلوف علماً وعملا ؟ ولا يجوز أن يعلموه ويزهدوا فيه ، مع حرصهم على كل خير ، لاسيما الدعاء ، فإن المضطر يتشبَّثُ بكل سبب ، وإن كان فيه كراهةً مَّا ، فـكيف يكونون مضطرين فى كثير من الدعاء ، وهم يعلمون فضل الدعاء عند القبور ، ثم لايقصدونه ؟ هذا محال طبعاً وشرعا .

فتعيَّن القسم الآخر . وهو أنه لافضل للدعاء عندها ، ولا هو مشروع ، ولا مأذون فيه بقصد الخصوص ، بل تخصيصها بالدعاء عندها ذَريعة إلى ما تقدم من المفاسد . ومثل هذا مما لايشرعه الله ورسوله ألبتة ، بل استحبابُ الدعاء عندها شرعُ عبادة لم يشرعها الله . ولم يُنزل بها سلطانا .

وقد أنكر الصحابة ماهو دون هذا بكثير .

فروى غيرواحد عن المَعْرُور بن سُوَيد قال «صليتُ مع عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى طريق مكة صلاة الصبح ، فقرأ فيها : (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ) و(لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ) ثم رأى الناسَ يذهبون مذاهب ، فقال : أين يذهب هؤلاء ؟ فقيل : يا أمير المؤمنين ، مسجدٌ صلى فيه النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ، فهم يصلُّون فيه ، فقال:

إنما هَلَكَ مَنْ كان قبلكم بمثل هذا . كانوا يتّبعون آثار أنبيائهم ، ويتخذونها كنائس وبيعاً . فمن أدركته الصلاة منكم فى هذه المساجد فليُصَلِّ ، ومَنْ لا فَلْيَمْضِ ، وَلا يَتعَمَّدْها»

وكذلك أرسل عمر رضى الله تعالى عنه أيضاً فقطَع الشجرة التى بايع تحتها أصحابُ رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ،

بل قد أنكر رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم على الصحابة لَمَّا سألوه أن يجعل لهم شَجَرة يُعَلِّقون عليها أسلحتهم ومتاعَهم بخصوصها .

فروى البخارى فى صحيحه عن أبى واقِد اللَّيثى قال «خرجنا مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قِبَلَ حُنَين ، ونحن حَديثُو عَهْدٍ بكفر ، وللمشركين سِدْرَةٌ ، يَعْكُفون حولها وينُوطون بها أسلحتهم ، يقال لها : ذاتُ أنواطٍ . فمررنا بسِدْرةٍ ، فقلنا : يارسول الله ، اجعل لنا ذاتَ أنواطٍ ، كما لهم ذاتُ أنواط ، فقال النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم : الله أكبر ، هذا كما قالت بنو إسرائيل : (« ٧ : ١٣٨ » اجْعَلْ لَنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ. قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ) لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ من كان قبلكم » .

فإذا كان اتخاذ هذه الشجرة لتعليق الأسلحة والعكوف حولها اتخاذ إله مع الله تعالى ، مع أنهم لا يعبدونها ، ولا يسألونها . فما الظن بالعكوف حول القبر ، والدعاء به ودعائه ، والدعاء عنده ؟ فأىُّ نِسْبَةٍ للفتنة بشجرة إلى الفتنة بالقبر ؟ لو كان أهل الشرك والبدعة يعلمون .

قال بعض أهل العلم من أصحاب مالك[1] : فانظروا رحمكم الله أينَما وجدتم سِدْرة أو شجرة يقصدها الناس ، ويعظمونها ، ويَرْجُون البُرْء والشفاء من قِبَلها ، ويَضْرِبُون بها المسامير والخِرَق ، فهى ذات أنواط ، فاقطعوها .

ومن له خِبرة بما بعث الله تعالى به رسوله ، وبما عليه أهل الشرك والبدع اليوم فى هذا الباب وغيره ، علم أن بين السلف وبين هؤلاء الخُلوف من البُعْدِ أبعد مما بين المشرق والمغرب وأنهم على شىء والسلف على شىء ، كما قيل :

سارتْ مُشَرِّقة وسِرْتَ مُغَرِّبا شتّان بين مشرق ومغرب

والأمر والله أعظم مما ذكرنا .

(١) هو أبو بكر محمد بن الوليد الطرطوشى رحمه الله . كما سيأتى فى صفحة (٢١١)

وقد ذكر البخارى فى الصحيح عن أمِّ الدَّرداء رضى الله عنها قالت « دخل علىَّ أبو الدرداء مُغضَباً ، فقلت له : مالَكَ ؟ فقال : والله ما أعرف فيهم شيئاً من أمر محمد صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ، إلا أنهم يصلون جميعاً » .

وروى مالك فى الموطأ عن عمه أبى سُهيل بن مالك عن أبيه أنه قال « ما أعرف شيئاً مما أدركتُ عليه الناس إلا النداء بالصلاة » يعنى الصحابة رضى الله عنهم .

وقال الزُّهْرِىُّ «دخلت على أنس بن مالك بدمشقَ ، وهو يبكى . فقلت له : مايُبكيك ؟ فقال : ماأعرف شيئا مما أدركتُ إلاهذه الصلاة . وهذه الصلاة قد ضُيِّعت » ذكره البخارى

وفى لفظ آخر « ما كنت أعرف شيئا على عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم إلا قد أنكرته اليوم » .

وقال الحسن البصرى « سأل رجل أبا الدرداء رضى الله عنه فقال : رحمك الله ، لو أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم بين أظهرنا ، هل كان ينكر شيئاً مما نحن عليه ؟ فغضب ، واشتد غضبه ، وقال : وهل كان يعرف شيئا مما أنتم عليه ؟ » .

وقال المبارك بن فَضالة : « صلَّى الحسنُ الجمعة وجلس ، فبكى ، فقيل له : ما يبكيك ، يا أبا سعيد ؟ فقال : تلومونى على البكاء ، ولو أن رجلا من المهاجرين اطَّلع من باب مسجدكم ماعرف شيئاً مما كان عليه على عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم أنتم اليوم عليه إلا قِبْلَتكم هذه » .

وهذه هى الفتنة العظمى التى قال فيها عبد الله بن مسعود رضى الله عنه « كيف أنتم إذا لَبِستكم فتنة يَهْرَم فيها الكبير ، وينشأ فيها الصغير ، تجرى على الناس ، يتخذونها سُنة إذا غُيِّرت قيل : غُيِّرت السنة ، أو هذا منكر » .

وهذا مما يدل على أن العمل إذا جرى على خلاف السنة فلا عبرة به ، ولا التفات إليه .

فان العمل قد جرى على خلاف السنة منذ زمن أبى الدرداء وأنس ، كما تقدم .

وذكر أبو العباس أحمد بن يحيى قال : حدثنى محمد بن عُبيد بن ميمون ، حدثنى عبد الله

ابن إسحٰق الجعفري قال « كان عبد الله بن الحسن يكثر الجلوس إلى ربيعة ، قال : فتذاكروا يوما السُّنن ، فقال رجل كان في المجلس : ليس العمل على هذا ، فقال عبد الله : أرأيتَ إن كثر الجهّال ، حتى يكونوا هم الحكّام ، فهم الحجة على السنة ؟ فقال ربيعة : أشهد أن هذا كلام أبناء الأنبياء » .

فصــــل

ومن أعظم مكايده : مانصبهُ للناس من الأنصاب والأزلام ، التي هي مِنْ عمله ، وقد أمر الله تعالى باجتناب ذلك ، وعلّق الفلاح باجتنابه ، فقال («٥ : ٩٠» يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الخَمْرُ وَالمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

فالأنصاب : كل مانُصِب يُعْبد من دون الله : من حجر ، أو شجر ، أو وَثَنٍ ، أو قَبْرٍ[1] .

وهي جمع ، واحدها نُصُب ، كطُنُب وأطناب .

قال مجاهد : وقَتادة ، وابن جُرَيج : « كانت حول البيت أحجار كان أهل الجاهلية يذبحون عليها ويُشرّحُون اللحم عليها ، وكانوا يعظمون هذه الحجارة ويعبدونها . قالوا : وليست بأصنام ، إنما الصنم مايُصَوّر ويُنْقَشُ » .

وقال ابن عباس « هي الأصنام التي يعبدونها من دون الله تعالى » .

وقال الزّجاج : « حجارة كانت لهم يعبدونها ، وهي الأوثان » .

وقال الفرّاء : « هي الآلهة التي كانت تعبد ، من أحجار وغيرها » .

---

(١) قال هشام بن السائب الكلبي في كتاب الاصنام : واستهترت العرب في عبادة الأصنام ، فنهم من اتخذ بيتا . ومنهم من اتخذ صنما . ومن لم يقدر عليه ولا على بناء بيت نصب حجراً أمام خيمته ، مما استحسن ، ثم طاف به كطوافه بالبيت وسموها الأنصاب . فإذا كانت تماثيل سموها الأصنام والأوثان ، وسموا طوافهم الدوار . فكان الرجل إذا سافر فنزل منزلا أخذ أربعة أحجار ، فنظر إلى أحسنها فاتخذه ربا . وجعل ثلاثا أثافي لقدره ، وإذا ارتحل تركه . فإذا نزل منزلا آخر فعل مثل ذلك . فكانوا ينحرون ويذبحون عند كلها ويتقربون إليها . وهم على ذلك عارفون فضل الكعبة عليها يحجونها ويعتمرون إليها ، وكان الذين نعلون من ذلك في أسفارهم إنما هو للاقتداء منهم بما يفعلون عندها ، ولصبابة بها .

وأصل اللفظة : الشيء المنصوب الذى يقصده من رآه ، ومنه قوله تعالى : (« ٧٠ : ٤٣ » يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ) .

قال ابن عباس « إلى غاية ، أو عَلَم يُسْرِعون » .

وهو قول أكثر المفسرين .

وقال الحسن « يعنى إلى أنصابهم ، أيُّهُم يَسْتَلِمُها أولاً » .

قال الزجاج : وهذا على قراءة من قرأ « نُصُب » بضمتين ، كقوله (« ٥ : ٣ » وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ) قال : « ومعناه : أصنام لهم» .

والمقصود : أن النصُب كلّ شيء نُصب : من خَشَبة ، أو حجر ، أو عَلَم ، والإيفاض : الإسراع .

وأما الأزلام. فقال ابن عباس رضى الله عنهما «هى قِداح كانوا يَسْتَقْسِمون بها الأمور » أى يطلبون بها علم ماقُسِمَ لهم .

وقال سعيد بن جُبير : « كانت لهم حَصَياتٌ إذا أراد أحدهم أن يَغْزُوَ ، أو يجلس ، استقسم بها » .

وقال أيضا « هى القدحان اللذان كان يستقسم بهما أهل الجاهلية فى أمورهم . أحدهما عليه مكتوب : أمرنى ربى ، والآخر : نهانى ربى . فإذا أرادوا أمراً ضربوا بها ، فإن خرج الذى عليه أمرنى ، فعلوا ماهَمُّوا به . وإن خرج الذى عليه نهانى . تركوه » .

وقال أبو عبيد « الاستقسام : طلب القسمة » .

وقال المبرّد « الاستقسام : أخذ كل واحدٍ قَسْمَه » .

وقيل : الاستقسام : إلزام أنفسهم بما تأمرهم به القداح ، كقَسَمِ اليمين .

وقال الأزهرى (وأن تستقسموا بالأزلام) «أى تطلبوا من جهة الأزلام ماقُسِم لكم من أحد الأمرين » .

وقال أبو اسحاق الزجاج وغيره « الاستقسام بالازلام حرام » .

ولافرق بين ذلك وبين قول المنجم : لاتخرج من أجل نجم كذا ، واَخْرُجْ من أجل طلوع نجم كذا ، لأن الله تعالى يقول (« ٣١ : ٣٤ » وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا)

وذلك دخول فى علم الله عزّ وجلّ الذى هو غيب عنا (١) . فهو حرام كالأزلام التى ذكرها الله تعالى .

والمقصود : أن الناس قد ابتلوا بالأنصاب والأزلام ، فالأنصاب للشرك والعبادة ، والأزلام للتَّكهُّن ، وطلب علم ما استأثر الله به ، هذه للعلم ، وتلك للعمل ، ودينُ الله سبحانه وتعالى مضادٌّ لهذا وهذا ، والذى جاء به رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم إبطالهما ، وكسرُ الأنصاب والأزلام .

فمن الأنصاب ما قد نصبه الشيطان للمشركين : من شجرة ، أو عمود (٢) أو وثن ، أو قبر أو خشبة ، أو عين ، ونحو ذلك . والواجب هدم ذلك كله ، ومحو أثره . كما أمر النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم عليًّا رضى الله عنه بهدم القبور المشْرِفة (٣) وتسويتها بالأرض . كما روى مسلم فى صحيحه عن أبى الهَيَّاج الأسَدِى . قال : قال لى على رضى الله عنه « ألا أبْعَثُكَ على ما بعثنى عليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ؟ أن لا أدعَ تمثالاً إلا طمسْته ، ولا قبراً مُشْرفا الاسويته» . وعَمَّى الصحابة بأمر عمر رضى الله عنه قبر دانيالَ ، وأخفوه عن الناس . ولما بلغه أن الناس ينتابون الشجرة التى بايع تحتها رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم أصحابه أرسل فقطعها . رواه ابن وَضّاح فى كتابه . فقال : سمعت عيسى بن يونس يقول « أمر عمر بن الخطاب رضى الله عنه بقطع الشجرة التى بويع تحتها النبى صلى الله تعالى عليه

---

(١) قال القاضى الإمام أبو بكر بن العربى فى آيات الأحكام (ج ١ ص ٢٢٥) :معناه : تطلبوا ما قسم لكم وجعل من حظوظكم وآمالكم ومنافعكم . وهو محرم فسق ممن فعله . فانه تعرض لعلم الغيب . ولا يجوز لأحد من خلق الله أن يتعرض للغيب ويطلبه فإن الله سبحانه قد رفعه بعد نبيه ، إلا فى الرؤيا . فإن قيل : فهل يجوز طلب ذلك فى المصحف ؟ قلنا : لا يجوز . فانه لم يبين المصحف ليعلم به الغيب . إنما بينت آياته ورسمت كلماته ليمنع عن الغيب فلا تشتغلوا به ، ولا يتعرض أحدكم له اهـ . وقوله : الرؤيا . ليس معناه ما يدعيه بعض الدجالين من أن فى استطاعته أن يرى فى كل وقت ومتى شاء ما شاء لكل من يطلب معرفة حظه والقدر له فى الأمر يريده : فان هذا غلو فى الجهل والدجل . ودعوى باطلة . وقال الإمام القرطبى فى تفسيره (ج ٦ ص ٥٩) بعد ما بين معنى الأزلام عن السلف : فالاستقسام بهذا كله هو طلب القسم والنصيب . وهو من أكل المال بالباطل . وهو حرام . وكل مقامرة بحمام أو بنرد أو شطرنج أو غير ذلك من هذه الألعاب فهو استقسام بما هو فى معنى الأزلام حرام كله . وهو ضرب من التكهن والتعرض لدعوى علم الغيب اهـ وكذلك ما يسميه العامة استخارة بالسبحة وأخذ الفال من القلة ، ومن الفنجان ، ومن الكف ونحوه . كل ذلك استقسام بالأزلام حرام .

(٢) كالعامود المنسوب إلى أحمد البدوى بمسجد الحسين رضى الله عنه .

(٣) المشرفة : المرتفعة فوق الأرض بالبناء عليها ، وتعليق الستور ونحو ذلك . ومن أعجب كيد الشيطان أن عليا رضى الله عنه هو الذى كان يهدمها بأمر رسول الله . ثم أقيمت وأعيد بناؤها محادة لله ولرسوله باسم علىّ وأولاد على . وهم والله برآء من ذلك .

وآله وسلم » فقطعها لأن الناس كانوا يذهبون فيصلون تحتها ، فخاف عليهم الفتنة .

قال عيسى بن يونس : وهو عندنا من حديث ابن عَون عن نافع « أن الناس كانوا يأتون الشجرة ، فقطعها عمر رضى الله عنه » .

فاذا كان هذا فعل عمر رضى الله عنه بالشجرة التى ذكرها الله تعالى فى القرآن ، و بايع تحتها الصحابة رَسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم [1] فماذا حكمُه فيما عداها من هذه الأنصاب والأوثان ، التى قد عَظُمت الفتنةُ بها ، واشتدت البَلِيَّة بها ؟ .

وأبلغ من ذلك : أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم هَدَم مسجدَ الضِّرار [2] . ففى هذا دليل على هدم ماهوأعظم فسادا منه ، كالمساجد المبنية على القبور . فان حكم الإسلام فيها : أن تهدم كلُّها ، حتى تسوّى بالأرض . وهى أولى بالهدم من مسجد الضِّرار . وكذلك القِباب التى على القبور ، يجب هدمها كلها . لأنها أُسِّسَتْ على معصية الرسول ، لأنه قد نهى عن البناء على القبور . كما تقدم . فبناء أُسس على معصيته ومخالفته بناء غير محترم . وهو أولى بالهدم من بناء الغاصب قطعاً .

وقد أمر رسولُ الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم بهدم القبور المشرِفة كما تقدم .

فهدمُ القباب والبناء والمساجدالتى بُنيت عليها أولى وأحْرَى . لأنه لَعَنَ مُتَّخذى المساجد عليها . ونهى عن البناء عليها ، فيجب المبادرة والمساعدة إلى هدم مالعن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فاعله . ونهى عنه . والله عزّوجلّ يُقيم لِدينه وسُنَّة رسوله من ينصرها ، ويَذُبُّ عنهما . فهو أشدُّ غَيْرة وأسرعُ تغييراً .

وكذلك يجب إزالة كل قِنْديل أو سراج على قبر ، وطَفْيُه . فان فاعل ذلك ملعون بلعنة رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم . ولا يصح هذا الوقف . ولا يحل إثباته وتنفيذه .

---

(١) قال الله تعالى فى سورة الفتح (٤٨ : ١٨ لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم مافى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً) .

(٢) قال تعالى : (٩ : ١٠٧ والذين اتخذوا مسجداً ضرارا وكفرا وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل . وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون ــ الآيات إلى ــ ١١٠) وهو مسجد أرصده المنافقون باشارة أبى عامر الفاسق مركزاً للدعاية ضد الإسلام ولفتنة المسلمين والكيد لهم.

قال الإمام أبو بكر الطَّرطوشى : انظروا رحمكم الله أينما وجدتم سِدْرَة ، أوشجرة يقصدها الناس و يعظمونها ، و يرجون البُرءَ والشفاء من قِبَلها . و يَضْرِبون بها المسامير والخِرَق ، فهى ذاتُ أنواط ، فاقطعوها .

وقال الحافظ أبو محمد عبد الرحمن بن إسماعيل المعروف بأبى شامه ــ فى كتاب : الحوادث والبدع ــ : ومن هذا القسم أيضاً ماقد عمّ به الابتلاء : من تزيين الشيطان للعامة تَخْليق الحيطان والعُمُد ، وسَرْج مواضع مخصوصة من كل بلد ، يَحكى لهم حاكٍ أنه رأى فى منامه بها أحداً ممن شُهر بالصلاح والولاية ، فيفعلون ذلك ، و يحافظون عليه ، مع تضييعهم فرائض الله ، وسننه ، و يظنون أنهم مُتقرّبون بذلك . ثم يتجاوزون هذا إلى أن يَعْظُم وَقْع تلك الأماكن فى قلوبهم فيعظمونها ، و يرجون الشفاء لمرضاهم ، وقضاء حوائجهم بالنذر لها ، وهى من بين عُيون ، وشجر وحائط ، وحجر وفى مدينة دمشق من ذلك مواضع متعددة[١] . كعُوَينة الحمى خارج باب تُوماَ ، والعمود المخلَّق داخل باب الصغير ، والشجرة الملعونة اليابسة خارج باب النصر . فى نفس قارعة الطريق . سهّل الله قطعها واجتثاثها من أصلها . فما أشبهها بذات أنواط التى فى الحديث ثم ساق حديث أبى واقدٍ « أنهم مَرُّوا مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم بشجرة عظيمة خضراء ، يقال لها : ذاتُ أنواط ، فقالوا : يارسول الله ، اجعلْ لنا ذاتَ أنواط كما لهم ذاتُ أنواط . فقال النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم : الله أكبر . هذا كما قال قوم موسى لموسى : اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة . قال : إنكم قوم تجهلون ، لترْكَبُنَّ سَنَنَ من كان قبلكم » . قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح .

ثم ذكر ماصنعه بعض أهل العلم ببلاد إفريقية : أنه كان إلى جانبه عين تسمى عين العافية ، كان العامة قد افتتنوا بها يأتونها من الآفاق ، فمن تعذَّرعليه نكاحٌ ، أو ولد ، قال : امضُوا بى إلى العافية ، فيعرف فيها الفتنة ، فخرج فى السَّحَر فهدمها ، وأذَّن للصبح عليها ، ثم

---

(١) وفى مصر وغيرها من بلاد الإسلام من ذلك مثل مافى دمشق وأكثر . فان أصل البلية فيها كلها من العبيدين المارقين الذين ادعوا كذبا وزوراً انتسابهم إلى فاطمة رضى الله عنها ، وهى منهم ومن أعمالهم بريئة . فهم أول من أسس ذلك بالقاهرة وغيرها ودافع عنه بالسيف والذهب . قبحهم الله وأخزاهم ومن يواليهم ويروج كفرهم وطواغيتهم .

قال : اللهم إنى هدمتها لك ، فلا ترفع لها رأساً ، قال : فما رُفع لها رأس إلى الآن .

وقد كان بدمشق كثير من هذه الأنصاب ، فيسَّر الله سبحانه كسرها على يد شيخ الإسلام وحزب الله الموحدين ، كالعمود المخَلَّق ، والنصُب الذى كان بمسجد النارنج عند المصلى يعبده الجهال ، والنصُب الذى كان تحت الطاحون ، الذى عند مقابر النصارى ، ينتابه الناس للتبرك به ، وكان صورة صنم فى نهر القَلُّوط ينذرون له ويتبركون به ، وقطع الله سبحانه النصُب الذى كان عند الرَّحَبة يسرج عنده ، ويتبرك به المشركون . وكان عموداً طويلا على رأسه حجر كالكُرَة . وعند مسجد درب الحجر نُصُب قد بنى عليه مسجد صغير ، يعبده المشركون يسَّر الله كسره .

فما أسرع أهل الشرك إلى اتخاذ الأوثان من دون الله ، ولو كانت ما كانت ، ويقولون : إن هذا الحجر ، وهذه الشجرة ، وهذه العين تقبل النذر ، أى تقبل العبادة من دون الله تعالى ، فإن النذر عبادة وقُربة ، يتقرب بها الناذر إلى المنذور له ، ويتمسحون بذلك النصُب ، ويَستَلمونه ، ولقد أنكر السلف التمسح بحجر المقام الذى أمر الله تعالى أن يُتخذ منه مُصلًّى ، كما ذكر الأزْرقى فى كتاب تاريخ مكة عن قتادة فى قوله تعالى : (« ٢ : ١٣٥ » وَاتخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى) قال : « إنما أمروا أن يصلوا عنده ، ولم يؤمروا بمسحه ، ولقد تكلفت هذه الأمة شيئاً ما تكلفته الأمم قبلها ذكر لنا من رأى أثره وأصابعه ، فما زالت هذه الامة تمسحه حتى اخْلَوْلَق » .

وأعظم الفتنة بهذه الأنصاب : فتنة أنصاب القبور ، وهى أصل فتنة عبادة الأصنام ، كما قاله السلف من الصحابة والتابعين ، وقد تقدم .

ومن أعظم كيد الشيطان : أنه ينصِب لأهل الشرك قبر مُعَظَّم يعظمه الناس ، ثم يجعله وَثناً يُعبد من دون الله ، ثم يُوحِى إلى أوليائه : أن مَنْ نهى عن عبادته ، واتخاذه عيداً ، وجعله وَثنا فقد تَنَقَّصَه ، وهَضم حقَّه ، فيسعى الجاهلون المشركون فى قَتْله وعقوبته ويكفرونه . وذَنْبُه عند أهل الإشراك : أمرُه بما أمر الله به ورسوله ، ونهيُه عما نهى الله عنه ورسوله : من جعله وثناً وعيداً ، وإيقاد السُّرُج عليه ، وبناء المساجد والقباب عليه وتَجْصِيصِه ، وإشادته وتقبيله ، واستلامه ، ودعائه ، أو الدعاء به ، أو السفر إليه ، أو الاستغاثة به من دون الله ، مما قد عُلم بالاضطرار من دين الإسلام أنه مضادٌّ لما بعث الله به رسوله : من تجريد التوحيد لله

وأن لا يُعبدَ إلا الله . فإذا نهى الموحِّد عن ذلك غضب المشركون ، واشمأزَّت قلوبهم ، وقالوا : قد تنقص أهلَ الرُّتب العالية . وزعم أنهم لا حُرمة لهم ، ولا قَدْر . وسَرَى ذلك فى نفوس الجهال والطَّغام ، وكثيرٍ ممن يُنسَب إلى العلم والدين ؛ حتى عادَوا أهل التوحيد ، ورَمَوْهم بالعظائم ونفرَّوا الناس عنهم . ووالَوا أهلَ الشرك وعظموهم . وزعموا أنهم هم أولياء الله وأنصارُ دينه ورسوله . ويأبى الله ذلك . فما كانوا أولياءه . إنْ أولياؤُه إلا المتبعون له الموافقون له ، العارفون بما جاء به ، الداعون اليه ، لا المتشبِّعون بما لم يُعطَوا ، لابِسُو ثِياب الزّور ، الذين يَصَدُّون الناس عن سُنة نبيهم ، ويَبْغُونها عِوَجاً ، وهم يَحْسبون أنهم يُحسنون صُنْعاً .

فصل

ولا تحسب أيُّها المنعَم عليه باتباع صراط الله المستقيم ، صراط أهلِ نعمته ورحمته وكرامته - أن النهى عن اتخاذ القبور أوثانا وأعياداً وأنصابا ، والنهى عن اتخاذها مساجد ، أو بناء المساجد عليها ، و إيقاد السُّرج عليها ، والسفر إليها ، والنذر لها ، واستلامها ، وتقبيلها ، وتعفير الجباهِ فى عرَصاتها : غَضٌّ من أصحابها ، ولا تنقيص لهم ، ولا تنقص . كما يحسبه أهل الإشراك والضلال . بل ذلك من إكرامهم ، وتعظيمهم ، واحترامهم ، ومتابعتهم فيما يُحبونه ، وتجنب ما يكرهونه . فأنت والله وَلِيُّهم ومُحِبُّهم ، وناصر طريقتهم وسنتهم ، وعلى هَدْيهم ومنهاجهم . وهؤلاء المشركون أعْصَى الناسِ لهم ، وأبعدُهم من هَدْيهم ومتابعتهم . كالنصارى مع المسيح ، واليهود مع موسى عليهما السلام ، والرافضة مع على رضى الله عنه . فأهلُ الحق أولَى بأهل الحق من أهل الباطل . فالمؤمنون والمؤمنات بعضُهم أولياء بعض . والمنافقون والمنافقات بعضهم من بعض .

فاعلم أن القلوب إذا اشتغلت بالبدع أعرضَتْ عن السُّنَنِ ، فتجد أكثر هؤلاء العاكفين على القبور مُعرضين عن طريقة مَنْ فيها وهَدْيِه وسُنته ، مشتغلين بقبره عمَّا أمَرَ به ودَعا إليه ، وتعظيمُ الأنبياء والصالحين ومحبتُهم إنما هى باتباع مادَعُوا إليه من العلم النافع ، والعمل الصالح ، واقتفاء آثارهم ، وسلوكِ طريقتهم ، دون عبادة قبورهم ، والعكوف عليها ، واتخاذها أعياداً .

فان من اقتفى آثارهم كان متسبباً إلى تكثير أجورهم باتباعه لهم ، ودعوته الناس إلى اتّباعهم . فاذا أعرض عما دعوا إليه ، واشتغل بضدّه حرم نفسه وحرمهم ذلك الأجر . فأىّ تعظيم لهم واحترام فى هذا ؟

وإنما اشتغل كثير من الناس بأنواع من العبادات المبتدعة التى يكرهها الله ورسوله . لإعراضهم عن المشروع أو بعضه ، وإن قاموا بصورته الظاهرة فقد هَجَروا حقيقته المقصودة منه ، وإلا فمن أقبل على الصلوات الخمس بوجهه وقلبه ، عارفاً بما اشتملت عليه من الكَلِم الطيب والعمل الصالح ، مُهتَمّاً بها كل الاهتمام ، أغْنَتْه عن الشرك ، وكلُّ من قَصَّر فيها أو فى بعضها تجد فيه من الشرك بحسب ذلك .

ومن أصغَى إلى كلام الله بقلبه ، وتدبَّره وتفَهَّمه ، أغناه عن السماع الشيطانى الذى يَصُدُّ عن ذكر الله وعن الصلاة ، ويُنبِت النِّفاق فى القلب. وكذلك من أصغَى إليه وإلى حديث الرسول صلى الله تعالى عليه وآله وسلم بكلِّيته ، وحَدَّثَ نفسه باقتباس الهُدَى والعلم منه، لا من غيره أغناه عن البدع والآراء والتخرّصات والشَّطَحات والخيالات ، التى هى وساوس النفوس وتخيُّلاتها.

ومن بَعُد عن ذلك فلا بدّ له أن يَتعَوَّض عنه بما لا ينفعه ، كما أن من غَمرَ قلبه بمحبّة الله تعالى وذكره ، وخشيته ، والتوكل عليه ، والإنابة إليه أغناه ذلك عن محبة غيره وخشيته والتوكل عليه ، وأغناه أيضا عن عِشق الصُّور . وإذا خلا من ذلك صارَعبدَ هواه ، أىَّ شيء استحسنه ملكه واستَعْبده .

فالمعرض عن التوحيد مشرك ، شاء أم أبى ، والمعرض عن السنة مبتدع ضال ، شاء أم أبى ، والمعرض عن محبة الله وذكره عبدُ الصُّوَر ، شاء أم أبى ، والله المستعان ، وعليه التُّكلان ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

[فصـــل]

فإن قيل : فما الذى أوقع عُبَّاد القبور فى الافتتان بها ، مع العلم بأن ساكنيها أموات، لا يملكون لهم ضرا ولا نفعا ، ولا موتاً ولا حياتاً ولا نشورا ؟

قيل : أوقعهم فى ذلك أمور :

منها : الجهل بحقيقة ما بعث الله به رسوله ، بل جميع الرسل : من تحقيق التوحيد ، وقَطْع أسباب الشرك ، فقلّ نصيبُهم جداً من ذلك . ودعاهم الشيطانُ إلى الفتنة ، ولم يكن

عندهم من العلم ما يُبطل دعوته ، فاستجابوا له بحسب ما عندهم من الجهل ، وعُصموا بقدر ما معهم من العلم .

— ومنها : أحاديث مكذوبة مُختلقة ، وضعها أشباه عُباد الأصنام : من المقابرية ، على رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم تُناقض دينه ، وما جاء به كحديث « إذا أعْيَتْكم الأمور فعليكم بأصحاب القبور » وحديث « لو أحسن أحدُكم ظنَّه بحجر نفعه » ، وأمثال هذه الأحاديث التى هى مناقضة لدين الإسلام . وضعَها المشركون ، وراجت على أشباههم من الجهال الضلال . والله بعث رسوله يقتل من حَسَّن ظنه بالأحجار ، وجَنَّب أمَّته الفتنة بالقبور بكل طريق ، كما تقدم .

— ومنها : حكايات حُكيت لهم عن تلك القبور : أن فلانا استغاث بالقبر الفلانى فى شِدَّة فخلص منها . وفلانا دعاه أودعا به فى حاجة ، فقضيت له . وفلانا نزل به ضُرٌّ فاسترجي[1] صاحب ذلك القبر . فكشف ضُره . وعند السَّدنة والمقابرية من ذلك شىء كثير يطول ذكره . وهم من أكذب خلق الله تعالى على الأحياء والأموات . والنفوسُ مُولَعة بقضاء حوائجها ، وإزالة ضرورتها ويسمع بأن قبرفلان تِرْياق مُجرَّب . والشيطان له تلطُّفٌ فى الدعوة ، فيدعوهم أوّلا إلى الدعاء عنده ، فيدعو العبد عنده بحُرْقَةٍ وانكسارٍ وذِلَّة ، فيجيب الله دعوته لما قام بقلبه ، لا لأجل القبر . فانه لو دعاه كذلك فى الحانة والخَّارة والحمّام والسوق أجابه ، فيظن الجاهل أن للقبر تأثيراً فى إجابة تلك الدعوة . والله سبحانه يجيب دعوة المضْطرِّ ، ولو كان كافراً . وقد قال تعالى (« ١٧ : ٢٠ » كُلًّا نُمِدُّ هٰؤُلَاءِ وَهٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا) وقد قال الخليل : (« ٢ : ١٢٦ » وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ) فقال الله سبحانه وتعالى : (وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) .

فليس كل من أجاب الله دعاءه يكون راضياً عنه ، ولا محبًّا له ، ولا راضياً بفعله ، فإنه يجيب البرَّ والفاجر ، والمؤمن والكافر ، وكثير من الناس يدعو دعاء يَعْتدى فيه ، أو يشترط فى دعائه ، أو يكون مما لايجوز أن يُسأل ، فيحصل له ذلك أو بعضه . فيظن أن عمله صالح

(١) فى نسخة « فاستوحى » .

مرضىٌّ لله ، و يكون بمنزلة من أُمْلِيَ له وأُمِدَّ بالمال والبنين ، وهو يظن أن الله تعالى يُسارع له فى الخيرات . وقد قال تعالى (« ٦ : ٤٤ » فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ) .

فالدعاء قد يكون عبادة ، فيثاب عليه الداعى ، وقد يكون مسألة تقضى به حاجته ، ويكون مضَرة عليه ، إما أن يعاقب بما يحصل له ، أو تنقص به درجته ، فيقضِي حاجتَه و يعاقبه على ماجرأ عليه من إضاعة حقوقه واعتداء حدوده .

والمقصود : أن الشيطان بلُطْفِ كيده يُحَسِّن الدعاء عند القبر ، وأنه أرجح منه فى بيته ومسجده ، وأوقات الأسحار ، فإذا تقرر ذلك عنده نقله درجةً أخرى : من الدعاء عنده إلى الدعاء به ، والإقسام على الله به ، وهذا أعظم من الذى قبله ، فإن شأنَ الله أعظم من أن يُقسَم عليه ، أو يسألَ بأحد من خلقه ، وقد أنكر أئمة الإسلام ذلك .

فقال أبو الحسين القدورى[1] فى شرح كتاب الكَرْخى : قال بشْرُ بن الوليد : سمعت أبا يوسف يقول : قال أبو حنيفة «لا ينبغى لأحد أن يدعو الله إلا به . قال : وأكره أن يقول: أسألك بمَعْقِدِ العزِّ من عرشك . وأكره أن يقول : بحقِّ فلان ، و بحق أنبيائك ورسلك ، و بحق البيت الحرام » .

قال أبو الحسين : أما المسئلة بغير الله فمنكرة فى قولهم ، لأنه لا حَقٌّ لغير الله عليه ، و إنما الحق لله على خلقه ، وأما قوله : « بمعقِد العز من عرشك » فكرهه أبو حنيفة ، ورخَّص فيه أبو يوسف .

وقال : وروى أن النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم دعا بذلك ، قال : ولأنَّ مَعْقد العزِّ من العرش إنما يراد به القدرة التى خلق الله بها العرش ، مع عظمته . فكأنه سأله بأوصافه .

---

(١) بهامش الأصل المخطوط : أبو الحسين القدورى : هو أحمد بن محمد بن أحمد القدورى الحنفى . مولده سنة اثنتين وستين وثلثمائة . انتهت إليه رياسة الحنفية بالعراق . وله كتاب مختصر القدورى .اهـ ولا نعلم لم نسب إلى القدورى . مات سنة ثمان وثلاثين وأربعمائة . اهـ من تاريخ ابن الوردى مختصراً . وله شرح مختصر الكرخى فى عدة مجلدات . وأملى التجريد فى الخلافيات . وله كتاب التقريب الأول فى الفقه فى خلاف أبى حنيفة . وأصحابه فى مجلد . والتقريب الثانى فى عدة مجلدات . وله ترجمة فى البداية والنهاية لابن كثير جزء ١٢ . وترجمة فى تاريخ بغداد وأثنى عليه بالصدق ، وفى النجوم الزاهرة (ج ٥ ص ٢٤) .

وقال ابن بَلْدَجِي فى شرح المختار : ويكره أن يدعو الله تعالى إلا به ، فلا يقول : أسألك بفلان ، أو بملائكتك ، أو بأنبيائك ونحو ذلك . لأنه لاحقّ للمخلوق على خالقه ، أو يقول فى دعائه : أسألك بمقعد العزّ من عرشك . وعن أبي يوسف جوازه .

وما يقول فيه أبو حنيفة وأصحابه « أكره كذا » هو عند محمد حرام . وعند أبى حنيفة وأبى يوسف هو إلى الحرام أقرب ، وجانب التحريم عليه أغلب .

وفى فتاوى أبى محمد بن عبد السلام : أنه لايجوز سؤال الله سبحانه بشىء من مخلوقاته . لا الأنبياء ، ولا غيرهم ، وتوقف فى نبينا صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ، لاعتقاده أن ذلك جاء فى حديث ، وأنه لم يعرف صحة الحديث[1] .

فإذا قرّر الشيطان عنده أن الإقسام على الله به ، والدعاء به أبلغ فى تعظيمه واحترامه ، وأنْجَعُ فى قضاء حاجته ، نقله درجةً أخرى إلى دعائه نفسه من دون الله . ثم ينقله بعد ذلك درجة أخرى إلى أن يتخذ قبره وَثَناً ، يعكُف عليه ، ويوقد عليه القنديل ، ويعلّق عليه الستور ، ويبنى عليه المسجد ، ويعبده بالسجود له ، والطواف به وتقبيله ، واستلامه ، والحج إليه ، والذبح عنده ، ثم ينقله درجة أخرى إلى دعاء الناس إلى عبادته ، واتخاذه عيداً ومَنْسكاً وأن ذلك أنفع لهم فى دنياهم وآخرتهم .

قال شيخنا ، قدس الله روحه : وهذه الأمور المبتدعة عند القبور مراتب ، أبعدها عن الشرع : أن يسأل الميت حاجته ، ويستغيث به فيها ، كما يفعله كثير من الناس . قال : وهؤلاء من جنس عُبَّاد الأصنام ، ولهذا قد يتمثّلُ لهم الشيطان فى صورة الميت ، أو الغائب . كما يتمثل لعبّاد الأصنام . وهذا يحصل للكفار من المشركين ، وأهل الكتاب ، يدعو أحدهم مَنْ يعظمه فيتمثّل له الشيطان أحياناً . وقد يخاطبهم ببعض الأمور الغائبة . وكذلك السجود للقبر، والتمسح به وتقبيله .

المرتبة الثانية : أن يسألَ الله عزّ وجل به . وهذا يفعله كثير من المتأخرين ، وهو بدْعة باتفاق المسلمين .

الثالثة : أن يسأله نفسه .

الرابعة : أن يظن أن الدعاء عند قبره مستجاب ، أو أنه أفضل من الدعاء فى المسجد .

---

(١) يشير إلى حديث عثمان بن حنيف فى قصة استشفاع الأعمى . وقد بسط القول فيه شيخ الإسلام ابن تيمية فى كتاب التوسل والوسيلة .

فيقصد زيارته ، والصلاة عنده . لأجل طلب حوائجه . فهذا أيضاً من المنكرات المبتدعة باتفاق المسلمين . وهي محرمة . وما علمتُ في ذلك نزاعاً بين أئمة الدين . وإن كان كثير من المتأخرين يفعل ذلك . ويقول بعضهم : قبرُ فلان تِرْياقٌ مُجرَّب .

والحكاية المنقولة عن الشافعي : أنه كان يقصد الدعاء عند قبر أبي حنيفة ، من الكذب الظاهر .

فصـــل

في الفرق بين زيارة الموحدين للقبور ، وزيارة المشركين

أما زيارة الموحدين : فمقصودها ثلاثة أشياء :

أحدها : تذكُّر الآخرة ، والاعتبار ، والاتعاظ . وقد أشار النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم إلى ذلك بقوله « زوروا القبور ، فإنها تذكركم الآخرة[1] » .

الثاني : الإحسان إلى الميت ، وأن لا يطول عهْدُه به ، فيهجره ، ويتناساه ، كما إذا ترك زيارة الحيّ مدة طويلة تناساه ، فإذا زار الحيّ فرح بزيارته وسُرَّ بذلك ، فالميت أولى . لأنه قد صار في دار قد هَجر أهلُها إخوانَهم وأهلهم ومعارفهم ، فإذا زاره وأهْدَى إليه هدية : من دعاء ، أو صدقة ، أو أهدى قُربة. ازداد بذلك سروره وفرحه ، كما يسرّ الحيّ بمن يزوره ويهدى له . ولهذا شرع النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم للزائرين أن يدعوا لأهل القبور بالمغفرة والرحمة، وسؤال العافية ،فقط ، ولم يشرع أن يدعوهم ، ولاأن يدعوا بهم، ولا يصلَّى عندهم .

الثالث : إحسان الزائر إلى نفسه باتباع السنة ، والوقوف عند ما شرَعه الرسول صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ، فيحسن إلى نفسه وإلى المزور .

وأما الزيارة الشركية : فأصلها مأخوذ عن عُبَّاد الأصنام .

---

(١) رواه ابن ماجه عن أبي هريرة . ورواه مسلم عن بريدة بلفظ «كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فانها تذكر الآخرة » . ورواه أيضاً عن أبي هريرة يرفعه بلفظ « زوروا القبور فانها تذكر الموت » ورواه الحاكم عن أنس يرفعه ، بلفظ « كنت نهيتكم عن زيارة القبور . ألا فزوروها . فانها ترقق القلب ، وتدمع العين ، وتذكر الآخرة ، ولا تقولوا هجراً » ورواه ابن ماجه عن ابن مسعود ، بلفظ «كنت نهيتكم عن زيارة القبور ، فزوروا القبور فانها تزهد في الدنيا وتذكر الآخرة » .

قالوا . الميت المعظَّم ، الذى لروحه قربٌ ومنزلة ومَزية عند الله تعالى ، لايزال تأتيه الألطاف من الله تعالى ، وتفيض على روحه الخيرات. فإذا علّق الزائرُ روحه به ، وأدناها منه ، فاضَ من روح المزور على روح الزائر من تلك الألطاف بواسطتها . كما ينعكس الشُّعاع من المرآة الصافية والماء ونحوه على الجسم المقابل له .

قالوا : فتمامُ الزيارة أن يَتَوَجَّه الزائر بروحه وقَلْبِه إلى الميت ، ويعكُفَ بهمَّته عليه ، ويوجه قصده كله وإقباله عليه ، بحيث لايبقَى فيه التفات إلى غيره . وكلما كان جَمْعُ الهِمَّة والقلب عليه أعظم، كان أقربَ إلى انتفاعه به .

وقد ذكر هذه الزيارة على هـذا الوجه ابن سِينا والفارابى وغيرهما . وصرح بها عُبَّاد الكواكب فى عبادتها

وقالوا : إذا تعلقت النفس الناطقة بالأرواح العلوية . فاض عليها منها النور .

وبهذا السر عُبِدت الكواكب ، واتخذت لها الهياكل ، وصُنِّفت لها الدعوات ، واتُّخِذَت الأصنامُ المجسَّدَة لها . وهذا بعينه هو الذى أوجب لعبَّاد القبور اتِّخاذها أعياداً ، وتعليق السُّتور عليها ، وإيقادَ السُّرج عليها ، وبناء المساجد عليها. وهو الذى قصَد رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم إبطاله ومَحْوَه بالكلية ، وسَدَّ الذرائع المفْضِية إليه . فوقف المشركون فى طريقه ، وناقَضُوه فى قَصْده . وكان صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فى شِقٍّ ، وهٰؤلاء فى شق .

وهذا الذى ذكره هٰؤلاء المشركون فى زيارة القبور : هو الشفاعة التى ظنوا أن آلهتهم تنفعهم بها ، وتشفع لهم عند الله تعالى .

قالوا : فإن العبد إذا تعلقت روحه بروح الوجيه المقرَّب عند الله ، وتوجه بهِمَّته إليه ، وعكف بقلبه عليه . صار بينه وبينه اتصال . يفيض به عليه منه نصيب مما يحصل له من الله . وشبهوا ذلك بمن يخدُم ذا جاهٍ وحَظوة وقُرْبٍ من السلطان . فهو شديد التعلق به . فما يحصل لذلك من السلطان من الانعام والإفضال ينال ذلك المتعلق به بحسب تعلقه به .

فهذا سِرُّ عبادة الأصنام . وهو الذى بعث الله رسله ، وأنزل كتبه بابطاله ، وتكفير أصحابه ، ولعنهم . وأباح دماءهم وأموالهم ، وسَبَى ذراريهم . وأوجب لهم النار . والقرآنُ من أوله إلى آخره مملوء من الرد على أهله ، وإبطال مذهبهم .

قال تعالى : (« ٣٩ : ٤٣ » أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ شُفَعَاءَ ؟ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لاَ يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلاَ يَعْقِلُونَ . قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً لَهُ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ) .

فأخبر أن الشفاعة لمن له ملك السموات والأرض ، وهو الله وحده . فهو الذى يشفع بنفسه إلى نفسه ، ليرحم عبده . فيأذن هو لمن يشاء أن يشفع فيه فصارت الشفاعة فى الحقيقة إنما هى له ، والذى يشفع عنده إنما يشفع بإذنه له وأمره ، بعد شفاعته سبحانه إلى نفسه وهى إرادته من نفسه أن يَرْحَمَ عبدَه . وهذا ضدُّ الشفاعة الشركية التى أثبتها هؤلاء المشركون ومَنْ وافقهم ، وهى التى أبطلها الله سبحانه فى كتابه ، بقوله (« ٢ : ١٢٣ » وَاتَّقُوا يَوْماً لاَ تَجْزِى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ) وقوله : (« ٢ : ٢٥٤ » يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِىَ يَوْمٌ لاَ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ) وقال تعالى : (« ٦ : ٥١ » وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِىٌّ وَلاَ شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) وقال : (« ٣٢ : ٤ » اللهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَالَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِىٍّ وَلاَ شَفِيعٍ)

فأخبر سبحانه أنه ليس للعباد شفيعٌ من دونه ، بل إذا أراد الله سبحانه رحمة عبده أَذِنَ هو لمن يشفعُ فيه . كما قال تعالى : (« ١٠ : ٣ » مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ) وقال : (« ٢ : ٢٥٥ » مَنْ ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ) فالشفاعة بإذنه ليست شفاعة من دونه، ولا الشافع شفيع من دونه ، بل شفيع بإذنه .

والفرق بين الشفيعين ، كالفرق بين الشريك والعبد المأمور .

فالشفاعة التى أبطلها الله : شفاعة الشريك فإنه لاشريك له ، والتى أثبتها: شفاعة العبد المأمور الذى لايشفع ولا يتقدّم بين يدى مالكه حتى يأذن له . ويقول : اشفع فى فلان . ولهذا كان أسعدُ الناس بشفاعة سيد الشفعاء يوم القيامة أهلَ التوحيد ، الذين جرَّدُوا التوحيد وخلّصوه من تَعلُّقات الشرك وشوائبه ، وهم الذين ارتضى الله سبحانه .

قال تعالى : (« ٢١ : ٢٨ » وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى) وقال : (« ٢٠ : ١٠٩ » يَوْمَئِذٍ لاَ تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمٰنُ وَرَضِىَ لَهُ قَوْلاً) .

فأخبر أنه لايحصل يومئذ شفاعة تنفع إلا بعد رضاء قول المشفوع له ، و إذنه للشافع فيه . فأما المشرك فإنه لايرتضيه ، ولايرضى قوله. فلا يأذن للشفعاء أن يشفعوا فيه فإنه سبحانه علّقها بأمرين : رضاه عن المشفوع له ، و إذنه للشافع . فما لم يوجد مجموع الأمرين لم توجد الشفاعة .

وسرُّ ذلك : أن الأمر كله لله وحده ، فليس لأحد معه من الأمر شيء ، وأعلى الخلق وأفضلهم وأكرمهم عنده : هم الرسل والملائكة المقربون . وهم عَبيد محضٌ ، لايسبقونه بالقول ، ولا يتقدَّمون بين يديه ، ولا يفعلون شيئاً إلا بعد إذنه لهم ، وأمرهم . ولاسيما يوم لاتملك نفس لنفس شيئاً . فهم مملوكون مربوبون ، أفعالهم مقيدة بأمره و إذنه . فإذا أشرك بهم المشرك ، واتخذهم شفعاء من دونه ، ظنا منه أنه إذا فعل ذلك تقدموا وشفعوا له عند الله ، فهو من أجهل الناس بحق الرب سبحانه ومايجب له . ويمتنع عليه . فإن هذا محال ممتنع ،شبيهُ قياس الرب تعالى على الملوك والكبراء ، حيث يتخذ الرجل من خواصهم وأوليائهم من يشفع له عندهم فى الحوائج

وبهذا القياس الفاسد عُبدت الأصنام ، واتخذ المشركون من دون الله الشفيع والولىّ .

والفرق بينهما هو الفرق بين المخلوق والخالق . والرب والمربوب ، والسيد والعبد . والمالك والمملوك . والغنىّ والفقير . والذى لاحاجة به إلى أحد قط . والمحتاج من كل وجه إلى غيره .

فالشفعاء عند المخلوقين : هم شركاؤهم . فإن قيام مصالحهم بهم . وهم أعوانهم وأنصارهم ، الذين قيام أمر الملوك والكبراء بهم . ولولاهم لما انبسطت أيديهم وألسنتهم فى الناس ، فلحاجتهم إليهم يحتاجون إلى قبول شفاعتهم . وإن لم يأذنوا فيها ولم يرضوا عن الشافع .لأنهم يخافون أن يَردُّوا شفاعتهم . فتنتقض طاعتهم لهم ، ويذهبون إلى غيرهم . فلا يجدون بدًّا من قبول شفاعتهم على الكُرْه والرضى . فأما الغنىُّ الذى غناه من لوازم ذاته ، وكلٌّ ماسواه فقير إليه بذاته . وكلُّ من فى السموات والأرض عبيدٌ له ، مقهورون بقهره ، مُصَرَّفون بمشيئته . لو أهلكهم جميعاً لم ينقص من عزّه وسلطانه ومُلكه وربوبيته وإلهيته مثقالُ ذرَّةٍ .

قال تعالى : (« ٥ : ١٧ » لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِى الْأَرْضِ جَمِيعاً وَلِلهِ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ) وقال سبحانه فى سيدة آى القرآن ، آية الكرسى : (« ٢ : ٢٥٥ » لَهُ مَا فِى السَّمٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِى

يَشْفعُ عِندَهُ إلاَّ بِإِذْنِهِ) وقال : (« ٣٩ : ٤٤ » قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً لَهُ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ)

فأخبر أن حال ملكه للسموات والأرض يوجب أن تكون الشفاعة كلها له وحده ، وأن أحداً لايشفع عنده إلا بإذنه ، فإنه ليس بشريك ، بل مملوك محض . بخلاف شفاعة أهل الدنيا بعضهم عند بعض .

فتبين أن الشفاعة التى نفاها الله سبحانه فى القرآن هى هذه الشفاعة الشركية التى يعرفها الناس ، و يفعلها بعضهم مع بعض . ولهذا يُطلق نفيها تارة ، بناء على أنها هى المعروفة المشاهدة عند الناس ، ويُقيدُها تارة بأنها لاتنفع إلا بعد إذنه ، وهذه الشفاعة فى الحقيقة هى منه ، فإنه الذى أذن ، والذى قبل ، والذى رضى عن المشفوع ، والذى وَفّقه لفعل ما يستحق به الشفاعة وقوله .

فمتخذ الشفيع مشرك، لاتنفعه شفاعته . ولا يشفع فيه ، ومتخذ الرب وحده إلٰهه ومعبوده ومحبوبه ، ومَرجوّه ، ومخوفه الذى يتقرب إليه وحده ، ويطلب رضاه ، ويتباعد من سَخَطه هو الذى يأذن الله سبحانه للشفيع أن يشفع فيه .

قال تعالى : («٣٩ : ٤٣» أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ ؟ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لاَ يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلاَ يَعْقِلُونَ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً) وقال تعالى : (« ١٠ : ١٨ » وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَالاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاَءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السَّمٰوَاتِ وَلاَ فِى الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) .

فبين سبحانه أن المتخذين شفعاء مشركون ، وأن الشفاعة لاتحصل باتخاذهم . وإنما تحصل باذنه للشافع ، ورضاه عن المشفوع له .

وسِرُّ الفرقِ بين الشفاعتين : أن شفاعة المخلوق للمخلوق ، وسؤاله للمشفوع عنده ، لايفتقر فيها إلى المشفوع عنده ، لاخلقاً ، ولا أمراً ، ولا إذنا ، بل هو سبب مُحرّك له من خارج . كسائر لأسباب التى تُحرّك الأسباب . وهذا السبب المحرك قد يكون عند المتحرك لأجله مايُوافقه ، كمن يشفع عنده فى أمر يُحبه و يرضاه ، وقد يكون عنده ما يُخالفه ، كمن يشفع إليه

فى أمرٍ يكرهه ، ثم قد يكون سؤاله.وشفاعتُه أقْوَى من المعارض ، فيقبل شفاعة الشافع . وقد يكون المعارض الذى عنده أقوى من شفاعة الشافع ، فيردها ولا يقبلها ، وقد يتمارض عنده الأمران ، فيبقى متردداً بين ذلك المعارض الذى يوجب الرد ، و بين الشفاعة التى تقتضى القبول، فيتوقف إلى أن يترجح عنده أحدُ الأمرين بمرجح ، فشفاعة الإنسان عند المخلوق مثله : هى سعىٌ فى سبب منفصل عن المشفوع إليه يُحركه به ، ولو على كُرْهٍ منه ، فمنزلة الشفاعة عنده منزلة من يأمر غيره[1] ، أو يُكرِهه على الفعل ، إما بقوة وسلطان ، و إما بما يرغبه . فلابد أن يحصل للمشفوع إليه من الشافع إما رغبة ينتفع بها ، و إما رهبة منه تندفع عنه بشفاعته . وهذا بخلاف الشفاعة عند الرب سبحانه ، فانه مالم يخلق شفاعة الشافع ، و يأذن له فيها، و يحبها منه ، و يرضى عن الشافع ، لم يمكن أن توجد . والشافع لايشفع عنده لحاجة الرب إليه ، ولا لرهبته منه ، ولا لرغبته فيما لديه ، و إنما يشفع عنده مجرد امتثال لأمره وطاعة له . فهو مأمور بالشفاعة ، مطيع بامتثال الأمر. فان أحداً من الأنبياء والملائكة ، وجميع المخلوقات لا يتحرك بشفاعةٍ ولا غيرها إلا بمشيئة الله تعالى ، وخَلْقه . فالرب سبحانه وتعالى هو الذى يحرك الشفيع حتى يشفع ، والشفيع عند المخلوق هو الذى يحرّك المشفوع إليه حتى يقبل . والشافع عند المخلوق مستغنٍ عنه فى أكثر أموره . وهو فى الحقيقة شريكه . ولو كان مملوكه وعبده . فالمشفوع عنده محتاج إليه فيما يناله منه من النفع بالنصر ، والمعاونة . وغير ذلك . كما أن الشافع محتاج إليه فيما يناله منه : من رزق ، أو نصر ، أو غيره ، فكل منهما محتاج إلى الآخر .

ومن وفقه الله تعالى لفهم هذا الموضع ومعرفته ، تبين له حقيقة التوحيد والشرك ، والفرق بين ما أثبته الله تعالى من الشفاعة و بين مانفاه وأبطله ، وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ .

(١) فى نسخة « منزلة من يشفع بأمر غيره » .

فهرس

صحيفة

مقدّمة الطبع للمصحح
٣ خطبة المؤلف
٧ الباب الأول
في انقسام القلوب إلى صحيح وسقيم وميت
٧ القلب السليم
٩ القلب الميت والمريض
١٠ حديث عرض الفتن على القلوب
١٢ تقسيم الصحابة للقلوب إلى أربعة
١٤ الباب الثانى
فى حقيقة مرض القلب
.. الحكمة فى جعل ملائكة النار تسعة عشر
١٥ حال القلوب عند ورود الحق المنزل
١٦ أسباب مرض البدن والقلب
١٨ الباب الثالث
أمراض القلب طبيعية وشرعية
١٩ الأمراض التى لاتزول إلا بالأدوية الإيمانية
٢٠ الباب الرابع
حياة القلب وإشراقه مادّة كل خير فيه .
وموته وظلمته مادّة كل شرّ فيه .
٢١ ضرب الله فى القرآن المثل المائى والنارى لوحيه وقلوب عباده عند سماع الوحى
٢٤ الباب الخامس
حياة القلب وصحته لاتحصل إلا بإدراكه للحق وإرادته له وإيثاره على غيره

صحيفة

٢٥ سورة العصر
٢٦ الباب السادس
لاسعادة للقلب ولا لذة ولا نعيم ولا صلاح إلا بأن يكون الله هو إلهه وهو معبوده وغاية مطلوبه وأحب إليه من كل ماسواه
.. لابدّ للقلب من معرفة المحبوب الذى ينتفع ويلتذ بإدراكه . والطريق الموصل إليه المحصل لذلك
٢٧ حديث البراء فى الدعاء إذا أتيت مضجعك
.. معنى الإلهية والربوبية . وما جاء من الآيات فيهما
٢٨ إنما خلق الله الخلق لعبادته الجامعة لمعرفته وحبه
دعاء النبيّ صلى الله عليه وسلم « اللهم بعلمك الغيب الخ » ومعناه وما فيه من أسرار .
٢٩ ماورد فى الاستشارة والاستخارة
٣٠ توحيد الربوبية لايكفى وحده . ورأس النجاة توحيد الإلهية
٣١ العبادة غذاء قلب المؤمن ونعيمه ، لا تكليف ومشقة . القرآن والإيمان فضل الله ورحمته
٣٢ أعلى نعيم الآخرة : النظر إلى وجه الله الكريم
٣٣ لذة النظر إلى وجه الله تابعة لتلذذ القلب بمعرفة الله ومحبته فى الدنيا

صحيفة

٣٤ من اعتصم بالله كفاه الله كل شيء
٣٥ أضرّ شيء على العبد تعلق قلبه بغير الله . وتعذيب الكافرين والمنافقين بأموالهم في الدنيا والآخرة
٣٧ عذاب أهل الدنيا بحبها . وصية الحسن البصري لعمر بن عبد العزيز
٣٩ تعذيب من أحب غير الله بما أحبه
٤٠ اعتماد العبد على المخلوق وتوكله عليه يوجب له الضرر من جهته ولابد
٤١ الله محسن إلى العبد أبدا . وهو الغنيّ الحميد بذاته
٤٢ العبد لا يعلم مصلحتك ويقدر عليها إلا بالله . وغالب الخلق يريدون قضاء حاجاتهم وإن أضرّ ذلك بمصلحتك
٤٣ خاتمة لهذا الباب في أنواع الإرادات والاستعانات

٤٤ الباب السابع

القرآن متضمن لأدوية القلب وعلاجه من كل أمراضه
ما في كتب الناس من أمراض الشبه والشكوك
٤٥ كلام الرازي في حيرته وحيرة علماء الكلام الذين شغلوا عن توحيد القرآن
شفاء القرآن لأمراض الشهوات

٤٦ الباب الثامن

في زكاة القلب ونمائه وطهارته من نجاسة الفواحش والمعاصي
٤٧ ما في غض البصر عن المحرّمات من الفوائد

صحيفة

٤٨ في غض البصر نور القلب وصحة فراسته وقوته وشجاعته
٤٩ آيات قرآنية في تزكية القلب وطهارته
٥٠ تفسير قوله تعالى (قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها)

٥٢ الباب التاسع

في طهارة القلب من أدرانه وأنجاسه . ومعنى قوله تعالى (وثيابك فطهر)
٥٤ اكتساب القلب من المأكل والملبس
٥٥ اعتياد سماع الباطل وقبوله يكسب القلب حبا لتحريف الحق . والقلب الطاهر لا يشبع من القرآن
٥٦ حرّم الله الجنة على من في قلبه نجاسة حتى يتطهر منها
٥٧ معنى قوله صلى الله عليه وسلم « اللهم طهرني من خطاياي بالماء والثلج والبرد »
٥٨ تشبيه المسافر إلى الله بالمسافر في الدنيا وأنه لا بدّ لكل منهما من زاد. والسرّ في قوله صلى الله عليه وسلم بعد قضاء الحاجة « غفرانك »
٥٩ ما في الشرك والزنا واللواطة من النجاسة والخبث
٦٠ الخبث القلبي قد يقوى حتى يظهر على البدن
٦١ المشرك يتنقص الله تعالى وينسب الموحد إلى تنقيص الأنبياء والأولياء
٦٢ المشرك ظانّ بالله ظنّ السوء . والمبتدع متنقص للرسول صلى الله عليه وسلم

صحيفة

٩٢ الاستعاذة تطرد ما يلقيه الشيطان فى القلب من الفساد . فيتلقى دواء القرآن وشفاءه

٩٢ الاستعاذة تطرد الشيطان لتحضر الملائكة

٩٣ الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه[1]

٩٤ الاستعاذة للقراءة فى الصلاة وغيرها

٩٥ همز الشيطان ونفخه ونفثه

٩٦ سر التأكيد بإن وضمير الفصل والتعريف فى قوله (إنه هو السميع العليم) فى سورة فصلت ، بخلافه فى سورة الأعراف

٩٨ إرشاد القرآن إلى الاستعاذة من المجادلين فى آيات الله بغير سلطان ومن الشيطان

٠٠ ليس للشيطان سلطان على الذين آمنوا

١٠٠ سلطان الشيطان على أوليائه

١٠٢ الباب الثالث عشر

فى مكائد الشيطان التى يكيد بها بنى آدم

١٠٢ تفسير قوله تعالى (فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم ـ إلى قوله شاكرين)

١٠٥ الشيطان يمنى الإنسان الغرور

١٠٦ كل مولود يولد على الفطرة

١٠٧ (الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء)

١٠٨ الشيطان يزين للإنسان السوء ثم يتبرأ منه

صحيفة

١١٠ الشيطان يخوف المؤمنين من جنده وأوليائه

١١١ أول مكايد الشيطان لآدم وحواء

١١٢ معنى الآية (مانهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين)

١١٥ من كيده العجيب أنه يشام النفس ليعلم أى القوتين عليها أغلب : الإقدام ، أو الإحجام ؟

١١٦ كل أمر من أوامر الله فللشيطان فيه نزغتان : تفريط ، أو غلو ، من قصر بهم الشيطان من أصناف الناس

١١٨ من مكايده الكلام الباطل والآراء المتهافتة والخيالات المتناقضة

١١٩ كيده للمفتونين بالآراء بأن قالوا : كلام الله ورسوله ظواهر لفظية لا تفيد اليقين

... كيده للمتصوفة الجهلة فى الشطحات وغيرها

١٢٠ كيده للإنسان من جهة حسن الخلق وإعزاز النفس وصونها

١٢١ كيده للإنسان بانقطاعه عن المساجد والجماعات

١٢٢ كيده للإنسان بإغراء الناس بتقبيل يده والتمسح به

... كيده لأرباب الرياضات والزهد بالعمل بهواجسهم دون تحكيم الشرع

١٢٣ لاقيمة لما يخطر على القلب حتى يكون موافقا للكتاب والسنة

١٢٤ المؤمن الصادق يتهم رأيه حتى يعرضه على كتاب الله وسنة رسوله

١٢٥ كيده للمتصوفة بالتزام زى واحد وشيخ معين يتعصبون له

(١) جمع طريق على التأنيث . وقد وقعت فى موضعها من الكتاب خطأ « بأطرافه »

صحيفة

١٢٦ كيده بالوسوسة فى الطهارة ونية الصلاة
١٢٧ ما ورد عن النبيّ صلى الله عليه وسلم والصحابة فى الوضوء والطهارة
١٢٨ دعوى الموسوسين أن ذلك للاحتياط والردّ عليهم فيها
١٢٩ بعض شبه الموسوسين والردّ عليها
١٣١ النهى عن الغلوّ وتعدّى الحدود
١٣٢ قول الشيخ أبى محمد المقدسى فى ذمّ الموسوسين
١٣٣ تحقق طاعة الموسوسين للشيطان
١٣٤ ما يلقاه الموسوس من الأذى والعنت
١٣٥ علاج الوسواس باستشعار أن الحق فى اتباع السنة
١٣٦ حقيقة النية فى الطهارة والصلاة . وما أحدث الموسوسون والمبتدعون فيها من مخالفات
١٣٨ البدع العشر التى أحدثوها فى النية
١٣٩ من الوسواس مايفسد الصلاة
١٤٠ الإسراف فى ماءالوضوء والغسل ومقدار الماء الذى كان الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة يتوضئون و يغتسلون به
١٤٢ الوسواس فى انتقاض الطهارة
١٤٣ ما يفعله كثير من الموسوسين بعد البول
١٤٤ تشديدهم فيما سهلت فيه الحنيفية
١٤٥ حكم النجاسة تجف وما يصيب الأرض والنعل منها
١٤٦ طهارة الخف والنعل بالدلك فى الأرض
١٤٧ طهارة ذيل المرأة تجره على الأرض .

صحيفة

١٤٧ الصلاة فى النعل سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فعلا وأمرا
١٤٨ السنة : الصلاة حيث كان وفى أى مكان إلا المقبرة والحمام وأعطان الإبل
١٤٩ كانوا فى عصر الصحابة ومن بعدهم يأتون المساجد حفاة يمشون فى الطين وغيره ولا يغسلون أرجلهم
١٥٠ ماجاء فى المذى يصيب الثوب
١٥١ الاستجمار بالأحجار . وأبوال مأكول اللحم . وما يصيب الثوب والجسم من القيح والصديد
١٥٢ كان رسول الله يصلى وهوحامل أمامة
١٥٣ كان رسول الله يلبس مانسج المشركون
... الوضوء مما أفضلت السباع
١٥٤ الصلاة مع يسير الدم
١٥٥ طهارة السيف وسكين الجزار والمرآة وحبل الغسال
١٥٦ الماء لا ينجس إلا بالتغير بنجاسة
١٥٧ طعام أهل الكتاب وآنيتهم و بول الصبى ولعابه
١٥٨ هلك المتنطعون
١٥٩ فساد الدين من تحريف الغالى وانتحال المبطل وتأويل الجاهل
١٦٠ الوسوسة فى مخارج الحروف عند القراءة
١٦١ من كره قراءة حمزة
١٦٢ الجواب عما احتج به الموسوسون من الاحتياطات
١٦٣ الاحتياط إنما هو فى اتباع السنة . و بيان الشبهات والورع
١٦٥ من حلف على شىء ثم بان كما قال

صحيفة

١٦٦ من طلق واحدة من نسائه ثم نسيها أو واحدة مبهمة
١٦٧ العمل بالقرعة فى الطلاق
١٧١ من حلف على يمين ثم نسيها
١٧٢ من حلف ليفعلن كذا ولم يعين وقتا
١٧٢ تعليق الطلاق بوقت يجيء لا محالة
١٧٥ من شك هل انتقض وضوءه أم لا ؟
١٧٦ من خفى عليه موضع النجاسة . والثياب المختلطة طاهرها بنجسها
١٧٧ اشتباه الأوانى . واشتباه القبلة
١٧٨ من ترك صلاة من يوم لا يعلم عينه
١٧٩ من شك فى صلاته
١٨٠ ما كان يفعله ابن عمر وأبو هريرة من المبالغة فى الوضوء ومخالفة الصحابة لهما
١٨٢ خير الأمور الوسط بين الغالى والجافى
... أعظم مكايد الشيطان تعظيم القبور والغلوّ فيها وفى أهلها
١٨٣ أوّل ما وقع فى الأرض من شرك قوم نوح
١٨٤ أصل الشرك الغلوّ فى الصالحين وفى آثارهم وقبورهم
١٨٥ نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن اتخاذها مساجد والأحاديث فى ذلك
١٨٩ لعن من اتخذ القبور مساجد والنهى عن الصلاة فيها وعندها، لما تجرّ إليه من عبادتها وعبادة أهلها ، لا لنجاسة أرضها وترابها
١٩٠ النهى عن اتخاذ القبور أعيادا وموالد
١٩٢ مراغمة عباد القبور لله ورسوله بالعكوف عند القبور

صحيفة

١٩٣ مافى اتخاذ الموالد من المفاسد التى لا يعلمها إلا الله
١٩٤ ما يفعله غلاة المتخذين لأعياد القبور عندها
١٩٥ مناقضة الغلاة فى هذه البدع لسنة رسول الله
١٩٦ بناء المساجد والقباب وإيقاد السرج على القبور هدم لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم
١٩٧ إيذاء عباد القبور للمقبورين من الصالحين وبراءة الصالحين منهم يوم القيامة
١٩٨ إنما شرعت زيارة القبور لتذكر الآخرة والإحسان إلى الميت والاستغفار له ، لا لدعائه والدعاء به وسؤاله الحوائج
١٩٩ زيارة أهل الإيمان التى شرعها الرسول صلى الله عليه وسلم والأحاديث فيها
٢٠٠ لن يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أوّلها ، بتجريد التوحيد وحماية جانبه وتجريد الطاعة لله ورسوله
٢٠١ الدعاء هو العبادة . دعاء النبيّ صلى الله عليه وسلم للميت فى الصلاة عليه
٢٠٣ مافعل الصحابة فى عهد عمر بقبر دانيال حين وجدوه فى بعض خزائن العجم
٢٠٤ الدعاء عند القبور والصلاة عندها والتبرّك بها شرّ لاخير فيه أصلا
٢٠٥ قطع عمر رضى الله عنه شجرة بيعة الرضوان ونهيه عن اتخاذ آثار الأنبياء والصالحين مساجد
... قصة ذات أنواط بغزوة حنين
٢٠٦ تغير الناس عما كان على عهد رسول الله فتنة شر فتنة

صحيفة

٢٠٧ مكايد الشيطان بالأنصاب والأزلام ومعناها لغة وشرعا
٢٠٨ من الاستقسام بالأزلام قول العرّافين والمنجمين
٢٠٩ اتخاذ الأنصاب من أشجار وأحجار للشرك والعبادة، واتخاذ الأزلام بأنواعها للتكهن وعلم ما استأثر الله به
٢١٠ هدم القباب والمساجد التى على القبور أولى من هدم مسجد الضرار
٢١١ ما قاله الطرطوشى وأبو شامة فى الأنصاب
٢١٢ ماهدم ابن تيمية من الأنصاب فى دمشق
٢١٣ هدم القباب والأنصاب التى على القبور تعظيم وإكرام لأهلها
٠٠٠ القلوب إذا شغلت بالبدع أعرضت عن السنن ولا بدّ

صحيفة

٢١٤ الأمور التى أوقعت عباد القبور فى هذه الفتنة : الجهل بالدين . وأحاديث مكذوبة . وحكايات مختلقة
٢١٦ تلطف الشيطان فى جرّ العبد إلى الشرك بتحسين الدعاء عند القبر، ثم بدعاء المقبور
٢١٧ مراتب المبتدعات عند القبور
٢١٨ الفرق بين زيارة الموحدين للقبور وزيارة المشركين
٢١٩ قول ابن سينا والفارابى وعباد الكواكب فى سر زيارة القبور
٢٢٠ الفرق بين الشفاعة الشركية والشفاعة القرآنية
٢٢١ لاتقاس الشفاعة عند الله بالشفاعة عند الخلق، والفرق بينهما

من مطبوعات دار طيبة

الأصول من علم الأصول................	الشيخ محمد بن صالح بن عثيمين
الإمامة العظمي عند أهل السنة والجماعة................	عبد الله عمر بن سليمان الدميجى
أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ................	د. جمال عبد الهادي محمد مسعود
أهمية الجهاد في نشر الدعوة الإسلامية والرد على الطوائف الضالة فيه................	د. علي بن نفيع العلياني
تسهيل الفرائض................	الشيخ محمد بن صالح بن عثيمين
التعليقات المفيدة على العقيدة الواسطية................	تعليق وتخريج عبد الله بن عبد الرحمن بن علي الشريف
التدخين مادته وحكمه في الإسلام	الشيخ عبد الله بن جبرين
الخطوط العريضة................	الأستاذ/ محب الدين الخطيب
دعوة جمال الدين الأفغاني في ميزان الإسلام................	مصطفى فوزي عبد اللطيف غزال
رسائل في العقيدة................	الشيخ محمد بن صالح بن عثيمين
رسائل فقهية................	الشيخ محمد بن صالح عثيمين
رسائل من السجن................	لشيخ الإسلام ابن تيمية

رسالة في الرد على الرافضة..........	للشيخ محمد بن الوهاب
رسالة في أمراض القلوب..........	لابن القيم الجوزية
رسالة في تحريم الغناء..........	لابن القيم الجوزية
أحاديث الآحاد..........	الشيخ عبد الله بن جبرين
كتاب دلائل النبوة..........	للإمام إسماعيل بن محمد التيمي ــ اعداد إبى عبد الله محمود بن محمد الحداد
عودة الحجاب..........	اعداد وترتيب محمد أحمد اسماعيل المقدم
شرح أصول اعتقاد أهل السنة من الكتاب والسنة واجماع الصحابة والتابعين ومن بعدهم..........	تأليف الإمام أبى القاسم هبة الله بن الحسن منصور الطبري اللالكائي ــ تحقيق د. أحمد سعد حمدان
الشيعة والسنة..........	إحسان ألهي ظهير
عبد الله بن سبأ وأثره في أحداث الفتنة في صدر الإسلام..........	د. سليمان بن حمدان العودة
فهارس كتاب اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان	عبد الرحمن دمشقية
الولاء والبراء في الإسلام..........	محمد بن سعيد سالم القحطاني
منزلة الصحابة في القرآن..........	محمد صالح محمد الصاوي
المرأة المسلمة..........	الشيخ محمد بن صالح بن عثيمين
فكرة القومية العربية في ضوء الإسلام	صالح بن عبد الله العبود